أحمد القاضي

رواية

لأنها تَستحِق

دار دَوّن

لأنـها تستحق

أحمد القاضي: لأنها تستحق، روايــة

الطبعة العربية الأولى: يناير ٢٠٢٠

رقم الإيداع: ٢٣٨٠٦ /٢٠١٩ - الترقيم الدولي: 7 - 185 - 806 - 977 - 978

جَميــع حُـقــوق الطبْــع والنَّشر محـْــفُوظة للناشِر

لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة

بدون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

دار دَوِّنْ ©

عضو اتحاد الناشرين المصريين.

عضو اتحاد الناشرين العرب.

القاهرة - مصر

Mob +2 - 01020220053

info@dardawen.com

www.Dardawen.com

أحمد القاضي

لأنـهـا تستـحـق

روايـــة

إهـــداء

كم أتمنى لو أن الحياة تعود بي إلى الماضي البعيد، وتُكتَب لي بداية جديدة تكون معكِ أنتِ فقط، وأن أكون مُلتصقًا بكِ مُنذ نشأتي وحتى مماتي!

أُريد أن أكون نُطفةً داخل رحِمكِ أنتِ، ثم أكون رضيعًا نائمًا على صدركِ أنتِ، ثم أُصبِح طفلًا يجري مِن الدنيا إلى أحضانكِ أنتِ، وأكبر بعدها لأكون زوجًا وعشيقًا لكِ، وأُصبح شيخًا وأنتِ الابنة الأثيرة لديَّ، ثم أرحل في سلام بعد أن كنتِ أنتِ أمي وزوجتي وابنتي، تكونين لي كل الناس، تكونين لي كل شيء.

كثيرًا ما ألتفتُ إلى كتاباتي السابقة، فأجد أنني لستُ راضيًا عما كتبته، ولستُ راضيًا عما أكتبه الآن أيضًا! لا تكمن مُشكلتي في رضائي عن الموضوعات أو الأسلوب أو الحبكة، لكن مُشكلتي الحقيقة هي عدم القدرة على البوح بأريحية، فحتى هذه اللحظة أنا لم أقل شيئًا بعدُ، ولم أحكِ كل الحكاية حتى الآن، في حقيقة الأمر إنني أُعاني بشدة مِن عدم المقدرة على البوح بما أُريد أن أحكيه، وهو ما يؤلمني بشدة.

قُلتُ لصديقي ذات يوم إنني سأكتبُ شيئًا مهمًّا وسأستودعه إياه، وكل ما عليه هو أن يقوم بنشره عندما يصله خبر وفاتي، حينها انزعج هو بشدة، لستُ أدري هل كان انزعاجه بسبب شعوره بخطورة ما سأكتبه، أم إنه انزعج مِن فكرة رحيلي تلك، في الواقع أنا أيضًا أخشى الموت بشدة.

في الحقيقة أنا لا أخشى الموت كحدث في حد ذاته، لكنني أخشى ما هو بعد الموت، أخاف مِن كل تلك المصائر التي سيتم حسمها وبسُرعة فور رحيلي، وهو ما لم أستعدَّ له على الإطلاق، ولا أعلم هل سأتمكن مِن اللحاق والنجاة بنفسي أم لا؛ فالأيام تمر سريعًا وما زال كل شيء مؤجلًا، كل ما في حياتي مُعلَّق، وروحي قلِقة على الدوام.

كل ما أتمناه أن يمنحني الله العُمر؛ حتى أتمكن مِن استدراك الأمور.

حسنًا، ماذا ستحكي لنا هذه الرواية الجديدة إذًا؟ وهل سأكون مُختبئًا بداخلها -أو حتى قطعة مني- أم إنني سأبتعد عنها هذه المرة أيضًا؟ يُخيَّل لي أن أعظم ما كتبتُ على الإطلاق هو ذلك الكتاب الذي سيقوم صديقي بنشره بعد وفاتي، وهو بالمُناسبة لم أكتبه بعدُ، حتى البوح سرًّا لم أستطع أن أفعله إبعد!

(١)

مُبتدأ

«بعض العلاقات تكون على هيئة فَخ، تُسعدكَ شهرًا، وتهدمكَ عُمرًا!».

مارك توين(1)

فتحت «سيرين» عينيها بتكاسُل ناعم، ثم تنفست بعُمق، ودارت بعينيها في أرجاء المكان دون أن تُحرك رأسها مِن مكانها، تساءلت في حيرة:

- كم يكون الوقت الآن يا تُرى؟ أخذتْ تُحسس بيدها اليُمنى على سطح المنضدة المُجاورة لفراشها، إلى أن شعرت بملمَس هاتفها المحمول، فتناولته وقرَّبت شاشته نحو عينيها، لتجد أن الوقت ما زال مُبكرًا، فالساعة لم تتجاوز السابعة والنصف صباحًا بعدُ! ما السبب الذي يجعلها تستيقظ في هذا التوقيت؟ سألت ذلك لنفسها، لكن الإجابة جاءتها سريعًا حينما سمعت صوت طرقات مُتتالية لكنها مكتومة، ربما كان قد تكرر صوت تلك الطرقات قبل ذلك، وهو ما أدى إلى استيقاظها في ذلك الوقت، زادت حدة صوت الطرقات فجأة، فنهضت مِن فراشها بسُرعة لكي تستطلع الأمر! توجهت نحو تلك البوابة الزجاجية العريضة والتي تؤدي نحو الشُّرفة الواسعة التي تطل على الشاطئ، ثم أزاحت برفق جُزءًا صغيرًا مِن الستائر التي تُغطي زُجاج الشُرفة، فلم تجد شيئًا غريبًا في الشُّرفة أو الحديقة أو الشاطئ الخاص بالشاليه الذي تبيت فيه! ثم سمعت فجأة صوت جلبة كبيرة تأتيها مِن جهة اليسار، تلفتتْ نحوها، فوجدت مجموعة قليلة مِن أفراد الشُّرطة يقفون بباب الشاليه المُجاور! إنه الشاليه الذي يمتلكه صديقها «مدحت الشاعر»، والذي كان قد خرج إليهم، ويبدو أنه يتناقش معهم بحدَّة واضحة!

عادت «سيرين» مُسرعة نحو غرفة النوم؛ لكي تضع على جسدها المكشوف روبًا طويلًا ساترًا لجسمها، ثم خرجت إليهم وهي في غاية الفُضول والانزعاج، وما أن وصلت إلى مكانهم حتى كان «مدحت» يبدو وأنه قد نفد صبره تمامًا، وقرر الاستسلام لهم وكان يقول:

- يبدو أنه لا توجد فائدة مِن إقناعكم أبدًا، فمِن الواضح أنكم تقومون بتنفيذ الأوامر العمياء دون تفكير أو إقناع أو تمييز! حسنًا سأذهب معكم إلى قسم الشُّرطة، لكنكم ستُدركون سريعًا أن هناك خطأ ما، سأذهب معكم؛ لأنني واثق تمامًا مِن سلامة موقفي، ولأنني لن أكون يومًا فوق القانون مهما كان مقدار شُهرتي وعلاقاتي.

صرختْ «سيرين» وقالت بانزعاج واضح:

- ما هذا الذي يحدث يا مدحت؟ لماذا تُريدكَ الشُّرطة أن تذهب معهم؟

فقال مدحت وهو يهمُّ بركوب سيَّارة الشّرطة:

- لا توجد تفاصيل واضحة بعد، لكن هذا الضابط يدعي أن زوجتي «شهيرة» قد تم اختطافها أمس، وأنهم يشتبهون في أنني قد أكون السبب وراء ذلك! هل يُعقل هذا؟

فقالت «سيرين»:

- غير معقول! هذا جنون بلا شك، هل تُريدني أن أفعل لك شيئًا الآن؟

فقال «مدحت» بينما كانت سيَّارة الشُّرطة تبدأ في التحرك:

- أجل، مِن فضلك اتصلي بالأستاذ «سعيد المُقدِّم»، أخبريه بالأمر لكي يقوم باستدعاء المحامي الخاص بي؛ فهو يعرفه جيدًا، ويعرف مكان مكتبه، أخبريه بأن يجعلهم يرسلون مُحاميًا حالًا إليّ.

ابتعدتْ سيَّارة الشُّرطة، بينما وقفت «سيرين» للحظات وهي في غاية الدهشة والذهول مما سمعتْ! فقد كانت أمس تبحث عن «مدحت» طيلة اليوم، لكنه كان قد اختفى تمامًا مِن القرية السياحية التي يسكنونها دون سابق إنذار، وعلى الرغم من أنهما كانا يمرحان سويًّا حتى مُنتصف ليلة أول أمس، إلا أنه لم يخبرها بأنه قد يغيب عن المكان في اليوم التالي، كما أن هاتفه المحمول كان مُغلقًا على الدوام طوال يوم أمس!

(٢)

شهيرة

«وأما قبل، فقد رأيتُ عندكِ الفجر، وأخذتُ مِنه نهارًا أحمله في روحي لا يُظلم أبدًا!».

مُصطفى صادق الرافعي(2)

كانت جموع الصحفيين والمصورين يتزاحمون لتوثيق تلك اللحظة الفريدة التي لم تحدث مِن قبل في تاريخ مصر الأدبي على الإطلاق، فلا يوجد في الذاكرة التاريخية لمصر أن قام أي وزير للثقافة على مرِّ العصور بحضور حفل توقيع لأي عمل أدبي أو روائي، حتى ولو حاز أيٌّ مِنهم على أرفع الجوائز؛ مثل نجيب محفوظ الحائز لجائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٨م، ولكن في حالة الكاتب «مدحت الشاعر»، فقد كان الأمر يختلف، ويستحقُّ مثل هذا الاستثناء النادر.

فـ«مدحت الشاعر» يُعَدُّ حالة فريدة لم تتكرر في الوطن العربي مِن حيث الانتشار والثراء والتأثير، وسط شعوب اعتادت ألا تهتم كثيرًا بالثقافة والمعرفة. ربما نسمع بين الحين والآخر عن روائيين أجانب قد حققوا شُهرة واسعة وثروات طائلة؛ نتيجة زيادة مبيعات مؤلفاتهم ورواياتهم؛ ذلك لأن شعوبهم تعشق القراءة وتُقدسها، فكما تُشير الإحصائيات فإن الفرد الأجنبي قد يقرأ نحو أحد عشر كتابًا كل عام أو يزيد، بينما المواطن العربي يكاد يقرأ رُبع صفحة فقط في العام كله في أحسن الأحوال.

لكن مؤلفات «مدحت الشاعر» هي الوحيدة التي كسرت تلك القواعد المُعتادة، وأصبح اللون الأدبي الذي يُقدمه ذا شعبية واسعة النطاق في الوطن العربي كله، كما أنه تمت ترجمة أعماله الأدبية إلى العديد مِن اللغات الأجنبية، وحتى الصينية واليابانية أيضًا. صار اقتناء مؤلفات «مدحت الشاعر» أمرًا يدعوا للفخر، لذا فقد كانت الطبعات المُختلفة مِن جميع كُتبه تنفد باستمرار، وتُعاد طباعتها مُجددًا بانتظام، هذا بخلاف أن جميع تلك المؤلفات قد تمت مُعالجتها في السينما والتلفزيون والمسرح بأشكال مُختلفة أكثر مِن مرة، وهو ما كان يُدرُّ أرباحًا مُضاعفة على الكاتب الشهير.

كان حفل التوقيع هذا بمثابة احتفاء غير مُباشر بما وصل إليه «مدحت الشاعر» بعد أن تم إطلاق روايته الأخيرة في جميع مكتبات الوطن العربي في نفس اليوم الذي يبدأ فيه عرض فيلم ذي إنتاج ضخم مُقتبَس مِن نفس الرواية، وهو حدث غريب لم تكن له سابقة مُماثلة في الوسط الأدبي أو الفني على حد سواء.

انتهتْ زيارة وزير الثقافة سريعًا بعد أن ألقى كلمة مُرتجلة عن فخره واعتزازه بما يقدمه «مدحت الشاعر» مِن جذب سياحي وإعلامي لمصر، فقد صار أيقونة مصرية ذات شُهرة عالمية تجعل الجميع يلتفتون نحو مصر، ويضعونها نُصبَ أعينهم. بعدها قام «مدحت الشاعر» بتوديع الوزير عند باب القاعة، ثم عاد ليتوسَّط الطاولة الكبيرة؛ لكي يقوم بتوقيع نُسَخ تلك الرواية الأخيرة

لجمهور الحاضرين الغفير، والذين اصطفوا في طابور طويل قد يستغرق ساعتين مِن الوقت على أقل تقدير حتى يتسنى للجميع الحصول على توقيع الكاتب.

وكعادتها دائمًا، جلستْ زوجته «شهيرة» بجواره مُتلألئة بجمالها الذي يطغى على شُهرته كما كان يقول لها دائمًا.

كانت تنظر إليه بحبٍّ وإعجاب، وتذكرته حينما قال لها يومًا:

- إن كان هناك مَن يحسدني على ما أنا فيه، فسيكون ذلك بسبب أنكِ زوجتي، قد يرزق الله المُجتهدين النجاح أو الشُهرة أو الأموال، لكن أن ينعموا فوق كل ذلك بزوجة مُتألقة وفاتنة مثلكِ فهذا أمر نادر الحدوث، وأكاد أُجزم بأنني الوحيد الذي امتلكتُ الدنيا كلها حينما عرفتكِ. هل تعرفين أن الشاعر السوري «نزار قباني»(3) كان يتحدث عنكِ دون أن يعرفكِ شخصيًّا؟

- حقًّا؟ وماذا قال عني؟

- كان يقول:

هل عندكِ شَكٌّ أنَّكِ أحلى امرأةٍ في الدُنيا؟

وأَهَمُّ امرأةٍ في الدُّنيا؟

هل عندكِ شكٌّ أنِّي حين عثرتُ عليكِ

ملَكتُ مفاتيحَ الدُّنيا؟

هل عندكِ شكٌّ أنِّي حين لَمَستُ يَدَيْكِ

تغيَّر تكوينُ الدنيا؟

هل عندكِ شكٌّ أن دخولَكِ في قلبي

هو أعظمُ يومٍ في التاريخ

وأجمل خَبَرٍ في الدُّنيا؟

انتهى «مدحت» مِن حفل التوقيع، وودَّعه الناشر ومُدير القاعة إلى سيَّارته المرسيدس الفارهة، فأجلس «مدحت» زوجته «شهيرة» أولًا، ثم ركب السيَّارة، وانطلق وهو يُلوِّح للمودعين بيده، ثم نظر نحو «شهيرة» وقال لها:

كعادتكِ دائمًا.. بشرتكِ البيضاء، ورداؤكِ الأسود، وشعركِ الذهبي اللون، جميعهم يجعلونكِ - مُضيئة كالشمس الظاهرة للجميع مهما كان الظلام حالكًا، ومهما كان الزحام.

- هل ما زلتَ تراني كذلك بعد كل هذه السنوات؟

- وما الذي تغيَّر فيكِ طوال تلك السنوات؟ ما زلتِ تزدادين جمالًا وإشراقًا. (يبتسم).

- وهل ما زلتَ تعشق الشعر الذهبي اللون؟ ألم تملَّ مِنه بعدُ؟

- إنكِ في كل مرة تسألينني نفس السؤال، وفي كل مرة أُجيبكِ نفس الجواب، وأنتِ تعلمين ذلك.

- وفي كل مرة سأُكرر نفس الكلام أنا أيضًا، سأحكي لكَ حكايتي مع «مدحت الشاعر» (تضحك) للمرة المائة بعد الألف، لقد كان لون شعري الطبيعي أسود كالليل، وحدث ذات يوم أن قررتُ خوض تجربة تغيير لونه بسبب الملل لا أكثر، وفي اليوم الأول الذي صرتُ فيه شقراء.. قابلتُكَ أنتَ، قابلتُكَ وأنا لا أعلم أنكَ تُحب الشقراوات!

- أعشق سماع تلكَ الحكاية..

- يا له مِن قَدَر، تخيَّل لو أنني كنتُ التقيتُكَ بشعري الأسود اللون، هل كنتَ حينها ستتجاهلني ولن تلتفتَ إليَّ؟ يا الله.. لا أستطيع مُجرَّد تخيُّل أنني قد لا أكون زوجتكَ أنتَ يومًا، الحمد لله أنني قمتُ بتغيير لون شعري قبل لُقياكَ بيوم واحد فقط!

حينها أمسكَ «مدحت» يدها وقرَّبها نحو شفتيه وقبَّلها، وقال:

- وأنا أيضًا لم أكُن أتخيَّل كيف تكون حياتي بدونكِ، فقد آمنتِ بي قبل أن أكون ما أنا عليه الآن، وعشتِ معي أيامًا صعبة كنتُ فيها فقيرًا جدًّا مُقارنةً بما أنا عليه الآن.

- لم يحدث ذلك أبدًا، لقد كُنَّا دائمًا ميسوري الحال، ولم أشعر معكَ بضيق الحال يومًا على الإطلاق.

- يبدو أنكِ نسيتِ ما الذي حدث عندما كنتِ حُبلى لأول مرة.

- حقًّا؟ وما هو ذلك الشيء الذي لا أذكرهُ؟

- ألا تذكرين الأقساط المالية المُتأخرة الخاصة بالأجهزة المنزلية التي كنا قد ابتعناها بنظام التقسيط لدى البنك المُجاور لمنزلنا القديم؟ ألا تذكرين تهديدات البنك اليومية بالإبلاغ عني لحبسي؟ حينها كنت مُتوترًا للغاية، وتمنيتُ ودعوت الله كثيرًا أن تهبط علينا ثروة مِن السماء؛ لإنقاذي مِن ذلك الموقف العصيب.

- نعم تذكرتُ الآن.. وحينها كادت الثروة أن تهبط عليكَ بالفعل (تبتسم).

- أجل.. ولكن عن طريق الحرام لا الحلال.

- ونجونا منها ولله الحمد، الحمد لله على كل شيء.

تنفَّس «مدحت» الصعداء، ثم أدار زر تشغيل الموسيقى، وبدأ بتشغيل المقطوعات الرومانسية الهادئة التي تعشقها «شهيرة»، ابتسمتْ حينها «شهيرة» في دلال، وأرختْ برأسها نحو الوراء على مسند مقعد السيَّارة، بينما أخذ ينظر أمامه، وهو يتذكر ما حدث في ذلك اليوم البعيد.

كان حينها في ضائقة مادية طاحنة، ثم ظهر له على إحدى صفحات الإنترنت إعلان عن شراء تذكرة يانصيب بقيمة ألف جنيه، وتؤهل صاحبها لدخول سحب على جائزة مقدارها مليون ونصف المليون مِن الجنيهات، لفتَ نظره حينها أن السحب على الجائزة سيكون بعد أسبوع، وأن عدد المُشتركين هو خمسة آلاف مُشترك فقط، أي أن احتمال الفوز يُعتبر احتمالًا مُرتفعًا، فاشترى تذكرة على الفور، وقام بسداد قيمتها عبر البطاقة الائتمانية.

كان حينها لا يزال في مكتبه بمقر عمله، وكان يشعر بأنه سيكون الفائز بتلك الجائزة، إن مبلغًا كبيرًا بمثل ذلك الحجم كفيلٌ بأن يُساعده على حل جميع مشاكله المادية في لحظة واحدة. قام بالاتصال بـ«شهيرة» على الفور، وهو في مُنتهى السعادة والأمل، حكى لها عن كل تفاصيل ذلك اليانصيب، وكان ينتظر أن يعرف ماذا سيكون إحساسها نحو احتمالية فوزه بالجائزة، فهو يثق في حدسها بشدة.

شعر حينها بابتسامتها الحانية عبر الهاتف، وقالت له:

- ليتكَ تفوز بتلك الجائزة بالفعل، ولكن ألا يُعَدُّ ذلك نوعًا مِن أنواع القمار يا حبيبي؟

قالتها وكأنها تحتضنه كطفل صغير بين ذراعيها، تمامًا وكأنها تُعلِّمه أخطاءه بدلًا مِن عقابه.

تفاجأ مِن نفسه أكثر مما تفاجأ مِن كلام «شهيرة»، إذ كيف فاته أن يُفكر للحظة قبل أن يُسرع بشراء تذكرة اليانصيب تلك؟ ألهذه الدرجة أغفل تمامًا عن التحقق مِن الحلال والحرام؛ بسبب الضغوط المادية التي ألقتْ على عينه وعقله غشاوة كبيرة؟

أغلق الهاتف مع «شهيرة»، وأخذ يبحث عن الفتاوى الدينية الخاصة باليانصيب، وجدها جميعًا تؤكد أن الاشتراك في اليانصيب حرام، فقام على الفور بمُراسلة الشركة المُنظمة لذلك اليانصيب، وطلب مِنهم إلغاء اشتراكه، وإعادة أمواله إليه. في واقع الأمر لم يكن يعنيه كثيرًا هل ستعود إليه أمواله أم لا، فقد كان مُستعدًّا نفسيًّا لفكرة رفضهم إعادة الأموال، وكان سيتقبَّل ذلك كعقاب له يستحقه بلا شك، لكن ماذا لو رفضوا إلغاء اشتراكه في ذلك السحب؟ وماذا لو ربح الجائزة حينها؟

ماذا سيفعل آنذاك بذلك المبلغ الكبير وهو مال حرام؟ كيف سيكون ردُّ فعله وهو بالفعل في ضيق مادي شديد؟ يا له مِن اختبار صعب!

- ماذا سنفعل يا «شهيرة» لو رفضوا إلغاء اشتراكي في سحب اليانصيب ثم فُزنا بالجائزة الحرام؟

- لن يرفضوا، سيقبلون إلغاء اشتراككَ، وستعود إليكَ أموالك.

لم يشأ أن يُثقل عليها بذلك الجدل؛ نظرًا لظروفها الصحيَّة الدقيقة بسبب حملها، وقال في نفسه لا داعي لأن يُرهق أعصابها بذلك الصراع الداخلي الذي يُفكر فيه، كان على يقين بأنه سيفوز بالجائزة، وأن الله عز وجل قد أعدَّ له هذا الاختبار العسير لكي يرى ماذا سيفعل حينها، هل سيقبل بالمال الحرام، ويقوم بحل مشاكله المادية العصيبة؟ أم إنه سيكون قابضًا على دينه، وواثقًا مِن أن الحرام لا بركة فيه، وأنه مِن الأفضل أن يتحمَّل تلك الابتلاءات وكله يقين بأن الفرج سيأتي لاحقًا عبر طريق آخر؟

مرَّتْ أيام قليلة ثم جاءه الرد بقبول إلغاء اشتراكه في ذلك اليانصيب، مع إعادة أمواله خلال أيام! حمدًا لله.

- كيف كنتِ مُتأكدة يا «شهيرة» مِن أنهم سيقبلون إلغاء اشتراكي وسيقومون بإعادة أموالي؟

- لم أكن مُتأكدة بالطبع، لكنني أردتُ أن أُطمئنك، وأردتُ أن أكون مُتفائلة!

هكذا هي «شهيرة»، إنها طبيبة قلبه وروحه وجسده، ولا يشعر أبدًا بأية مشاكل وهو بين يديها، وهي مَن تجعل حياته دائمًا جميلة وناعمة مثلها.

- لكنني ما زلتُ في حاجة إلى إيجاد حل لأزمتنا المادية يا «شهيرة».

- يوجد حل يا حبيبي، حاول أن تُنهي روايتكَ الجديدة، فتُفلِتَ حينها مِن الشرط الجزائي الخاص بدار النشر، وتحصل كذلك على مُقدم نقدي معقول على الفور، بخلاف ما ستجنيه مِن عوائد مبيعات الكتاب بعد النشر.

نظر «مدحت» نحو «شهيرة»، فوجدها شاردة الذهن، وهي تُتابع ببصرها تلك الأضواء المُنعكسة على صفحة نهر النيل، ربما لم تعد تتذكر كل تلك التفاصيل بعد مرور عشرة أعوام، لكنه يتذكر جيدًا أن تلك اللحظات شهدت ولادة روايته التي يعتبرها البداية الحقيقية لشُهرته الحالية، تلك الرواية التي أسماها «شهيرة» أيضًا، ولاقت نجاحًا ثقافيًّا مُدويًا حينها.

وما أن وصلا إلى المنزل، حتى دخل غرفة مكتبه أولًا، ثم تناول نُسخة مِن رواية «شهيرة» وفتحها مِن مُنتصفها، وبدأ يقرأ:

أنا أحبكِ بجنون يا «شهيرة»، ولا أدري كيف يُمكنني أن أشرح لكِ كيف يكون حجم ذلك - الجنون؟ تعالي نبحث معًا في كل اللغات عن كلمات الحُب التي قد تستطيع أن ترسم ملامح حُبي إليكِ، فما أصعب الكتابة حينما نُريد أن نصف شيئًا كبيرًا، لكنه لا تسعه الكلمات، وما أعجز اللغة حينما يكون الحُب أعظم مِن كل حروف الدُّنيا، وعندما تكونين أنتِ لي كل الدُّنيا! أجل، فأنتِ لي كل شيء، حتى عندما أكون بعيدًا عنكِ ولا أراكِ مُتجسدة في الواقع أمام عينيَّ، تكونين أنتِ كل ما أرى؛ لأنكِ تسكنين عيوني ذاتها، تسكنين كل ما بداخلي.

كيف أصفُ لكِ ذلك يا «شهيرة»؟ إنني فقط أتنهَّد.. فتعرفين كل شيء! فأنتِ الوحيدة في هذا الكون التي يُمكنها أن تقرأ كل ما بداخلي بمُجرَّد أن أتنهَّد! لا أدري كيف تستطيعين اختراقي بهذا الشكل؟ وكيف لكِ أن تشعري بأحاسيسي التي تختلج داخل قلبي وروحي مِن خلال زفرة يتيمة شاردة قد تفلت مني؟ لولا أنني ألمسكِ وأعرف أنكِ حقيقة لا خيال، لكنتُ ظننتُ أنكِ جنيَّة أو حورية مصنوعة مِن سراب!

هل تعلمين يا «شهيرة» أن للحُب نصيبًا مِن الخلود؟ سأُثبتُ لكِ ذلك: إننا نشعر بِلَوْعة انتظاره قبل أن يحدُث، ونشعر بروعة الاشتياق قبل اللقاء، وعندما نجد الحُب ونلقى الحبيب نستمتع حينها بحلاوة الوصال، ونتمنى ألا تنتهي أوقاته أبدًا، وأنا لا أشبع منكِ أبدًا يا «شهيرة»! ثم تبقى معنا بعد اللقاء حلاوة الذكريات، تلك التي ترسم على شفتيَّ ابتسامة كلما تذكرتكِ، وحتى القلب يبتسم هو أيضًا، وهكذا يبقى الحُب خَالِدًا على الدوام، قبله ومعه، وبعده، كسحر لا يفنى أبدًا. لن ينتهي كلامي عنكِ أبدًا، وأعلم أنني قد أطَلتُ كثيرًا عليكِ، لكنني وإن أمضيتُ عمري كله أكتبُ لكِ أو أكتبُ عنكِ، فلن أنتهي مِن ذلك على الإطلاق، لن يكفيكِ عمري كله يا «شهيرة». أُحبكِ.

حينها دخلتْ عليه «شهيرة» فجأة، وقالت:

- ألا تزال هنا في غُرفة المكتب؟ ماذا تفعل الآن؟ لقد تأخر الوقت.

فقال لها:

- لقد كنت أتحدث إليكِ.. ألم تسمعيني؟

فنظرتْ إليه مُندهشةً ومُتسائلة! فرفع بيده عاليًا مَمسكًا برواية «شهيرة» وهو يبتسم.. فضحكت «شهيرة» واقتربت مِنه، وربتتْ بيدها على شعره الفضي اللون.

(٣)

خَـبَـر

«ما أجمل أن تجد قلبًا يُحبُّكَ دون أن يُطالبكَ بأي شيء، سوى أن تكون بخير».

جبران خليل جبران(4)

هَروَلتْ «سيرين» نحو غرفة النوم تبحث عن هاتفها المحمول، ثم أخذتْ تبحث عن رقم هاتف «سعيد المُقدِّم» وقامت بالاتصال به على الفور، استمر صوت رنين الهاتف طويلًا إلى أن انقطع الاتصال، لم تسمع سوى الرسالة الآلية التي تقول: «هذا الرقم لا يُجيب على الاتصال الآن، مِن فضلك حاول الاتصال في وقت لاحق!»

لكن «سيرين» قامت بالضغط على زر الاتصال مرة أُخرى؛ فهي تعلم أن الوقت ما زال مُبكرًا، وربما كان «سعيد» لا يزال نائمًا الآن، استمر رنين الهاتف طويلًا، لكن «سعيد» قام بالرد على الاتصال في هذه المرة، وكما توقعت «سيرين» تمامًا فقد بدا على صوته أنه كان يغط في نوم عميق بالفعل.

- أستاذ سعيد، أعتذر عن إزعاجي لكَ في هذا الوقت المُبكر للغاية، لكنه أمر مهم..

- مَن أنتِ؟

- أنا «سيرين» يا أُستاذ «سعيد»، إنه أنا..

- اعذريني يا عزيزتي، لم أتبيَّن الاسم المكتوب على شاشة الهاتف، فقد كنتُ نائمًا ولم أرتدِ نظارتي بعدُ...

- أعلم ذلك، وأُكرر اعتذاري لكَ.

- ما الأمر؟

- إنني أتصل بكَ بناء على طلب الأُستاذ «مدحت الشاعر»، فقد طلب مني أن ألجأ إليكَ على وجه التحديد.

- مدحت»؟ ماذا حدث له؟»

- لقد اقتادته الشُّرطة منذ لحظات، وهو يطلب مِنكَ أن تقوم بالاتصال بالمُحامي الخاص به، إنه يريد أن يتبعه أحد المُحامين إلى هنا على الفور.

- ما هذا الذي تقولينه؟ لماذا اصطحبته الشّرطة في هذا التوقيت الباكر؟ وكيف عرفتِ أنتِ بذلك؟

- إنهم يدَّعون أن زوجته قد تم اختطافها، ويبدو أنهم يتهمونه بأنه السبب وراء ذلك.. ما هذا الهراء؟ كيف يُمكن أن تختفي زوجته دون أن يشعر بذلك الاختطاف بينما هما في نفس الغُرفة بل وفي نفس الفراش؟

- إنه ليس في القاهرة يا أُستاذ «سعيد»، نحن هنا في العين السُّخنة، ربما تعرف (قالت بتلعثم) القرية السياحية التي....

- ماذا؟ أتعنين أن «مدحت» ليس في منزله، وأنه معكِ أنتِ في شاليه العين السُّخنة؟ (قاطعها)

- لا تُسئ الظن بنا أرجوك، ليس الأمر كما تُلمح إليه، أنا فقط أُقيم في شاليه مُجاور للشاليه الذي يملكه الأستاذ «مدحت»، لقد كنا نستكمل عملنا الذي بدأناه منذ أسابيع، ولكن في أجواء مُختلفة تدعو للاسترخاء بعيدًا عن ضغوط القاهرة.

- وهل كانت تعرف «شهيرة» عن كل ذلك؟

- (صمت) .....

- حسنًا يا «سيرين»، سنناقش ذلك الأمر لاحقًا، أغلقي الهاتف الآن لكي أقوم بالاتصال بالمُحامي.

- هل ستتمكَّن حقًا مِن أن تجد المُحامي بسُرعة يا أُستاذ «سعيد»؟

- أنا والمحامي صديقان قديمان لـ«مدحت»، لا تقلقي، فأنا أعرف كيف يُمكنني أن أتواصل مع المُحامي بطرق عديدة.

- لا عجب إذًا أن الأُستاذ «مدحت» قد طلب مني أن أتصل بكَ أنتَ على وجه التحديد دون الجميع.

- نعم، إنها صداقة العُمر لا المصالح، أغلقي الهاتف الآن، وسأقوم أنا بالتصرف المُناسب.

(٤)

زُهـــد

«واعلَم أن كُل نَفسٍ ذائِقةُ الموت، ولكن ليستْ كُل نَفسٍ ذائِقةُ الحَياة!».

جلال الدين الرومي(5)

كان «مدحت» يجول ذهابًا وإيابًا داخل غُرفة مكتبه الفسيحة؛ في محاولة مِنه لتخفيف حدة التوتر المُتزايدة لديه، والذي أصبح يشعُر به كثيرًا مُؤخرًا. استدار حول طاولة المكتب وسحب المقعد بيده وجلس على طرفه، بينما امتدتْ يده الأُخرى نحو ذلك الإطار الذهبي الكبير الذي يُحيط بصورته التي التقطوها له بصُحبة وزير الثقافة عند حضوره حفل توقيع روايته الأخيرة. نظر إلى التاريخ المدوَّن على طرف الصورة، يا للهول، لقد مرَّ على ذلك التاريخ ستة أشهُر كاملة! وذلك يعني أنه لم يكتب شيئًا جديدًا منذ أن قام بتنقيح وتسليم روايته الأخيرة تلك إلى دار النشر، وهو ما سَبَق تاريخ إصدار الرواية المُعلَن عنه بأربعة أشهُر كاملة، أي أنه لم يكتب شيئًا فعليًا منذ ما يقرُب مِن عام كامل أو أقل قليلًا!

اقترب أكثر مِن طاولة مكتبه، واستخرج مِن الدُّرج الأيمن العُلوي مُفكرة مُهترئة زرقاء اللون، يبدو عليها أنها كانت هدية قديمةً جدًّا مِن إحدى الشركات أو الهيئات الحكومية، كان مكتوب على غلافها: «مفكرة العام الجديد الحديثة للعام ٢٠٠٠ ميلادية»! بينما كانت أولى الصفحات الداخلية «البيضاء قد كُتِبَ عليها بخط باهت أسود اللون: «مُذكرات شخصية جدًا.. مدحت الشاعر».

أخذ يقوم بتقليب آخر صفحات تلك المُفكرة إلى أن وجد صفحة مُعنونة بتاريخ حديث يعود إلى أربعة شهور مَضت فقط، وقرأ فيها:

- آخر رواية

عنوان الرواية المبدئي: لماذا كانت الحكاية

المُقدمة

في واقع الأمر لم تكن هناك أيَّة حكاية على الإطلاق، ولكن مِثلما يحدُث دائمًا في كل الحكايات عبر التاريخ، يطرأ في البداية أمرٌ ما ولا يُمكن إيقافه أو إيقاف توابعه المُتتالية، وحينها فقط تنشأ الحكاية.

يتمنى الإنسان كثيرًا لو أنه يستطيع وَأْدَ تلك التوابع في مَهدها؛ لكيلا تكون هناك حكاية، إلا في حالة واحدة، أن تكون حكاية حب، تلك الحكاية الساحرة التي نُريدها أن تكون مُستمرة على الدوام،

وألا يُسدل عليها الستار أبدًا.

ثم قلب الصفحة التالية بعدها مُباشرة، والتي كانت مُعنونة بتاريخ يعود إلى ثلاثة أشهر مَضت، وقرأ فيها أيضًا:

آخر رواية -

عنوان الرواية المبدئي: إليها أخطُّ أوراقي

المُقدمة

أتعجَّبُ مِن نفسي الآن عندما أكتُب جُملة «أخطُّ أوراقي» هذه، أنا لا أخطُّ أيَّة أوراق بالمعنى الحرفي، ولا أُمسك بأي قلم بالفعل لكي أكتُب! كان ذلك يحدُث منذ رُبع قرن، أما الآن فأنا أكتُب مُستخدمًا جهاز الحاسب الآلي أو الهاتف المحمول! لا بُد أن أُفكر في استحداث تعبير جديد يُعبر عن الكتابة بدلًا مِن الحديث عن الأقلام والأوراق! كانت الكتابة في العهد الفرعوني تتم عن طريق النَحت بواسطة أداة حديدية على سطح الأحجار والصخور، ماذا كانوا ينعتون ذلك حينها؟ يخطُّون الأحجار؟ لا أدري.

أخذ يقوم بتقليب هاتين الصفحتين، ويتنقَّل ببصره بينهما، لم يكن مكتوب فيهما حرف واحد أكثر مما قرأه، وكانت بقيَّة الصفحات التالية بيضاء وخالية تمامًا مِن الكلمات. أصابه بعض الامتعاض، ثم أخذ يُعيد تقليب صفحات المُفكرة بالاتجاه العكسي نحو الماضي، إلى أن وصل إلى صفحة قديمة يعود تاريخها إلى أكثر مِن عشر سنوات، فقطَّب جبينه مِن الدهشة، وقرأ فيها أيضًا:

أكاد أدَّعي أنني كنتُ في الماضي القريب أحيا حياة مُستقرة نوعًا ما، وكانت التغيرات التي تحدُث - في حياتي محدودة ومتوسطة الحجم والتأثير، أُكرر لقد كان ذلك في الماضي القريب، ربما ظلَّت الحياة على تلك الوتيرة الهادئة إلى أن تحولتْ أيامي إلى ما يُشبه العواصف والزلازل دون مُبالغة! لا أتذكر تاريخًا مُحددًا حينما بدأ حدوث ذلك التغيير الصارخ، ربما كان مُنذ خمسة أو ستة أعوام، لكنني لا أكاد أن أشفى مِن توابع إحدى تلك الأمواج العاتية إلا وتعصف بي أُخرى بعدها مُباشرة، وما بين الكارثة والتي تليها لا أَجِد مُتنفسًا لكي أفهم ماذا حدث، ولماذا حدث، وهل هناك سبيل لاتِّقاء تكرار التعرض لزلزال جديد أم لا. صرتُ في تلك الحالة على الدوام، فإما أن أكون وسط عاصفة، وإما أن أكون قد سحقتني عاصفة للتو، وأُحاول أن أستجمع شتات نفسي بعدها، أو أنني أترقَّب حدوث عاصفة جديدة قد تفتك بي، لكنني لا أعرف مِن أي اتجاه قد تأتيني! قرأتُ يومًا تحليلًا عن توقعات الأبراج والفلك يقول إن العالَم بأسره يقع تحت تأثيرات سلبية للغاية مُنذ سبعة أعوام! هل أنا ضحيَّة لما يحدث في العالم دون أن يكون لي ذنب؟ وهل نأمل قريبًا أن تتغيَّر خريطة الأبراج والأفلاك لتهدأ الدنيا من جديد؟ في واقع الأمر أنا لا أدري هل يعنيني استقرار الدنيا كلها أم استقراري أنا فقط، أم كلانا معًا، ولكن على أقل تقدير، فلتذهب الدُنيا إلى الجحيم، فقد صرتُ أرنو لعودة الاستقرار بالنسبة لي أنا وحدي كأضعف الإيمان!

ما هذا الذي يحدُث لي مُنذ ستة أعوام؟ أتحدَّث مع نفسي بالطبع مُوجهًا لها ذلك السؤال المتكرر، وكلانا -أنا ونفسي- نتذكر جيدًا تفاصيل كل ما حدث، لكننا لا نعرف لماذا حدث! لقد اضطررتُ إلى ترك عملي ثلاث مرات خلال تلك السنوات الست، وفي كل مرة كانت تتدهور أحوال السوق أكثر عما قبل، وفي كل مرة كنتُ أُعاني لكي أَجِد لنفسي وظيفة جديدة، وعندما أَجِد الوظيفة أجدني مضطرًا لكي أقبل راتبًا شهريًّا يقل عما سبق بمقدار الرُّبع تقريبًا، أي أنني أصبحتُ أتقاضى اليوم نصف ما كنت أجنيه مُنذ ستة أعوام تقريبًا! يحدث ذلك بينما تزداد نفقاتي والتزاماتي ولا تقلُّ، فقد كبرتُ في العُمر وصار لديَّ زوجة وفي أحشائها يوجد طفل قادم في الطريق، فازدادت نفقات المعيشة والعلاج، وستزداد نفقات التعليم أيضًا بعد ذلك. كما أنني مُقيَّد بالعديد مِن الالتزامات المُتنوعة طويلة المدى، والتي أشعر بها، وكأنها مجموعة مِن الأطواق الحديدية التي تخنق عنقي، فهذا هو عَقد المسكن الجديد، والذي يُلزمني بسداد أقساط شهرية لمُدة خمس سنوات، وذاك هو عقد السيارة الجديدة، وهذه هي عقود الأجهزة المنزلية، وكلاهما بأقساط تمتد لثلاث سنوات قادمة.

أغلق حينها «مدحت» المُفكرة بعُنف، وقال بصوت عال ومسموع:

- هل مِن المُمكن أن يعود سوء الحظ لزيارتي مُجددًا بعد كل تلك الأعوام الطوال؟ أيُعقل أن تدور عليَّ الدائرة مِن جديد بعد أن وقف القَدَر بجانبي إلى أن وصلتُ إلى ما أنا عليه؟ ماذا دهاكَ يا «مدحت»؟ لماذا توقفتَ عن العمل، وتكاد أن تفقد عرشكَ الذي شيَّدته عبر عقد كامل شيئًا فشيئًا؟

- «ماذا بكَ يا مدحت؟ أُتحدِّثُ نفسكَ؟ قالت له «شهيرة».

- ماذا؟ منذ متى وأنتِ هنا يا «شهيرة»؟

- لقد دخلتُ إلى هنا للتوِّ.. لقد كنتُ أمرُّ بجوار حُجرة مكتبكَ بالصُّدفة، لكن صوتكَ المُرتفع هو الذي دفعني للدخول إلى هنا، فقد كنتَ تبدو وكأنكَ تتشاجر مع أحدهم!

- لم أكن أتشاجر مع أحد يا «شهيرة»، كنتُ فقط أتحدث مع نفسي بصوت مُرتفع ليس أكثر.

فسحبت «شهيرة» مقعدًا، وجلستْ في هدوء، ثم قالت:

- حسنًا، أرني إذًا ما كتبته اليوم مِن أفكار جديدة، لقد مضى أكثر مِن خمس ساعات منذ أن حبستَ نفسكَ في حُجرة مكتبكَ اليوم.

فأجابها «مدحت» بعصبيَّة:

- لا توجد أيَّة أفكار جديدة يا «شهيرة»، وأرجوكِ أن تتوقفي عن الضغط عليَّ هكذا في كل يوم.

فقالت «شهيرة» باندهاش:

- أتعتبر تشجيعي لكَ وخوفي عليكَ نوعًا مِن أنواع الضغوط التي أمارسها عليكَ؟!

فقال «مدحت»:

- لقد سئمت مِن سماع نفس عباراتكِ اليومية التي صرت أحفظها عن ظهر قلب.

لكنكَ لا بُد أن تكتبَ روايةً جديدة.

لقد تأخرتَ كثيرًا وسينساكَ الجميع إن استمرَّ غيابكَ أكثر مِن ذلك، وسيندثر اسم «مدحت الشاعر» شيئًا فشيئًا.

حاول أن تكتُب فيما يكون سهلًا بالنسبة لكَ، أكتب مثلًا عن تجربتكَ الحياتية الحالية، ربنا يكون السرد حينها أكثر مرونة.

متى ستقوم بكتابة رواية جديدة؟

دعكَ مِن الروايات، وابدأ في كتابة كتاب علمي أو ثقافي أو اقتصادي أو سياسي، أو تحدث عن التنمية البشرية.

تجنَّب السياسة وتحدَّث عن الاقتصاد، أنت رائع في تحليلاتك الاقتصادية.

لابد أن تكتُبَ رواية جديدة.

أليس ذلك هو ما تقومين بترديدُه يوميًا على مَسامعي؟ لم أُعد أحتمل كل ذلك يا «شهيرة»! إنكِ تملئين أُذني بجميع تلك الحوارات في كل يوم، صارت وكأنها أشباح تُطل على مسامعي بين الحين والآخر، وأعلم جيدًا أن ما تقولينه صحيح، لكن ما الحيلة وأنا في الأساس لا أكتب لمُجرد الكتابة؟ إنني أهوى الكتابة مثلما أعشق القراءة، فكلاهما بالنسبة لي يأخذاني إلى عوالم أخرى، أتعلَّم منها حينًا، وأستمتع بها حينًا، وأتعالج نفسيًّا في معظم الأحيان.

لمعت دمعة صغيرة في عين «شهيرة»، لكنها لم تنطق بكلمة واحدة، فاستكمل «مدحت» هجومه عليها قائلًا:

- أنا أكتُب حينما أشعر بأنني بحاجة إلى الكتابة، وأكتُب عندما يكون هناك ما يستحق الكتابة، أو بمعنى أدق، أنا أكتُب عندما أشعر بأن هناك شيئًا لا بُد للناس أن تعرفه، أو أن تتعلمه، حتى وإن كانت مُجرد فكرة خطرت ببالي، ولن تكون ذات قيمة للجميع، لكن بالتأكيد سيكون هناك مَن سيجدها تلائم ظروفه وحياته تمامًا، فيستفيد منها. كما أنني لا أدَّعي كوني «صنايعي» في الكتابة، فأنا لا يُمكنني أبدًا أن أكتُب كل يوم مثلما يذهب الموَّظف إلى عمله الرتيب المُتكرر كل يوم، ولا

أستطيع أن أختلقَ الأفكار أو أن أسترسلَ في السرد في أي وقت، لا بد أن أشعُر أولًا قبل أن أكتُب، وقبل أن أخطَّ أوراقي.

ثم أشاح بوجهه بعيدًا عن «شهيرة»، ونظر إلى جواره نحو جهة اليمين، وقال بصوت خافت وكأنه يُحادث شخصًا آخر:

- هل سيعود سوء الحظ لزيارتي؟ هل سيعود سوء الحظ لزيارتي؟

- قالت «شهيرة» **!؟**«مدحت».. هل تكلم نفسكَ يا «مدحت».

فأعاد «مدحت» بصره نحو «شهيرة» وقال لها:

- إنني في كل يوم أسأل نفسي: أكتُب عن ماذا؟ وما هو الجديد الذي يُمكنني أن أكتُب عنه؟ لا يوجد أمر جديد يا «شهيرة»، لا يخدعكِ أنني أتحرَّك وأعمل وأسافر وأجتهد، كل تلك الظواهر الحركية قد تعني للجميع أنني على قيد الحياة، ولكن ما الفائدة مِن كل ذلك بينما الروح في عالم آخر؟

- ما هذا الكلام الغريب يا «مدحت»؟ ماذا بكَ؟ وماذا دهاك؟ أخبرني.. فأنا زوجتكَ وحبيبتكَ.

تجاهل «مدحت» سؤالها، واستكمل حديثه وقال وكأنه يخاطب الفراغ:

- مهلًا، الجُملة السابقة لا تعني أنني حزين أو مُتشائم، فهناك خيط رفيع للغاية يفصل بين التشاؤم والحقيقة، بين الاكتئاب والواقع، بين وفاة الجسد وموات الروح**!** لذا لزم التوضيح.

- لقد أصبحتَ غريب الأطوار يا «مدحت»، لا أدري ما الذي أصابكَ؟ ولماذا لا تُريد البوح لي بما تُعاني مِنه؟ إن لم تُفصح لي أنا عمَّا بداخلكَ.. فمَن غيري ستأتمنه على أسرارك ودواخلكَ ومتاعبكَ؟

- إنني مُجهد للغاية يا «شهيرة»، لا أدري ما الذي يحدُث لي، لقد صرتُ عاجزًا عن الكتابة، مشلول التفكير.

- وأنا أقول لكَ إن الوصول إلى القمة أمر سهل، لكن الحفاظ عليها أمر صعب، لا بُد أن تُحاول مُجددًا وبشدة.

- وهل تظنين أنني لا أُحاول؟ إنني أحاول وأحاول منذ شهور.

- وأنا أرى أنكَ مُتراخٍ ولا تضغط على نفسكَ بالقدر الكافي.

- ما هذا الذي تقولينه يا «شهيرة»؟

قد أتفهَّم حالتكَ هذه حينما كنتّ مُتشبعًا مِن فرط المجهود الذي بذلته لإنهاء الرواية السابقة، لكن - ذلك كان أمرًا مِن الماضي، كان ذلك منذ عشرة شُهور تقريبًا، ألم تكفِكَ كل تلك الفترة الطويلة لكي ترتاح وتستجمّ؟

- «شهيرة»...

- أنتَ لا تعمل في مهنة عضليِّة شاقة، أنت فقط تحتاج إلى الإبداع والتفكير والهدوء، ولا بُد أن تصرف عن نفسك هذا التراخي البغيض، ولا بُد أن تضغط على نفسكَ لكي تبدأ، فقط ابدأ وسوف تدور العجلة بعد ذلك تلقائيًّا، وسيزول عنكَ الصدأ على الفور.

- أنا لا أسمح لكِ يا «شهيرة» أن تتحدثي معي بتلكَ الطريقة.

- وأنا لن أسمح لكَ بأن تهدم كل ما وصلتَ إليه بهذه البساطة والسذاجة.

- هل تعقلين ما تقولينه الآن؟ هل يوجد شخص عاقل يُقدم على هدم ما بناه؟

- بالطبع لا، لكن التراخي والدعة قد يُسرعان مِن عملية الهدم هذه.

- لقد أصبح الحوار معكِ مُرهقًا جدًّا يا «شهيرة»، لقد أصبحتِ لا تشعرين بما أنا فيه.

قال لها ذلك وهو في قمة عصبيته، وخرج مِن غُرفة المكتب وهو يُهددها بأن يترك المنزل لعدة أيام؛ لكي يرتاح مِن تلك الضغوط التي زادتها «شهيرة» عليه مِن حدتها عليه كما يدِّعي. أما «شهيرة» فقد جلستْ تبكي في هدوء، ولم تتمكن مِن أن تنهض وتلحق به، فقد كانت تتمنى أن يستجيب «مدحت» لضغوطها المنطقية، وأن يتنبَّه إلى أنه قد يفقد مكانته الأدبية سريعًا إن استمر اختفاؤه عن الساحة أكثر مِن ذلك.

وبعد لحظات ليستْ بالطويلة، سمِعَتْ «شهيرة» صوت الباب الرئيسي وهو يُصفَع بشدة، إذًا لا بُد وأن «مدحت» قد قام بتنفيذ تهديده لها، ويبدو أنه قد خرج مِن المنزل بالفعل!

نهضتْ «شهيرة» مِن مكانها بتثاقُل شديد، فلاحظت أن درج المكتب قد نسيه «مدحت» مفتوحًا، فمدتْ يدها نحوه؛ لتقوم بإغلاقه، لكنها لمحتْ مظروفًا كبيرًا مكتوب عليه: هذا المُغَلَّفْ لا يُفتَحْ إلا «عند وفاتي، ويُسّلَّمْ فقط إلى زوجتي «شهيرة!

انقبض قلب «شهيرة» فجأة، ولم تستطع أن تُقاوم نفسها، وفتحتْ المظروف بالفعل!

- لا أدري يا «شهيرة» أين سأكون حينما تقرأين هذه الكلمات الآن، فإن كنتِ قد وجدتِ هذا الخطاب بالصُدفة بينما أنا ما زلتُ حيًّا، فلا تقلقي على الإطلاق، فأنا لا أنوي الانتحار، ولا أشعُر بدنوِّ الأجل، وإن كنتِ تقرئينه بعد وفاتي، فتأكدي مِن أني أتألم لفراقكِ حتى بعد مماتي! أعلم أننا

نظن أن الأموات لا يشعرون بشيء، ولكن ما الذي يجعلنا نعتقد في صحة ذلك؟ لم نلتقِ أبدًا أيَّ شخص قد ماتَ وعاد ليحكي لنا ماذا يكون هناك بعد الموت! لكنني هناك معهم الآن، ولا بُد أنني قد صرتُ أعرف كيف يكون الحال بعد الموت. سبقَ لي أنني أثناء حياتي قد شاهدتُ الموت وعايشته بالفعل، لم يكن ذلك للحظات قليلة أو أثناء التَعرُّض لحادِث ما، لكنها كانت سنوات طويلة مِن الموات، إنها تلك السنوات التي مرَّت عليَّ وحيدًا قبل أن ألقاكِ. ربما تتساءلين لماذا أكتُب لكِ خطابي هذا الآن؟ إنني أُحبكِ بجنون يا «شهيرة»، ويزداد قلقي عليكِ كلما راودتني فكرة رحيلي عن الدُّنيا، ولا أُريد أن تحدُثَ لكِ أيَّة مُعاناة مِن أي نوع وفي أي اتجاه، فأنا أُريد أن أكون مُطمئنًا بأنكِ ستكونين بخير بعد مماتي. كنتُ أكتُب مُنذ قليل قصة قصيرة هي التي أوحَتْ لي بكل ذلك، وربما كانت تلك القصة انعكاسًا لقلقي عليكِ دون أن أشعُر، ولذلك فأنا أُريد أن أسردَ لكِ تفاصيل كل ما نمتلكه، وستجدين بالخلف في ظهر هذه الورقة بيانًا عن الأموال وحسابات البنوك، وكذلك الأصول التي يجب أن تقومي ببيعها؛ لكي تتمكني مِن الإنفاق على نفسكِ وعلى الأبناء، وأدعو الله أن تَظلَّ حياتكِ وحياتهم كريمة على الدوام. كنتُ أكتبُ خطابي هذا ظنًّا مِنِّي أنه سيحتوي فقط على بيان بالأموال والالتزامات والمنقولات التي يجب عليكِ أن تعرفيها كلها، لكنني اكتشفتُ فيما بعد أنني أُريد أن أستودعكِ أشياء أكثر مِن ذلك بكثير، إنها الأحاسيس والأفكار والمشاعر التي لا يوجد بيان يحصرها، ولا يسعها صدر واحد ليحتويها، ولا يُمكن أن نلمسها بأيدينا.

ما الذي يجب أن تعرفيه أيضًا يا «شهيرة»؟

وماذا أقول لك يا «شهيرة»؟

لقد تمتْ سرقتنا، أجل لقد سُرِقَ مَنَّا العُمر! وأصبحنا نعيش في الذكريات أكثر مما نعيش واقعنا، ربما نهرب منه؟ أم إنه الذي يهرب مِنَّا؟ ويفرُّ سارقًا معه أيامنا؟

لقد عرفتُ أننا كبرنا حينما وجدتُ ذكرياتنا قد تضخمتْ بهذا الحجم، وتوشك أن تلتهمنا بين كوابيسنا المسائية والصباحية على حد سواء، هلَّا سألتِ نفسكِ يومًا لماذا أصبحنا لا ننام؟ هل تبدَّد لديكِ ذاك الشعور بالوحدة والوحشة رغم كل ذلك الزحام؟

ماذا أقول لكِ يا «شهيرة»؟

لم تعُد تُفرحنا ملابس العيد ولا طقوس الطعام التي ترتبط بها، ولا صرنا حتى ننتظرها!

صارتْ الأعياد أوقاتًا حزينة نجترُّ فيها ذكريات الماضي رغمًا عنا، هل ربما بسبب الفراغ والهدوء الذي تسببه تلك العُطلات في نفوسنا؟ تلك الأيام التي تتوقَّف فيها عجلة الحياة قليلًا؛ أملًا في أن نرتاح مِن طاحونة الحياة، فإذا بِنَا تعتصرنا طاحونة الذكريات؟

آه يا «شهيرة»، لو أن كل ما في الكون مِن حولي يختفي فجأة، ولا يتبقى سوانا أنا وأنتِ.. تكون حينها كل أيامنا أعيادًا.

والآن قبل الرحيل، هل نسيتُ أن أقول لكِ شيئًا يا «شهيرة»؟ وهل قَلتُ لكِ كل كلام الحُب الذي تستحقينه؟ وهل نقُلتُ لكِ كل أحاسيس العشق التي لديَّ؟ بالطبع لا!

آه يا «شهيرة».. لقد قُلتُ لكِ مرارًا إنني سأرحل عن الدنيا قبلكِ، وكنتِ حينها تسخرين مني، كنتِ تقولين إنكِ لن تتحملي مرارة الفراق بحجة أنني الأقوى، وكنتُ أتظاهر بتصديقكِ، لكنني دعوتُ الله أن أرحلَ قبلكِ، أجل، فقد أخفيتُ عنكِ أنني أضعف مِنكِ بشدَّة!

أُحبكَ.

إمضاء

«مِدحَت الشاعر»

(٥)

عــود

في يوم ما قام أحد المرضى بزيارة أحد الأطباء النفسيين ليشكو له مِن الاكتئاب، وأن ظروف» الحياة القاسية تمنعه من الفرحة بأي شيء، فقال له الطبيب: كيف تشكو من ذلك ويوجد في بلدتنا يوميًّا عرض مُضحك يقدمه المهرج الشهير «بالياتشي»(6)، والذي يقوم بإضحاك المُتفرجين «!لساعات طويلة؟ فقال المريض: سيدي الطبيب، أنا بالياتشي نفسه.

لم يكن «مدحت» يعرف شيئًا عن حياة المَلاهي الليلية على الإطلاق، فيما عدا تلك الصورة الذهنية التقليدية التي صَدَّرتها لنا الأفلام السينمائية القديمة، حيثُ تجد أن بطل الفيلم يتردَّد على تلك الأماكن لكي يحاول أن ينسى -أو أن يتناسى- إحدى المصائِب الكبيرة التي حلَّت به، ربما كان يُعاني مِن هجران حبيبته، أو وفاة شخص عزيز عليه، أو تعرضه لخسارة مالية فادحة. حينها يظنُّ المرء أن تغييب العقل عن طريق تناول الخمور ولقاء السيدات الساقطات من حوله قد يُساعدانه في نسيان همومه وأحزانه، ولكن في حقيقة الأمر، يكون تأثير كل ذلك مؤقتًا للغاية، إذ سُرعان ما تزول كل تلك المؤثرات الزائِفة، وتبقى الهموم كما هي دون تغيير، وتظل المشاكل دون حل. ربما كان أقرب توصيف لتلك الحالة هو أنك حينما تجد في منزلك مثلًا صنبورًا للماء قد أصابه العطب وأخذ الماء يتسرَّب منه، فبدلًا مِن أن تستدعي عامل السباكة، فإنك تذهب وتُحضِر نجارًا، أي أنك **!تلجأ لحلول لا علاقة لها بأصل المُشكلة على الإطلاق**

و»مدحت» يعلم كل ذلك، لكنه في تلك الليلة كان في حالة نفسيَّة سيِّئة للغاية، وهو ما دفعه لأن يقوم بتجربة الذهاب إلى ذلك المَلْهَى الليلي التابع لأحد الفنادق القديمة، لكنه لم يَكُن يُخطِّط لفعل شيء مُحدَّد، فقط كان يريد تجربة ذلك الأمر، وكان ينشُد التنفيس عمَّا بصدره مِن ضيق شديد.

كان اختيار «مدحت» لأن تكون وجهته نحو ذلك المَلهى المُتواضع؛ لكي يضمَن أن يكون رواد المَلْهَى الليلي في مُستوى اجتماعي بعيد كل البُعد عن الوَسط الراقي الذي ينتمي إليه، بحيث إنه **!يتجنَّب أن يتعرَّف عليه أحد**

أخذ «مدحت» يتحسَّس خطواته بحرص عند دخوله إلى داخل ذلك المَلْهَى، وكانت هناك صورة كبيرة بالحجم الطبيعي لإحدى الراقصات بجوار المدخل الرئيسي، كما لمحَ بطرف عينه ذلك البار الذي يقف خلفه شخص ما يقوم بتقديم المشروبات، ولكن ملامحه الغريبة لا تدعو إلى الارتياح على الإطلاق، حينها أصابه التردُّد للحظات، فتلقفه أحد النُدُل، وقام بالترحيب به نحو الداخل، وأجلسه إلى طاولة جانبية، ثم ناوله قائمة الطعام والمشروبات المُتَسِخَة، وتركه ريثما يختار منها.

جالَ «مدحت» ببصره في أرجاء المكان؛ ليتفقد أحواله، لكنه لم يجد فيما حوله ما يُطابق تلك الصورة التي اعتاد أن يراها في الأفلام القديمة، كانت هناك موسيقى هادئة تتردَّد في أرجاء

المكان، وكان رواد المَلْهَى برغم كثرة عددهم لا يصدر منهم ذاك الضجيج الذي كان يتخيَّل حدوثه! أخذ يتفحَّص الجالسين إلى تلك الطاولات المُتناثرة، فوجد بعضهم يتناولون الطعام، وبعضهم يقومون بتدخين الأرجيلة، وبعضهم يتناولون المشروبات ويتبادلون الضحكات، لكن دون أن يتصايحوا أو يخرجوا عن شعورهم، وهو ما جعله يشعر ببعض الاطمئنان.

عاد «مدحت» ببصره نحو طاولته، وأخذ يتصفَّح قائمة الطعام، فوجد أن اسم المكان المطبوع على غلافها هو مطعم شرقي، وليس مَلْهَى ليلي بالمعني المعروف كما كان يظن، إنه مطعم عادي يتميَّز عن باقي المطاعم بأنه يُغلِق أبوابه في وقت مُتأخر للغاية بعد مُنتصف الليل، وأنه يقوم بتقديم بعض الفقرات الغِنائية والموسيقية، والتي يؤديها بعض المطربين المغمورين، بصُحبة مجموعة مِن العازفين لآلات التَخْت الشرقي(7)، بالإضافة إلى فقرة استعراضيَّة تؤديها تلك الراقصة التي شاهد صورتها الكبيرة في مَدخل المكان، والتي يبدو مِن ملامحها أنها أجنبية، ربما كانت مِن إحدى دول شرق أوروبا أو مِن دول الاتحاد السو□يتي السابق(8).

إذًا فهذا المكان يكاد يُشبِه تلك الأماكن التي يرتادها عادةً سواء في إطار لقاءات العمل، أو حتى في المُناسبات الخاصة بالأسرة أو تَجمُّعات الأصدقاء! حينها ابتسمَ «مدحت» بشِدَّة، فحتى حينما أراد أن ينحرفَ بعض الشيء، إذ به يُخطئ في اختيارِ وجهته! ولكن لا بأس، فربما استطاعتْ تلك الفقرات الغِنائية وتلك الراقصة أن تُرفِه عن نفسه، وأن تُخرِج مِن صدره ذلك الضيق.

لكنه مع مرور الوقت بدأ ينتابه بعض المَلَل، فبرغم أن مذاق الطعام كان جيدًا، لكنه لم يأتِ إلى هذا المكان مِن أجل الطعام، كما أن سماع تلك المقطوعات الموسيقية المُسَجَّلة كانت تدعو للرتابة، على الرغم مِن أنها مقطوعات هادئة يُفتَرض أنها تُساعد على الاسترخاء وهدوء الأعصاب، بخلاف أن تلك الفقرات الغنائية والاستعراضية المزعومة لم تبدأ بعد.

حينها أخذ يُفكِّر، هل ينهض ويترك المكان، أم ينتظر ساعة أُخرى لعلَّه يجد ما يُسَلِّيه؟ لكنه آنذاك تذكَّر شيئًا مهمًا عن عاداته وطِباعه الشخصيَّة، فقد كان «مدحت» لا يستطيع أن يرتاد أيَّ مطعم أو أيَّ مكان عام بمُفرده أبدًا، كان يشعر دائمًا بالإحراج، وكان ينتابه إحساس عجيب بأن الجميع ينظرون نحوه، ويتابعون حركاته وسكناته، فقد كانت الوحدة هاجسًا يخشاه، ويهرب منه، لذلك كان مِن عاداته أنه عندما يكون مُسافرًا بمُفرده في رحلة عمل، فإنه يقوم بطلب الطعام إلى غُرفته بالفندق الذي يسكنه، وإذا تصادف أن تركته زوجته وأولاده وحيدًا بمنزله أو بأحد المصايف، فإنه يقوم بطلب الطعام مِن مطاعم الوجبات السريعة عبر خدمة التوصيل، المهم ألَّا يذهب ليتناول الطعام بمُفرده خارج مكان إقامته أبدًا.

حينها عاودته مرارة خلافه مع زوجته، تذكَّرها وتذكَّر آلامه، وخصوصًا أنه لم يعتَد الوحدة قبل ذلك أبدًا، ويبدو أنه سيُعاني منها كثيرًا في الأيَّام القادمة.

والوحدة هي حياة اللاشيء، إنها الضيق مهما اتسَّع بِنَا المكان، وهي الخواء مهما ازدحم حولنا الجوار، وتكون الموت مهما طالتْ بِنَا الحياة! هكذا حدَّثَ مدحت نفسه، وشَرَدَ بذهنه، وانفصَل عن

!كل ما حوله، وبدا أنه يُرِيد أن يبكي

مرَّتْ عشر دقائق أو أكثر إلى أن أخرجه مِن شروده ذاك الصوت المُرتفع لذلك المُذيع الذي ظهر فجأة، وصاح في مُكَبِّر الصوت مُعلنًا عن بدء الفقرات الغنائية! ضجَّت القاعة بالتصفيق، بينما نظر «مدحت» إلى ساعة يده، فوجد أنها الساعة الثانية وعشرة والنصف بعد مُنتصف الليل، يا لها مِن !بداية مُتأخرة للغاية

بدأتْ الفرقة الموسيقية بعزف مقطوعات شهيرة لتلك الأغاني القديمة البديعة لأم كلثوم ومحمد عبد الوهاب، ولكنها كانت وكأنك تسمعها لأوَّل مرة بطريقة جديدة! كانت مجموعة العازفين تقوم بعزف المُقدمة الموسيقية، وكذلك الفواصل بين مقاطع الغناء، بينما استبدلوا المقاطع الغنائية بالعزف على آلة العود بدلًا مِن غناء الكلمات، وقد كان عازف العود ماهرًا بشكل مُبْهر للغاية، وكان عزفه رائعًا بالشكل الذي يجعلك تشعُر وكأنَّ العود هو الذي يقوم بالغناء بدلًا مِن المُطرب، حينها لم يَشْعُر «مدحت» بنفسه إلا وهو يُصَفِق بشِدَّة وبشكل مُتواصل عندما أنهى عازف العود مقطوعته الأخيرة، لقد كان ذلك العازف مُبدعًا للدرجة التي أنستْ «مدحت» همومه في تلك اللحظات القليلة، وجعلته يَشْعُر بحالة مِن الانتشاء والسعادة الداخلية، وصَدَقَ مَن قال قبل ذلك إن .الموسيقى علاج للروح

لكن سُرعان ما أخرجه مِن تلك الحالة صوت ذلك المُذيع المُزعج الذي عاد مُجددًا ليصيح عبر مُكَبِّر الصوت، مُعلنًا عن فقرة الرقص الشرقي، والتي ستؤديها تلك الراقصة (وصاح باسمها الأجنبي، لكنه لم يَتبيَّنه جيدًا)، ثم ضجَّت القاعة بخليط مِن التصفيق والصفير والصيحات المُبالَغ فيها، وبدا كل شيء يتحول إلى الابتذال! حينها نظر «مدحت» إلى ساعة يده وهو يضع يده الأخرى على فمه؛ ليُخفي تثاؤبه، فوجد أن الساعة قد تخطَّتْ الثانية والنصف صباحًا، فأشار إلى أحد النُدُل ليأتيه بفاتورة الحساب، ثم قام بسدادها، وهَمَّ بالرحيل وسط دهشة الجميع، وهم يرمقون بنظراتهم ذلك الشخص الذي يترك تلك السهرة، ويزهد في الفقرات الاستعراضية التي تقوم بها تلك الراقصة الأجنبية ذات القوام الممشوق والبشرة البيضاء، لكن لا يُدرك الجميع أن «مدحت» لا يعنيه كل ذلك، وأن الغرض الذي أتى مِن أجله قد تحقَّق مُنذ أن استمع لذلك العزف المُذهل على آلة .العود

* * *

لم يكُن «مدحت» يتخيَّل أبدًا قبل ذلك أنَّ جدول أعماله قد يحتوي على أي نشاط بعد مُنتصف الليل، ففي مساء اليوم التالي وجد نفسه تلقائيًّا يخرجُ مِن بيته قبل مُنتصف الليل بقليل، ليَصِل إلى ذلك المطعم قبل الثانية عشرة والنصف بدقائق معدودة، حيث تبدأ حينها الفقرة الموسيقية التي يبدو أنه !سوف يُدمِن الاستماع إليها، وكل ذلك كان بسبب عازِف العود المُبدع ذاك

دخل «مدحت» بثقة إلى داخل المطعم، وكأنه قد أصبح عميلًا مُستديمًا لذلك المطعم، وأشار إلى النادل بأن يجعل له طاولة ثابتة مُخصصَّة مِن أجلِه ليجلس إليها كل يوم، وطلب منه أن يُكرر تقديم

نفس طلبات الطعام والشراب التي تناولها أمس، وأن يُخطر زملاءه بأن يأتوا له بها بعد ذلك تلقائيًّا دون أن يقوم بطلبها.

كان واضحًا أن «مدحت» قد أصبح مِن أشدِّ المُعجبين والمُشجعين لعازِف العود ذاك، كما أن عازِف العود نفسه قد انتبه إلى وجود «مدحت»، وقام بتحيَّته تحيَّة خاصة بالإشارة بيده مِن بعيد، وكأن وجود كل منهما بات أمرًا مألوفًا لكليهما.

كان ذلك هو اليوم الثاني الذي يذهب فيه «مدحت» إلى ذلك المطعم على التوالي، وكان عازِف العود قد فَطِنَ إلى تكرار حضور مدحت إلى المطعم في هذا اليوم، وهو ما جعله يحرص على أن يقوم بعزف أغانٍ مُختلفة؛ لكي يكون مُتجددًا، وكذلك لكيلا يَمَل «مدحت» مِن تكرار مَجيئه إلى المطعم.

أنهى عازِف العود فقرته، ونالَ إعجاب الجميع وتصفيقهم الحاد، وكان أكثرهم تشجيعًا له هو «مدحت» بالطبع، بعدها حمل العازِف آلة العود، وأودعها داخل حقيبة سوداء اللون وشكلها يُماثِل شكل آلة العود تمامًا، ثم هبطَ مِن منَصَّة العازفين، ومرَّ بجوار «مدحت»، وألقى عليه التحية بإيماءة مِن رأسه، لكن «مدحت» لم يكتفِ بردِّ تلك التحيَّة العابرة، بل أشار إليه مُرحبًا وقال له:

- أحسنتَ يا عزيزي، أحسنتَ، دُمتَ دائمًا مُبدعًا.

حينها أصابَ العازِف خليط مِن السعادة والخَجَل، فقام بالردَّ على تلك المُجاملة وقال:

- أشكركَ يا سيِّدي، هذه شهادة أعتز بها.

فأشار إليه «مدحت» بيده يدعوه للجلوس وقال له:

- هل لديكَ بعض مِن الوقت لكي تقوم بتشريفي بالجلوس معي قليلًا؟

بدا على وجه العازِف دهشة كبيرة، وقال:

- إن هذا الشرف يكون لي أنا يا سيِّدي، هذا كرم كبير مِنكَ!

فقال «مدحت»:

- اجلس يا عزيزي ولا تخجل، إنه مِن دواعي سروري وافتخاري أن ألتقي فنانًا عظيمًا مثلكَ.

فابتسم العازِف وقال وهو يجلِس:

- أنا لستُ فنانًا عظيمًا يا سيِّدي، هذا التوصيف أكبر مِنِّي بكثير.

«فقال «مدحت:

- بل أنتَ كذلك بالفعل، إنَّكَ موهوب بشكل صارخ يا عزيزي، لم أرَ قبل ذلك عازفًا مثلكَ يستطيع أن يعزِف بتلك الدقة وبذلك الإحساس، لقد نجحتَ في أن تبدِّل الأصوات الغنائية بعزفكَ المُتقن، وكأنَّ العود هو الذي يُغنِّي.

فقال العازِف:

- يبدو أنَّكَ تمتلك حِسًّا موسيقيًّا عاليًا يا سيِّدي.

فابتسم «مدحت»، وأشار بيده نحو النادِل ليأتيه وقال للعازِف:

- لا أُريد أن يسرقنا الكلام دون أن تتناول معي شيئًا، هل يُمكنكَ أن تُشاركني الطعام؟ مِن المؤكَّد أنَّك تشعُر بالجوع مِثلي، لقد بذلتَ مجهودًا كبيرًا في العزف يا عزيزي.

احمَرَّ وجه العازِف خجلًا وقال:

- لا داعي لكل ذلك يا سيِّدي.

فقاطعه «مدحت» وقال:

- هل لديكَ موعد ما في هذه الليلة؟

فقال العازِف مُتلعثمًا:

- كلَّا يا سيِّدي، ولكن...

«فقال «مدحت:

- أرجوكَ دعكَ مِن هذا الخجل، أنتَ ضيفي الليلة، وأُكرر لَكَ، إنني أنا الذي أشعُر بالفخر؛ لأَنِّني أجلسُ معكَ الآن.

هزَّ العازِف رأسه مُستسلمًا وقال:

- كما تُرِيد.

كان النادل قد حضر بجوارهما، وأخذَ يدوِّن الوَجبات والمشروبات التي يريدانها، ثم ابتسمَ نحو العازِف ابتسامة خاصة؛ لكونه قد أصبح يجلس في موضِع زبائن المطعم بعد أن كان مُنذ قليل يُعَدُّ

!زميلًا له، ويعمل مثله في نفس المكان

:ذهب النادل بعيدًا، فاستأنف «مدحت» حديثه مع العازِف وقال

- ما اسمك يا عزيزي؟

:فقال العازِف

- اسمي «مُحسِن»، «مُحسِن السيِّد»، لكن الجميع اعتادوا أن ينادونني بـ«مُحسِن عود»!

:ابتسمَ «مدحت» بشِدَّة وقال

- يا له مِن اسم جميل وطريف، وأنا اسمي «مدحت».

:فقال العازِف

- تشرفتُ بكَ يا سيِّدي..

:«فقال «مدحت

- هل أنتَ دارسٌ للموسيقى أم إنَّكَ تمتلك موهبة العزف بالفِطرة؟

:فأجابه العازِف

- لقد ورثتُ موهبة العزف على العود عن والدي -رَحِمَهُ الله- فهو الذي كان يقوم بتعليمي وتدريبي على العزف، لقد كان والدي عازِفًا موهوبًا بالفِطرة، وكان يستطيع العزف على آلات موسيقية مُتعدِّدة، فقد كان يُتقِنُ العزف على آلات العود والقانون والناي معًا، لقد كان والدي فِرقة موسيقية في حد ذاته!

:فقال «مدحت» وهو يبدو عليه علامات الإعجاب

- يا للروعة، هل كان والدكَ ينتمي إلى إحدى الفرق الموسيقية المشهورة؟

:فقال العازِف وهو يبتسم

- لقد كان والدي ينتمي إلى تلك الفترة القديمة فيما قبل ظهور التلفزيون، فقد كان يقوم

بالعزف في الأربعينيات مِن القرن الماضي، وكان مجال عمله هو العزف في تلك المسرحيات الغِنائية، فقد عاصر والدي نهاية تلك الحقبة التي كان مِن أعلامها «فاطمة رُشدي»، و»عزيز عيد»، و»جورج أبيض»، و»نجيب الريحاني»، و»علي الكسَّار»، ثم حدثَ أن انتهى كل ذلك في الخمسينيات، وبدأتْ تتلاشى الحاجة لمثل هذا النوع مِن الفن مع ظهور الفرق الموسيقية الأكاديمية ومعاهد الموسيقى المُختلفة، فاقتصر دوره حينها على العزف في حفلات الزفاف والمُناسبات الاجتماعية في الأحياء الشعبية والمناطق الريفية.

فقال «مدحت»:

- يا له مِن زمن بعيد.

فقال العازِف:

- أجل، لكنَّ الفن كان كل حياته، وكان مُنشغلًا به على الدوام، لدرجة أنه تذكَّر أن يتزوَّج وهو على أعتاب الستين مِن العُمر، ربما كان عُمره خمسة وخمسون أو سبعة وخمسون عامًا حينما كانت ولادتي، ولقد توفي وأنا في الثامنة عشرة مِن عُمري..

فقال «مدحت»:

- البقاء لله، لقد كنتَ صغيرًا حينها بالفعل.

فقال العازِف:

- أجل، كما أنني كنتُ مُضطرًّا حينها لأن أجدَ عَمَلًا بسُرعة؛ كي أستطيع أن أعولَ أمي وأخي الأصغر، بالإضافة إلى إعالة نفسي أنا أيضًا، ولم يَكُن هناك بُدٌّ مِن أن أحمِلَ آلة العود الخاصة بأبي، وأن أعمَل بديلًا له.

فقال «مدحت»:

- يا لها مِن بداية شاقة للحياة.

فقال العازِف:

- لم تكُن البداية فقط، فقد صاحبني الشقاء طويلًا بعد ذلك!

فقال «مدحت»:

أتدري يا «مُحسِن»، كنتُ أتمنَّى لو أنني أستطيع أن أقوم بالعزف مثلكَ، وأن أستمر في العزفِ - الساعات طويلة إلى أن تسمو روحي، وأنسى كل مشاكلي وهمومي، يا له مِن شعور رائِع!

فقال العازِف:

هل تعني أنكَ تتمنَّى أن تكون مكاني يومًا ما؟ -

فقال «مدحت»:

أجل، ليتني كنتُ مثلكَ -.

فقال العازِف:

عُذرًا لسؤالي، ماذا تعمل يا سيِّدي؟ -

فقال «مدحت» بعد تردد:

إنني رجل أعمال يا عزيزي -.

فابتسم العازِف وقال:

دائمًا ما تتوق أنفسنا إلى ما ينقُصنا، ولا نشعُر بما نَمتلكه بين أيدينا بالفعل، لعلَّك تعتقد يا سيِّدي - أنني أستمتع وأتلذَّذ بالعزف على آلة العود، وربما تظُن أنني في حالة دائمة مِن السعادة؛ بسبب ذلك، لكن الحقيقة هي عكس كل ذلك، ففي واقع الأمر أنني أقوم بالعزف مُرغمًا؛ ذلك لأَنِّي مُنذ صِغَري لم أتمكَّن مِن أن أتعلَّم حِرفةً غيرها، وصرتُ أقوم بالعزف بشكلٍ آلي يخلو أحيانًا مِن الإحساس، ربما أبدو مُنهَمِكًا بعزف أُغنيَّة ما بإتقان شديد، لكنني في حقيقة الأمر قد لا أكون أسمعها على الإطلاق، وربما يكون ذهني مشغولًا بشيء آخر، فكل ما يعنيني في النهاية، وكل ما يشغل بالي بالفعل هو الحصول على تلك الجنيهات القليلة التي سأتقاضاها في نهاية اليوم، وهي التي أحتاج إليها بشِدَّة؛ للإنفاق على زوجتي وأولادي، ولا تكاد تكفيني! كم كنتُ أتمنَّى أن أكون يومًا ما جَالِسًا على الجانب الآخر إلى إحدى الطاولات، أستمعُ إلى العازفين، وأستمتعُ بعزفهم!

بَدَتْ على وجه «مدحت» علامات الدهشة والتعاطُف الشديد، لكن العازِف استكملَ حديثه وقال:

أتدري يا سيِّدي، إن جميع الحاضرين هنا هُم زبائن موسميون، منهم من يأتي لفترة ما ثم يختفي - حينًا، ومنهم مَن يأتي لمرَّة واحدة فقط قد لا تتكرَّر بعد ذلك، وعلى العموم فإنه لا يوجد أحد يستمر معنا هنا على الإطلاق سوانا نحن العاملين فقط بهذا المكان، وبالتالي فإنني أقوم بالعزف بشكل مُتكرِّر في كل يوم، بينما يراني الحاضرون، وكأنهم يستمعون إلى عَزْفِي لأوَّل مرة بالنسبة لهم، وليس بالنسبة لي.

:«فقال «مدحت

- حقًّا؟ كنت أَظُن أن مُعظم الحضور أو أغلبهم هُم زبائِن مُستديمون!

:فقال العازِف وهو يبتسم

- إنني أقوم بالعزف هنا مُنذ سنوات، وصرتُ أعرف أنواع البشر الذين يأتون إلى هنا بحُكم خبرتي بالمكان والأيَّام، فالناس هنا ينقسمون إلى نوعين اثنين فقط، النوع الأول منهما هُم مَن يأتون لمرَّة واحدة قد تتكرَّر فيما بعد وقد لا تتكرَّر، ربما يأتون إلى هنا للاحتفال بشيء ما، أو للقاء الأصدقاء، أو لرؤية الحبيب، أمَّا النوع الثاني فهم الذين تكون لديهم الأسباب التي تجعلهم يداومون على الحضور بشكل مُتكرِّر لعدة أيَّام وربما لمُدَّة أسابيع مُتتالية، لكن ذلك لا يستمر طويلًا أيضًا.

:شعَر «مدحت» وكأنَّ العازِف يُلمح إلى شيء ما عنه هو نفسه، فسألَ العازِف مُستوضحًا وقال

- وماذا تكون تلك الأسباب التي قد تدفع النوع الثاني مِن الزبائِن إلى الحضور باستمرار ثم ينقطعون عن الحضور بعد ذلك؟

:ابتسمَ العازِف وقال

- إنهم في غالب الأمر يكونون في مُعاناةٍ مِن أمرٍ ما، ربما كانت مُشكلاتٍ تتعلَّق بالعمل أو المال، وربما كانت مسائل تتعلَّق بالحب أو الزواج، وقد تكون بسبب رحيل شخص عزيز أو تعرضه للمرض، وقد لا يكون الأمر سيئًا بالضرورة، فربما كانوا يعانون مِن وحدة مؤقتة؛ بسبب سفر الزوجة والأبناء، وربما قد يكونون وافدين مِن خارج المدينة وقد أتوا إلى مدينتنا في مَهَمَّة ما ربما تستغرق أيامًا عديدة، فيأتون حينها إلى هنا للترفيه وقتل الملل. وعندما يتوقف هؤلاء عن الحضور، أُدركُ حينها أن مشاكلهم قد تمَّ التوَصُّل إلى حلٍ لها، وأن ظروف حياتهم قد تغيرتْ نحو الأفضل، أمَّا نحن، فيظَلُّ حالنا على ما هو عليه، لا يَتغيَّر إلى ما هو أفضل أبدًا!

:أومأَ «مدحت» برأسه موافقًا على ما قاله العازِف، لكِنَّه باغَته بالسؤال فجأةً وقال له

- أرجو أن يكون سبب تكرار حضوركَ إلى هنا أمرًا ليس بالسيئ، أليس كَذَلِكَ يا سيِّدي؟

كان السؤال مُفاجئًا لـ«مدحت» بلا شك، وهو ما جَعَله يتردَّد في الإجابة للحظات، حينها أسرعَ العازِف وقال:

- أنا آسف على تَطَفُّلِي هذا يا سيِّدي، لا تقُل لي شيئًا، فأنا لم أقصد أن أعرف سبب مَجيئكَ إلى هنا في كل يوم، أنا فقط أتمنَّى ألّا يكون قد حدثَ لَكَ مكروه في حياتكَ، هذا كل ما في الأمر.

:أومأَ «مدحت» برأسه في دلالةٍ على شُكره وامتنانه، وقال

- بالفعل ربما أنا لستُ بخير، لكنِّي كَلِي أمَل أن تَنصلح الأحوال قريبًا.

فقال العازِف:

- أتمنى لَكَ كل الخير يا سيِّدي، وشكرًا لَكَ على هذه الدعوة الكريمة.

قال «مدحت»:

- هذا أمر بسيط، شكرًا لَكَ أنتَ على قبولكَ لدعوتي.

وقال حينها نَهَضَ العازِف، ومَدَّ يَدَه مُصافحًا «مدحت»:

- أستأذنكَ في الرحيل الآن، طابتْ ليلتكَ يا سيِّدي، أتمنَّى أن أراكَ قريبًا.

ابتسمَ «مدحت» نحوه ولوَّح له بيده مودعًا، ثم استسلمَ لشروده وأخذَ ينظُر إلى اللاشيء! استمرَّ ذلكَ طويلًا لدرجة أنه لم يَشْعُر بكل تلك الضوضاء الصاخبة التي صاحَبتْ صعود الراقصة الأجنبيَّة لأداء فقرتها الاستعراضيَّة، ولم يَفِق مِن شروده إلا بعد انتهائها! لقد كانت تلك الليلة هي الليلة الأولى التي استكمل فيها «مدحت» حضور البرنامج الفنِّي كاملًا حتى نهايته، ولكِنَّه كان في حقيقة الأمر لم يَشْعُر بذلكَ بالفعل!

كانت الساعة قد قاربتْ الرابعة والنِصف صباحًا بعد مُنتصف الليل، حينها هَمَّ «مدحت» بالرحيل، بينما عقله مشغول بأمر آخر!

(٦)

سعيد

إن أعادوا لَكَ الطريق، فمَن يُعيد لَكَ خُطاك؟

إن أعادوا لَكَ صوتكَ، فمَن يُعيد لَكَ الكلمات؟

إن أعادوا لَكَ المقاهي القديمة، فمَن يُعيد لَكَ الرفاق؟

محمود درويش(9)

استيقظ «مدحت» في وقت مُتأخر على غير عادته اليومية وكان يبدو بوضوح مِن شدة ضوء الشمس المُتسلل عبر النافذة بأن الوقت قد اقترب مِن فترة الظهيرة! أصابته لحظات مِن الدهشة ثم جال ببصره في أرجاء الغُرفة ليتذكر حينها أنه قد بات ليلته في غُرفة النوم الصغيرة المُلحقة بحُجرة مكتبه بالطابق الأرضي. كان قد قام بتجهيز تلك الغُرفة الصغيرة منذ سنوات؛ لكي يتمكن من الاسترخاء بين ساعات الكتابة الطويلة، ولكيلا يقوم بإزعاج زوجته عندما يشرع في الكتابة ليلًا بينما الجميع نيام. كان ذلك هو اليوم الثالث على التوالي منذ أن نشب الخلاف بينه وبين زوجته «شهيرة»، وهو ما جعله يهجر غُرفة نومهما الرئيسية في الطابق العلوي.

نهض برأسه ليتعرف على الوقت مِن الساعة الموضوعة بجواره، فزادت دهشته أكثر! ثم أمسك بهاتفه المحمول واكتشف أنه لم يقم أحدهم على الإطلاق بالاتصال به؛ لإيقاظه مِن النوم أو للاطمئنان عليه أو للسؤال عن سبب غيابه المُفاجئ حتى وقت الظهيرة!

شرد بذهنه للحظات، ثم أمسك بهاتفه مرة أُخرى، وبحث عن رقم صديقه القديم «سعيد المُقدِّم»، ثم ضغط على زر الاتصال به، وانتظره طويلًا إلى أن قام بالرد عليه. انفرجت أسارير «مدحت» حينها وقال له:

كيف حالك يا «سعيد»؟ إنه مِن حُسن حظي أنني وجدتكَ الآن على الفور.. أحتاج إلى الحديث - معك بشدة، إنه أمر مهم ولن يتفهمه غيركَ.. ليتنا نلتقي اليوم قبل الغد، ليتنا نلتقي الآن (ويبتسم).. فالأمر لا يحتمل التأجيل.. أنتَ تعلم أنه بات مِن الصعب أن نلتقي في شارع «البُستان» مثلما كنا نفعل في الماضي، فقد أصبحتُ وجهًا مألوفًا للأسف، ولن يتركونا نتحدَّث بحرية كما تعلم.. (يضحك بشدة) بالطبع لا لم يُصبني الغرور ولن أكون مغرورًا أبدًا ما حييت، لكنني أُريدكَ في أمر مهم بحق، ولذلك أحتاج إلى الحديث معكَ دون مُضايقات أو مُقاطعات مِن الآخرين.. إنني أقوم بالسهر يوميًّا في مكان مغمور لا وجود للمُثقفين فيه، ولم يتعرف عليَّ أحد هناك على الإطلاق، سأُرسل لك العنوان التفصيلي في رسالة نصيِّة عبر الهاتف.

- ...

- حسنًا، التاسعة والنصف مساءً، هذا موعد رائع، سيكون ذلك قبل بداية الفقرات الغنائية والموسيقية وسوف ننعم بالهدوء.. (يضحك) أجل توجد هناك راقصة، وستحوز إعجابكَ كثيرًا، لكنه يلزمكَ أن تنتظر فقرتها الاستعراضية بعد مُنتصف الليل بكثير، وأنا أعلم أنكّ تنام مُبكرًا.

كان «سعيد المُقدِّم» صديقًا قديمًا لـ«مدحت»، فقد كانا زُميلين أثناء مرحلة الدراسة الجامعية، وكانا لا يفترقان أبدًا آنذاك، هذا بخلاف أن ظروفهما العائلية والمادية كانت مُتطابقة إلى حد كبير، لكن أهم الأمور المُشتركة فيما بينهما على الإطلاق هو أن كليهما يعشقان الأدب والشعر، وأن كلًّا منهما شهد ولادة أولى مُحاولات التأليف والكتابة الأدبية للآخر، فقد كان كل منهما مشروعًا روائيًا واعدًا، وكان كل منهما يقرأ ما يكتبه الآخر ويقوم بنقده وتصحيحه وإرشاده.

رضي «سعيد» بأن يظل موظفًا حكوميًا في وزارة الثقافة، وهو ما مَكَّنَهُ مِن أن يقوم بنشر بعض أعماله الأدبية كل عامين أو ثلاثة عبر إصدارات الوزارة وهيئات قصور الثقافة، كما حصد العديد مِن جوائز الدولة عن تلك الإصدارات، وهي التي لا يتم توزيعها ونشرها إلا في نطاق محدود وضيِّق وفق الإمكانيات المُتواضعة للوزارة بالطبع.

وعلى عكس ذلك الطريق الرتيب الذي اختاره «سعيد» لحياته، كان لصديقه وتوأمه «مدحت» اختيار آخر، فقد تمرَّد على الوظيفة الحكومية، وتنقَّل بين وظائف مُتعددة في مكتبات القطاع الخاص ودور النشر والجرائد والمجلات المُستقلة، وعانى في ذلك الكثير مِن القلق وعدم الاستقرار وخصوصًا في البدايات، إلى أن ابتسم له الحظ أخيرًا عندما كتب روايته الساحرة «شهيرة»، والتي فتحتْ له بعد ذلك طريق الشُهرة والمجد والثراء.

أخذ «مدحت» ينظر في ساعة يده وهي تقترب مِن التاسعة والنصف، وقال في نفسه: سأجد «سعيد» فجأة أمامي الآن. ربما لم يمر أكثر مِن ثانية واحدة إلا وكان هناك مَن يربت على كتفه مِن خلفه، فابتسم «مدحت» قبل أن يلتفت إلى الخلف؛ لأنه مُتأكد أن ذلك هو «سعيد»، وقد كان!

ألقى «سعيد» التحية على «مدحت» الذي صافحه بحرارة وهو يُلاحظ أنه يحمل شيئًا مألوفًا لديه بيده الأخرى، فقال «مدحت»:

- هل هذه هي المُفكرة السوداء القديمة؟ هل أحضرتها معكَ؟

فقال «سعيد»:

- وما الذي يجعلني أنساها؟ يبدو أنكّ أنت الذي نسيت...

فقاطعه «مدحت» وهو يرفع بيده مُفكرته الزرقاء القديمة -كان يضعها على مقعد مُجاور- وقال له:

- لم أنسَها بالطبع.

ضحكا سويًا وهما يتذكران أن تلك المُفكرات كانت أولى الهدايا التي تلقياها بعد أن تم توظيفهما معًا في وزارة الثقافة، حينها فرحا بها بشدة؛ لأنها تحمل شعار وزارة الثقافة المصرية، واختار يومها «سعيد» أن يحتفظ بالمُفكرة ذات اللون الأسود، بينما رضي «مدحت» بالأُخرى ذات اللون الأزرق. ربما مرَّ على ذلك اليوم ما يقرُب مِن عشرين عامًا، وربما يستطيع «مدحت» أن يشترى الآن مُفكرة أكثر فخامة منها، بل إنه تلقى بالفعل العديد مِن المُفكرات والهدايا المكتبية الثمينة، والأكثر جمالًا وجودة، لكن تظل لهذه المُفكرة القديمة المُتواضعة ذكرياتٍ جميلة وبريئة لن تتكرر، كما أنه صار يتفاءل بها وبما يخطُّه فيها مِن أفكار وخواطر.

قال له «سعيد»:

- لقد أصبتني بالقلق عليكَ.. ماذا بكِ؟

فقال مدحت:

- دعنا نقوم بطلب الطعام أولًا.. هل لكَ خيارات مُحددة اليوم، أم إنكَ ستتناول ما اعتدنا عليه؟ (يبتسم)

فقال «سعيد»:

- أنا لم أتغيَّر بعدُ.. وأنتَ تعرف ما الذي أُحب أن أتناوله جيدًا.

فقال «مدحت»:

- وأنا كذلك عندما أكون معكَ تعود إليَّ نفسي الحقيقة التي أشتاق إليها.

فقال «سعيد»:

- إنها ضريبة الشُّهرة يا عزيزي، تحدثنا في ذلك الأمر كثيرًا قبل ذلك..

فقال «مدحت»:

- أجل.

ثم أشار إلى النادل لكي يأتي إليه ويقوم بتدوين الأطعمة التي يُريدانها.

ابتسم «سعيد» وهو يُتابع حديث «مدحت» مع النادل، ما زال «مدحت» يحفظ عن ظهر قلب -وبالتفصيل- أن سعيد يحب تناول المشويات المُشكّلة، ولكن لا بُد أن تكون قطع الدجاج ذات مذاق حار، والحساء بدون ملح، مع ضرورة وجود حبتين مِن الليمون الطبيعي، وكوب مِن عصير الليمون أيضًا.

انصرف النادل، فقال «سعيد»:

- والآن أخبرني.. ماذا بكَ؟

فقال «مدحت»:

- لديَّ أكثر مِن مُشكلة، سأُخبرك عن أقلِّها حدة أولًا.

فقال «سعيد» وهو يبدو عليه الانزعاج:

- الآن ازداد قلقي أكثر، تحدَّثْ يا عزيزي.

قال «مدحت»:

- لا أذكُر متى بدأَتْ تلك الحالة الغريبة تعتريني بهذا الشكل، فقد صرتُ أتحدَّث مع نفسي كثيرًا بصوت مسموع، وتخطى ذلك الأمر كونه حديثًا داخليًّا فقط مع النفس، ولم تعُد تلك الأحاديث مُجرد همهمات وأفكار وخواطر فحسب، بل إنني كثيرًا ما أضبط نفسي مُتلبسًا بتلك الحالة مِن الهذيان والجنون؛ فأنا أتحدَّث معي!

ابتسم «سعيد» وقال:

- لكن ذلك أمر طبيعي، ما الغريب في ذلك؟

فاقترب «مدحت» برأسه نحو سعيد وقال:

- لقد ساءتْ الأمور أكثر مِما سبق بمراحل، وصارتْ نفسي تقوم بالردِّ عليَّ أحيانًا، وأصبحتُ أسمع صوتها وهي تُحادثني وتُجادلني! لا أدري لماذا يظن الناس أن النفس هي أُنثَى؟ لقد سمعتُ صوتَ نفسي مرارًا وكان صوتها رجوليًّا تمامًا، وإن كان صوتها أجمل وأعمق مِن صوتي الطبيعي، وهو ما يُضفي عليها بعضًا مِن الحكمة والوقار. لولا أنني أقوم بعملي اليومي المعتاد بكل جد وتركيز، لكنتُ ظننتُ أنني قد أصابني الجنون، فلا توجد أيَّة مُلاحظات مِن زملائي عن أدائي في العمل على الإطلاق، كما أن زوجتي لم تقل لي إن هناك شيئًا غريبًا قد طرأ عليَّ، وهي الوحيدة في هذا العالم التي تفهمني وتقرأ ما بداخلي دون أن أتكلم كما تعلم.

حينها هزَّ «سعيد» رأسه وقال:

- قد يكون ذلك حديثًا داخليًّا بين أبطال رواياتكَ التي تقوم بتأليفها، أو قد يكون حديثًا داخليًّا بينكَ وبينهم، هذا الأمر يحدُث للعديد مِن الكُتَّاب والمُبدعين يا عزيزي.

فقال «مدحت»:

- قلتُ لكَ إن هذه هي المُشكلة الأصغر، أما المُشكلة الكُبرى الحقيقة فهي أنني لم أستطع أن أكتُب شيئًا منذ عشرة شُهور كاملة! لقد أحضرتُ لكَ مُفكرتي القديمة لترى أنني منذ شهور لا أفعل شيئًا سوى كتابة بعض الحكايات والقصص المبتورة وغير المُترابطة، لقد اقترب العام مِن نهايته، وكان لا بُد أن تكون لي رواية جديدة، أو على الأقل فكرة رواية جديدة، لكني أشعُر وكأن رأسي قد أصابه الصدأ فجأة.

فقال «سعيد»:

- هذا أمر غريب عليكَ، فقد كنتَ دائمًا منبعًا مُتجددًا للأفكار الجديدة والجريئة طوال الوقت.

فقال «مدحت»:

- ما أعنيه حقًّا هو أنني أُعاني مُعضلة الزهد في الكتابة، أو بمعنى أكثر دقة، صرتُ أُعاني مُعضلة عدم الشعور بجدوى الحكايات وسط هذا الواقع المجنون الذي يحمل مِن الخيال ما يفوق كل ما يُمكن تأليفه أو اختلاقه مِن حكايات.

زادتْ دهشة «سعيد» وقال:

- هل يكون ذلك بسبب أنكَ ما زلتَ تَتَّبِع المدرسة القديمة في الكتابة؟ ربما لم يعُد هناك مَن يفعل ما تفعله الآن، لقد تغيَّرت الدنيا وصارتْ الكتابة صناعة كبيرة لها أدواتها الحديثة التي تُمكنك مِن اختصار ذلك المجهود الكبير الذي تبذله، وستجعلك حاضرًا وسط جمهورك على الدوام.

فقال «مدحت»:

- أيَّة صناعة تعني؟ وأيَّة أدوات؟ ما هذه المُفردات الغريبة التي تقولها؟ الكتابة هي الكتابة، ما الذي يُمكنه أن يتطوَّر فيها عمَّا هي عليه الآن؟

ضحك «سعيد» وقال:

- أنا لا أتحدَّث عن الكتابة بذاتها ككلمات وحروف وتراكيب لغوية، لا يوجد مَن هو أبرع مِنك في ذلك، أنا أعني طريقة الكتابة، لقد تغيَّر العصر تمامًا يا عزيزي، وصار إنتاج الإبداع أمرًا صعبًا

للغاية، وسط جحافل الكَتّاب والمُبدعين، لذلك أصبحتْ الكتابة عملًا جماعيًّا يُشارك في إنتاجه العديد مِن الأشخاص، وصارتْ كأي صناعة أُخرى لها عناصر مُتعددة تدخل في تكوين المُنتج النهائي.

قطَّب «مدحت» جبينه وقال:

- ألا تلحظ أنك تهذي؟ ما علاقة الكتابة بالصناعة؟

ضحك «سعيد» مُجددًا وقال:

- سأذكر لك مثالًا مختلفًا عن الكتابة؛ لكي أُقرِّبَ الفكرة إلى ذهنكَ، أنت تُتابع مثلًا لعبة كرة القدم، وتلك اللعبة كانت في الماضي البعيد لعبة رياضية ترفيهية تهدف إلى صحة الأبدان، ثم صار لها جمهور ومُشجعون، وأصبحتْ تدرُّ أرباحًا مالية، هل تُتابع الآن كيف صارتْ لعبة كرة القدم صناعة كاملة تعتمد على الأرباح والخسائر، شأنها شأن أي شركة تجارية؟ هل تعرف أنها صارتْ رياضة تعتمد على الإعلانات الترويجية عبر التلفزيون وعلى جدران الملاعب، وحتى على ملابس اللاعبين؟ هل تعرف أن فريق كرة القدم أصبح يوظف مُديرًا فنيًّا ومُدربًا مساعدًا ومُدربًا لحراس المرمى بخلاف العديد مِن الإداريين والأطباء والمحللين؟ هل تعرف أن جميع هؤلاء المُدربين واللاعبين لا يجدون الوقت الكافي لمُتابعة التعاقدات وفُرص العمل والإعلانات؟ لذلك صاروا جميعًا يوظفون وكلاء لهم، ينوبون عنهم في إدارة كل تلك الأمور، ويقومون باقتناص الفرص، واختيار ما هو أفضل لهم ولمُستقبلهم، فيتفرغون هُم لوظيفتهم الأساسية وهي لعب أو تدريب كرة القدم!

فقال له «مدحت»: نعم لديَّ بعض المعلومات عن كل ذلك، ربما ليس بالعُمق والفهم الكامل، لكني أُدرك ما تعنيه، والآن، ما علاقة ذلك كله بالكتابة؟ إن كل ما سبق لا ينطبق على الأدب والإبداع يا عزيزي.

فقال «سعيد» وهو يُشير بإصبع السبَّابة مؤكِدًا:

- هذا ما زلتَ تظنه أنتَ، لكن الأمر نفسه ينطبق على الكتابة أيضًا، فالكاتب في هذا العصر المُزدحم لا بُد أن يكون مُختلفًا ومُتميزًا لكي يحقق الانتشار والنجاح، ولن يتحقق ذلك إلا عن طريق الاستعانة بالآخرين، فأنت تحتاج لفريق إعداد يقوم بالبحث والتنقيب عن أية معلومات تاريخية كانت أو سياسية قد تحتاج إليها عندما تقوم بالكتابة عن أمر ما، وتحتاج لآخرين يقومون بدراسة الاتجاهات التي تجذب شرائح القرَّاء، وبالتالي تُوجِّه كتاباتك إليها، كما ستحتاج لمَن ينوب عنك في التعاقدات مع دور النشر والمكتبات والفعاليات الأدبية، هذا بخلاف الدعاية ومواقع التواصل الاجتماعي وغيرها، مَن مَنَّا يُمكنه القيام بكل ذلك في وقت واحد؟ ومَن مِنَّا يمتلك جميع تلك المهارات المُتعددة مِن بحث وتسويق وتعاقدات تجارية؟ لقد ولَّى ذلك العصر الذي يُمكنك أن تفعل كل ذلك مُنفردًا؛ لتحقق النجاح الذي تتمناه وسط عشرات الآلاف مِن المُبدعين مثلك، حاول

أن تتفهم ذلك الآن، ولتعمل على اللحاق بالركب، قبل أن تتأخر أكثر وأكثر. أنتَ الآن في المُقدمة يا عزيزي، لا يوجد على الساحة مَن هو أكثر مِنك مجدًا وشُهرة، وأنتَ تمتلك القُدرة على أن تقومِ بالإنفاق اللازم لتطوير طريقة عملك أكثر مِن أي روائي آخر على الساحة، لذا فإنه يتوجب عليكَ أن تتحرك سريعًا.

فقال «مدحت»:

- يبدو أن كلامكَ قد ينطوي على بعض الأمور الصحيحة الخاصة بالتسويق والشئون التعاقديّة والتجارية، لكن اسمح لي أن أختلف معك تمامًا فيما يخص الأُمور الإبداعية، لا يُمكنني أبدًا أن أُشرك الآخرين في إعداد كتاباتي، ثم أدَّعي بعد ذلك أنها إبداعاتي أنا! ألا يكون ذلك نوعًا من الخداع للمُتلقي والقارئ؟ وإن كان الأمر بهذه السهولة، فلم لا نبتكر فقط بعض الأفكار ثم نستأجر الآخرين ليقوموا بكتابتها التفصيلية لنا، ولتذهب بعدها روح الكاتب وأسلوبه إلى الجحيم.

فقال «سعيد»:

- لم أقل أبدًا إنك ستستأجر الآخرين للكتابة بالنيابة عنك، ويبدو أنك لم تعِ جيدًا بعدُ ما هو دور الوكيل الأدبي أو المُدقق الفني، وما الذي يُمكن أن يفعله من أجل أن يوفرِ عليك الوقت والمجهود الضائعين في أمور عرضية وجانبية قد تؤخر من تقدمك في الكتابة، إن ذلك الوقت المُهدر يُمكنك أن توفره، وأن تستفيد منه في إعلاء جودة ما تكتبه، بخلاف اختصار الوقت وزيادة الإنتاج الأدبي.

بدا على وجه «مدحت» عدم الاقتناع على الإطلاق، فأشاح بوجهه يمينًا ويسارًا، حينها نهض «سعيد»، وأخرج ورقة صغيرة من جيبه، ثم جلس مُجددًا، وناول تلك الورقة لـ«مدحت»، وقال له:

- لا ترفُض شيئًا قبل أن تقوم بتجربته، هذا هو رقم هاتف أحد الوكلاء الأدبيين البارعين، يعمل تحت إمرته العديد من الباحثين وفرق الإعداد، قُم بالاتصال به وجرِّبه، لن تخسر شيئًا.

أومأ «مدحت» برأسه، وهو يدُس الورقة في جيبه، وقال:

- حسنًا، سوف أُفكر في الأمر.

رفع «سعيد» كتفيه في يأس، ثم باغته بالسؤال قائلًا:

- كيف هي «شهيرة»؟ لعلها بخير؟

حينها صمتَ «مدحت» فجأة، وشعر وكأن «سعيد» يخترقه مِن الداخل، طال صمت «مدحت»، فبادره «سعيد» بالقول على الفور:

- إذَا فهناك أمرٌ آخر تُخفيه عني.

فقال «مدحت»:

- ليس هذا هو ما يشغلني الآن، لكن بالطبع لم يكن ينقصني أن تزداد همومي همًّا إضافيًّا فوق ما أعاني مِنه بالفعل.

فقال «سعيد»:

- ما الذي حدث بينكما؟ ربما كان هذا هو مربط الفرَس.

فقال «مدحت»:

- لا أعتقد ذلك، ولكن «شهيرة» تغيَّرت كثيرًا مؤخرًا، لقد صارت هجومية وحادة الطباع، صارت تُهاجمني وتُحاصرني في كل يوم؛ بسبب عدم قُدرتي على مُعاودة الكتابة. أنا أعلم جيدًا أنني في ورطة بسبب ذلك، لكنها صارت تتهمني بالتخاذُل والإهمال.. تخيَّل!

فقال «سعيد»:

- لا أعتقد ذلك يا عزيزي، ربما هي فقط تُحاول أن تقوم بتشجيعكَ و...

فقاطعه «مدحت» قائلًا:

- لقد تغيَّرت «شهيرة» فجأة يا «سعيد»، وفي وقت قصير، هي تُريدني أن أكون على القمة، وألَّا أفقد تلك القمة أبدًا، حتى ولو كان ذلك على حساب صحتي وأعصابي وحالتي النفسيَّة، أنا لستُ آلة كاتبة، ولن أستطيع أن أكتُب أي شيء لمُجرد الكتابة، أنت تعرفني جيدًا يا «سعيد»، إما أن أكتُب شيئًا ذا جودة عالية، ويليق بتاريخي ونجاحاتي السابقة التي حققتها، وإلا فمِن الأفضل أن أنتظر.

فقال «سعيد»:

- لكن «شهيرة» تُحبك.

فقال «مدحت»:

- وأنا أعشقها كما تعلم، لكن «شهيرة» التي تتحدَّث معي، وتُحاصِرني في هذه الأيام هي «شهيرة» أُخرى تختلف تمامًا عن حبيبتي التي أحببتها وتزوجتُها، سأُخبرك بأمر لم يخرج مِن بين ضلوع صدري قبل ذلك، لقد صرتُ أُفكر في تركها والابتعاد عنها إلى أن تتصلح الأحوال.

:«فقال «سعيد

- هذا تطرف غير مُبرر منكَ، اعلم يا صديقي أنك إذا احترتَ في أمر حبكما يومًا، انظر إلى قلبكَ حينما يأتي الخلاف الأول بينكما، حينها فقط ستعرف: هل أنت غاضب مِنها لشخصها أم إنك غاضب فقط مِن أثر الخلاف الحادث بينكما؟ والفارق بينهما يا عزيزي بسيط، أنتَ تُخاصمها، لكنك تُحبها، وتكره سبب الخلاف، لكنكَ ما زلت تعشقها!

وإن كنتَ تُحبها حقًّا، تريَّث كثيرًا قبل أن يقودكَ غرورك لكي تتركها وترحل، لا تنتظر أن تُخبركَ السنوات القادمة بأنكَ قد تعجَّلتَ في قراركَ، لا تنتظر أن يأتيكَ النُضج مُتأخرًا، فتذوق حينها مرارة الندم على حماقات الماضي البعيد، لا تنتظر ولا تنتظر ولا تنتظر.

قُم وصالحها ولا تنتظر، فالحياة كلها لا تستحق كل ذلك العناء.. ولا تنتظر.

ولا تتركها أبدًا على الجانب الآخر مِن الطريق وهي تنظُر نحوكَ مُتسائِلةً عمَّا تنوي أنتَ فعله! لا تجعلها في حيرةٍ مَن أمرها، ولا تتركها فريسةً للألم أو هواجس الندم، قُم بالعبور نحوها، وأمسِك يدها، واستكمل معها السير، لا يهم الاتجاه أكان مِن اختيارك أم اختيارها، المُهم أن تكونا معًا في نفس الطريق.

ستعرف يا عزيزي فيما بعدُ أن الحياة ما هي إلا محطات مُتتالية مِن الوداع، ويتخللها بعض أيام نعيشها وتعيشنا، لكنها لا تستمر!

وداعٌ يُسلمكَ إلى وداعٍ آخر إلى أن تعتاده ويعتادكَ، تنتظره وينتظركَ. وبينما أنتَ بين هذا وذاكَ، اقتنص كل لحظة مع مَن تُحب، ولا تُضيِّع ثانية واحدة في اختلافٍ أو خصام، وانتهز العُمر -وما أقصره- قبل أن يُباغتكَ الوداع الجديد!

:«فقال «مدحت

- أنتِ ما زلت تتحدَّث عن «شهيرة» أُخرى يا «سعيد».. «شهيرة» التي كانت في الماضي.

فقال «سعيد»: أما عن الماضي، فقد ذهبتْ أيامه ولن تعود، ولا يبقى مِنها سوى الذكريات، وأما عن المُستقبل، فنحن لم نحيَ أيامه بعد، ولا نملك مِنه سوى الآمال والأحلام، نحن لا نملك بالفعل سوى حاضرنا، ومع ذلك نحن لا نكره شيئًا أكثر مِن حاضرنا! يجذبنا دومًا حنين ذكريات الماضي، وبريق أحلام المستقبل، وكلاهما سراب، سراب مضى، وآخر لم يأتِ بعد، ويبقى حاضرنا حقيقة تعيش فينا ولا نعيشها! «شهيرة» هي نفسها «شهيرة» يا «مدحت»، لا تجعل شعورك الحالي تجاهها يُسيطر عليكَ فتخسر ما لن تستطيع أن تُعوضه بعد ذلك أبدًا ما حييت، راجع نفسكَ يا «مدحت»، ولا تجعل الضُغوط المُختلفة تتداخل فيما بينها فتفقد الطريق وتختلط عليكَ الرؤية الصحيحة.

«صمتَ «مدحت» طويلًا، فقال له «سعيد:

- فلتبدأ أولًا بمُعالجة مُشكلة العزوف عن الكتابة، افعل ما نصحتكَ به منذ لحظات، وعندما تنفرج هذه الأزمة الأولى ستجد أن بقيَّة الأمور الأخرى العالقة سوف يتم حلها تلقائيًّا بعد ذلك الواحدة تلو الأخرى، وسينقشع هذا الضباب الذي يحجب عنكَ رؤية الأشياء يا صديقي.

(٧)

سيرين

«أجملُ ما في الصُدفة أنها خاليةٌ مِن الانتظار»!

محمود درويش(10)

في صباح اليوم التالي، وصل «مدحت» مُتأخرًا كعادته مُؤخرًا إلى مكان عمله في ذلك المبنى الجديد في حي التجمُّع الخامِس، ذلك المبنى الجميل ذو الواجهات الزُجاجية المُميزة، والذي انتقلتْ إليه إدارة الشركة التي تقوم على إصدار الجريدة الأسبوعية الشهيرة التي يعمل بها مُحررًا. كان قد اعتاد أن يُقابل المُحررين أو الصحفيين في ذلك المكتب، كما اعتاد أن يقوم بكتابة موضوعات صفحته الأسبوعية هناك أيضًا.

بدأ يومه كعادته بأن يتأمَّل شاشة الحاسب الآلي، حيث توجد الموضوعات المُختلفة التي تنشرها الجريدة يوميًّا على موقعها الإلكتروني، وهو ما كان يعتبره أمرًا فريدًا وعجيبًا؛ نظرًا لتسارُع الأحداث وتتابُع تحديثها باستمرار، وكذلك بسبب وجود العديد مِن الموضوعات الطريفة والغريبة التي يتناولها المُحررون الشباب، والذين يلتقطون أخبارها مِن كل مكان حول العالم. لكن «مدحت» لم يفعل أي شيء مِن كل ذلك كما اعتاد دائمًا، فقد كان شارد الذهن مُغيَّبًا عن الدنيا؛ بسبب التفكير المُستمر في مشاكله الحالية، والتي كانت قد بدأتْ منذ شُهور، وطال تأثيرها دون حلول.

استمرَّ شروده ساعة كاملة دون أن يشعر! ساعده على ذلك أنه لم يرِد إليه أي اتصال تليفوني، وكذلك لم يدخُل إلى مكتبه أي شخص؛ للحصول على توقيع ما، أو لِيستفسر عن أمر ما، حينها انتبه لنفسه وهو في غاية الدهشة مِن حاله ذاك، ثم تناول هاتف مكتبه، وقام باستدعاء سكرتيرته الخاصة. ناولها تلك الورقة التي كان قد أعطاها إياه «سعيد المُقدِّم» ليلة أمس، وقال لها:

- اتصلي بهذا الرقم، وحددي له موعدًا لمُقابلتي هنا بعد انتهاء ساعات العمل الرسمية، وليكن ذلك في أسرع وقت، ويُفَضَّل أن يكون اليوم أو غدًا.

انشغل «مدحت» بعدها بشدة في مراجعة بعض التقارير الورقية عن بعض الموضوعات التي سيكتب عنها مُستقبلًا لصفحته الأسبوعية، ومنعه استغراقه ذلك مُلاحظة أن موعد الانصراف من العمل قد مرَّ عليه أكثر مِن نصف ساعة، لم ينتبه لذلك إلا عندما جاءه ساعي المكتب، وهو يُقدِّم إليه كوبًا مِن الشاي، وقال:

- هناك مَن يطلب مُقابلتكَ يا سيدي.

فقال له «مدحت»:

- ربما كان ذلك هو الوكيل الأدبي، دعه يتفضَّل بالدخول.

أومأ الساعي برأسه، ثم توجه نحو الباب، وأشار بيده مُرحِّبًا بالضيف، لكنه لم يكن رجلًا، لقد كان الضيف امرأة! لكنها لم تكن امرأة عاديَّة فحسب، فقد كانت تبدو وكأنها فتاة أوروبية تمامًا، ربما في أوائل الثلاثين مِن عُمرها، فاتنة ذات قوم ممشوق، وجسد نحيف ذي استدارة جميلة، وبشرة بيضاء للغاية، وشعر ذهبي يميل إلى لون الثلج! كانت ترتدي ملابس سوداء تغطى أكمامها ذراعيها، لكنها تكشف عن أعلى صدرها، وكذلك عن ساقيها حتى رُكبتيها أو أكثر.

اندهش «مدحت» بشدة، وقال لها دون أن يدعوها للجلوس:

- ما الأمر؟ كيف يُمكنني مُساعدتكِ؟

فقالت:

- لقد جئتُ بناءً على طلبكَ، لقد اتصلتْ بي السكرتيرة الخاصة بكَ صباح اليوم.

فقال «مدحت» لها:

- عُذرًا، هل أخبرتكِ السكرتيرة عن سبب اتصالها بكِ؟ يبدو أن هناك أمرًا ما غائِبًا عني.

فقالت:

- لا، لم تذكُر لي السكرتيرة أيَّة تفاصيل، قالت فقط إنكَ تُريد حضوري لمُقابلتك.

بدا على ملامح «مدحت» المزيد مِن الدهشة، فسألها:

- خبِّريني إذًا ماذا تعملين؟

فقالت:

- أعمل في وظيفة إدارة أعمال المؤلفين والروائيين، وأقود فريقًا مُتَخصِّصًا في إعداد البرامِج المرئيَّة والدراسات الأدبيَّة.

حينها صاح «مدحت» قائلًا:

- غير معقول، هل أنتِ الوكيل الأدبي الذي أوصاني به الأستاذ «سعيد المُقدِّم»؟ لم يقل لي إنكِ امرأة على الإطلاق!

اتسعتْ ابتسامتها بشدة وقالت:

- الأستاذ «سعيد» دائمًا يثق بي، وترشيحه لي يُعَدُّ شهادة نجاح أفتخر بها.

ثم مدَّتْ يدها نحوه بجرأة لتُصافحه وقالت:

- «سيرين»، اسمي «سيرين».

تردد «مدحت» للحظة؛ بسبب المُفاجأة، ثم مدَّ يده ليُصافحها وقال:

- أهلًا بكِ، تفضلي بالجلوس (ثم أشار بيده نحو الساعي وقال لها) لدينا العديد مِن المشروبات الرائعة هنا، ماذا تطلبين؟

قالت وهي تنظر نحو الساعي:

- كوب من الماء، فقط أريد بعضًا من الماء.

أومأ الساعي برأسه، ثم خرج وأغلق الباب، فقال لها «مدحت»:

- يا لها مِن مُفاجأة لم أكن أتوقعها أبدًا.

فقالت:

- وما المُفاجأة في ذلك؟ هل تُمانع أن أكون فتاة؟

فقال:

- كلا، ليس الأمر كذلك، المُفاجأة ليست بسببكِ أنتِ شخصيًّا، لقد كان الأُستاذ «سعيد» يتحدَّث عنكِ على أساس أنكِ رجل، ولم يذكُر لي أنكِ فتاة، وهذا هو سبب المُفاجأة ليس إلاَّ.

قالت:

- وربما ظنَّ أنكَ سترفُض التعامل معي إذا عرفتَ أنني فتاة.

قال لها:

- لا أظُن ذلك، فأنا مِن الأساس مُتردد للغاية، ولديَّ حساسية مُفرطة تجاه دور الوكيل الأدبي فيما يخص الإبداع والكتابة.

فضحكتْ وقالت:

- وهذا ما يؤكد لي أن الأستاذ «سعيد» قد تعمَّد إخفاء هويتي.

ابتسم «مدحت» ابتسامة خفيفة، فحضور هذه الفاتنة أمر لم يكن مُتوقعًا، لكنه بدا وأنه قد يُحرك المياه الساكنة الراكدة في حياته منذ زمن طويل لم يحدث فيه أي تغيير، أعاد ظهره إلى الوراء وقال لها:

- قُلتِ لي إن اسمكِ «سيرين»، وكما يبدو أن لهجتكِ المصرية ليستْ أصلية، هل أنت غير مصرية أم إن أحد والديكِ أجنبي أم ماذا؟

ابتسمتْ «سيرين» وهي تقوم بإعادة خُصلات شعرها الطويل خلف أُذنيها وقالت:

- إنني أحمل جنسيتين مُختلفتين في نفس الوقت، فأنا أمريكيَّة لبنانيَّة، لكن كلا والديَّ ذوا أصول لبنانيَّة في الأساس، وأنا ابنتهما الوحيدة. نحن نتنقَّل بين البلدين باستمرار، فالوالد يمتلك دارًا للنشر، ويعتمد في عمله بالأساس على الأعمال المُترجمة بين اللُّغات المُختلفة.

فقال «مدحت»:

- يا له مِن مجال عظيم وخصب، وهل تعملين معهم في تلك الدار؟

فقالت «سيرين»:

- أمَّا أنا فلي دور آخر مُهِم لم يكن موجودًا لديهم في السابق، لقد درستُ علوم إدارة الأعمال في أمريكا، وأقوم منذ سنوات بتطوير أعمال دار النشر وفق القواعد الاقتصادية الحديثة، كما أني أقوم بإدارة أعمال العديد مِن المؤلفين -وأكثرهم مِن الأجانب بالطبع- لأنهم يؤمنون بالتخصص وأهمية تطوير الأعمال أكثر مِن نُظرائهم مِن العرب.

قال لها:

- إن كل ما تقولينه غريب وعجيب، ربما أتوق لتعلُّم تفاصيل كل ذلك منكِ فيما بعدُ، ولكن خبِّريني الآن كيف يُمكنكِ مُساعدتي؟

فقالت:

- أنا التي أُريد أن أسألكَ ما هي حقيقة المشاكل التي تواجهكَ، حينها فقط أستطيع أن أضع الخطط والحلول.

استنشق «مدحت» الهواء بعُمق، وأخذ يُفكر لثوانٍ، فباغتته بقولها:

- لا تُفكر كثيرًا، صارحني بحقيقة مشاكلك دون خجل، إن تفكيركَ هذا يعني لي أنكَ تُحاول أن تنتقي بعض المشاكل؛ لعرضها عليَّ، ثم تُخفي عني البعض الآخر، لن يُساعد ذلك في حل المشاكل مِن جذورها.

فقال لها بمُنتهى الدهشة:

- وكيف عرفتِ أنني أفعل ذلك؟ ما الذي يجعلكِ تظُنين أني أنتقي ما أُريد أن أقوله؟

ابتسمتْ وقالت:

- هذا أمر طبيعي يا سيدي، فأنتَ لا تعرفني إلا مُنذ دقائق، بالإضافة إلى أنكَ لم تكن تظن أنني فتاة، فلا عجب إذًا أنكَ ستكون مُتحفظًا للغاية، لكنني لا أُريد أن نقوم بتضييع الوقت في مراحل طويلة مِن التعارف والألفة والاطمئنان لبعضنا البعض، لا تخجل مني وصارحني بكل ما تُعانيه كأديب، وساعدني كي نختصر الوقت.

زادتْ دهشته مِن فرط جرأتها وحماسها، فبادلها نفس الجرأة وقال:

- حسنًا، أُريد أن أكتُب رواية جديدة في أسرع وقت ممكن، ذلك لكي أنجو أولًا مِن الشروط الجزائية التي ينُصُّ عليها عقدي الاحتكاري مع دار النشر، وهذا أمر بسيط لا يُخيفني كثيرًا، ولكن الأهم لديَّ هو أنني بحاجة سريعة إلى أن أكون موجودًا على الساحة، ولا أريد أن ينساني القُرَّاء، فقد طالت غيبتي عن الوسط الروائي طويلًا.

ابتسمتْ «سيرين» وقالت:

- أهذا كل ما في الأمر؟ إنها مُشكلات بسيطة يا عزيزي.

قال لها مُستهترًا:

- حقًّا؟ وكيف تكون الحلول مِن وجهة نظركِ؟

فابتسمتْ بثقة وقالت له:

- ما هي الأولوية الأولى بالنسبة لَكَ؟ هل هي كتابة الرواية أم سُرعة التواجُد على الساحة الأدبية بين القُراء؟

زادتْ دهشته أكثر وقال:

- بدون الرواية لن يكون التواجُد، لا بد أن أقوم بكتابة الرواية أولًا، وبعدها سيتحقق التواجُد.

فقالت:

- على العكس، يُمكن للتواجُد أن يأتيكَ أولًا، ثم يُمكنكَ أن تُتابع كتابة الرواية بعد ذلك.

هنا اتسع فمه مِن فرط الدهشة تمامًا، وكان كمَن أُصيب بفُقدان القُدرة على النُطق، فأشفقتْ «سيرين» عليه وقالت وهي تضحك:

- حسنًا سأشرح لكَ كيف يكون ذلك، ولكن في البداية لا بد أن تعرف أنني سأتقاضى أتعابًا مالية تُقدَّر بنسبة عشرة في المائة نظير إدارتي لتلك الأعمال.

لم ينطق بكلمة واحدة، وأومأ برأسه مُوافقًا، فقالت:

- عظيم، اتفقنا، سأقوم بإعداد عقد رسمي بيننا ستكون به كل التفاصيل، وسآتيكَ به غدًا لنقوم بالتوقيع عليه سَوِيًّا.

قال لها:

- موافق.

قالت:

- الآن سأعرض عليكَ خطة العمل، قُلتُ لَكَ إنه يُمكنكَ أن تُحقق انتشارًا سريعًا على الساحة الأدبية قبل أن تكون هناك رواية جديدة، لا تنسَ أبدًا أن لديكَ رصيدًا جيدًا مِن الأعمال التي يُمكننا أن نستكمل البناء عليها، إنَّكَ لن تبدأ مِن مرحلة الصفر، بل إن لديكَ سابقًا روايات ناجحة ومعروفة بالفعل، ومِن المؤكد أنَ لديكَ العديد مِن المُحاولات الأخرى غيرها، ربما قد تكون غير مُكتملة، لكن ذلك لا يهم، فأنا أُريد مِنكَ أن تُعِدَّ لي ملفًا بِه أجمل المُقتطفات والمُقتبسات والخواطر التي لديك.

ارتشفتْ «سيرين» بعضًا مِن المياه التي أتى بها الساعي، بينما ظلَّ «مدحت» صامتًا ينتظر أن تشرح له أكثر، فتابعتْ حديثها وقالت:

- تُوجد حاجة ماسَّة للحصول على المُقتبسات الأدبية القصيرة والمُركزة، يحتاج إليها العديد مِن المواقع الإلكترونية وصفحات مواقع التواصل الاجتماعي المُختلفة، وكذلك بعض المطبوعات كالبطاقات البريدية وكروت الهدايا والتهنئة، يُمكننا أن نقوم ببيع تلك المُقتبسات الجميلة إلى كل هؤلاء؛ نظير مبالغ مالية معقولة تزداد قيمتها كلما زاد تفاعل الجمهور معها، حاول أن تنتقي مِن بين جميع كتاباتكَ خليطًا يضم كل أنواع تلك المُقتبسات، قد تكون فقرات حالمة ورقيقة، وقد تكون

على شكل نصائح، أو حتى فقرات تحمل بداخلها الحكمة، كل ذلك مطلوب، ولكل مِنها استخداماته.

كان حديثها بالنسبة له ضربًا مِن ضروب الخيال، كانت وكأنها قد أتتْ إليه مِن كوكب آخر لا يعرف مكانه ولا طبيعة تكوينه، إن ما تتحدَّث عنه «سيرين» يتخطى جميع الآفاق التي قد يصل إليها تفكيره بمسافات شاسعة!

كانت قد أنهتْ طرح فكرتها، وأخذتْ تنظُر في وجهه مُنتظرة ردود فعله، كانت هادئة للغاية، وكأنها لم تفعل شيئًا، بينما كان «مدحت» يشعر وكأن العديد مِن المُتصارعين والمُتسابقين يجولون داخل رأسه، فقال لها بتلعثُم واضح:

- لا أدري ماذا أقول لكِ، إن كان ما تقولينه صحيح وقابل للتطبيق بحق، فإنني سأعترف حينها أنني ما زلت أعيش في العصر الحجري!

فقالت في ثقة:

- إذًا فلتُجرِّب معي كل ذلك لكي أثبتَ لَكَ عمليًّا صحة كلامي، وسيكون ذلك بشكل ملموس، ستتأكَّد بنفسك مِن نجاح تلك الخطة عندما تتسلَّم الأموال يومًا بعد يوم، هل تحتاج لإثبات عملي أكثر مِن ذلك؟

فقال لها:

- بالطبع لا، أنا تعنيني الأموال الآن مِن الأساس، لكنني بحق مبهور بأفكاركِ تلك.

فقالت:

- حسنًا، أسرِع أنتَ فقط في إعداد ملف يحتوي على أجمل الفقرات والمُقتبسات، ابحث عنها في كل ما كتبته عبر السنوات السابقة، ودع باقي الأمور عليَّ أنا.

فقال:

- لن يستغرق ذلك وقتًا طويلًا، سيكون الملف جاهزًا في الغد، فليكن موعدنا غدًا في نفس التوقيت هنا.

فقالت:

- اتفقنا، هكذا نكون قد انتهينا مِن النُقطة الأولى، لنتحدَّث الآن عن النقطة الثانية.

فقال:

- عن أي نُقطة أُخرى تتحدثين؟

فقالت وهي تصيح:

- ماذا؟ النُقطة الثانية هي الرواية الجديدة، كيف نسيتَها؟

ضحك «مدحت» بشدة وقال لها:

- لقد أنسيتِني موضوع الرواية الجديدة بالفعل، لقد شغلتني فكرة أنني قد أُحقق انتشارًا سريعًا عن كل شيء، يا للهول! حسنًا، دعيني أقوم بتحضير هذا الملف بين اليوم والغد، ولنتباحث في موضوع الرواية عندما نلتقي غدًا.

فقالتْ وهي تهمُّ بالنهوض استعدادًا للرحيل، ثم جلستْ فجأة مُجددًا وقالت:

- كلا، لديَّ فضول شديد لمعرفة مُشكلتكَ الأهم الآن، لن أستطيع أن أنتظر إلى الغد.

فابتسم «مدحت» مُستسلمًا وقال:

- حسنًا، كانت الكتابة هي هوايتي الأثيرة، كان ذلك مُنذ أن كنتُ صغيرًا، وربما كان خجلي وهدوء شخصيتي هما الدافع الحقيقي لكي أتخذَ من الكتابة طريقة للتعبير عما بداخلي، وخصوصًا أنني دائمًا ما يكون في حياتي حبيبة ما، أو هكذا يُخَيَّل إليَّ، ربما يكون حبًّا مِن طرف واحد، طرفي أنا، وربما لا تكون هناك أية حبيبة على الإطلاق، فقد كنتُ أحيانًا أختلقُ في خيالي حبيبة افتراضية، فأبثُّ إليها أشواقي ورسائلي وأشعاري، وهو ما جعل كل كتاباتي عبر كل السنوات أكتبها لفتاة «يتغيَّر شكلها وعُمرها على الدوام، لكنني لا أُغيِّر مِن اسمها أبدًا: «شهيرة».

كانت «شهيرة» -وما زالتْ- هي بطلة قصائدي ورواياتي وحتى مقالاتي، مهما كان اسمها الحقيقي، فقد كُنَّ كلهن «شهيرة»، إلى أن استمرَّت المُعجزة، وتزوَّجتها بالفعل، تزوَّجتُ «شهيرة»، نعم، لقد كان اسم زوجتي الحقيقي هو: «شهيرة»!

لم يكن اسمها هو الدافع الحقيقي لكي أتزوَّج منها بالطبع، أنا لستُ بهذه السذاجة الطفولية بكل تأكيد، لكن «شهيرة» كانت تحمل بالفعل كل ما اجتمع مِن صفات جميلة كانت قد جذبتني لكل مَن كانوا «شهيرة» قبلها، حتى «شهيرة» الافتراضية أيضًا!

كانت «شهيرة» -وما زالت- هي مُلهمتي الفاتنة على الدوام، حتى بعد أن طالتْ سنوات العِشرة فيما بيننا، وكان أجمل ما كتبته فيها وعنها وحولها، هي تلك الرواية الساحرة التي أنهيتها مُنذ «عشرة أعوام، وسميتُ الرواية حينها: «شهيرة»!

تلقفتْ تلك الرواية إحدى دور النشر، وتفاجأوا بها بشدة، كان ذلك العمل مُعجزة بالنسبة لكاتب هاوٍ مثلي لم يسبق له النشر، ولكن زال العجب عندما قاموا بالاطلاع على العديد مِن كتاباتي السابقة، تلك المؤلفات التي كنتُ أكتبها لنفسي، ولا أقوم بنشرها أبدًا.

وهكذا حدث تعاقدي مع دار النشر، كنتُ في قمة الفرح والسرور؛ لأن كتاباتي سوف تخرج أخيرًا مِن صدري وأوراقي إلى النور، وكنتُ بالفعل أُريد أن أحكي للعالم عن حبي لشهيرة، لقد كان ذلك التعاقد حلمًا رقيقًا لا يُصدَّق.

لكن دار النشر أصرَّتْ أن يكون تعاقدها معي في صورة عقد احتكار، لقد كانوا يخشون ألا أستكمل معهم إصدار رواياتي التالية، وكانوا يتوقعون نجاحًا باهرًا لرواية «شهيرة» وهو ما حدث بالفعل، فاشترطوا عليَّ في تعاقدهم معي أن يكون نشر أعمالي الأدبية مِن خلالهم هم فقط، وأن أقوم بنشر رواية كل عامين، ووضعوا شرطًا جزائيًّا ماليًّا كبيرًا يتم تطبيقه عليَّ في حالة أن أخلَلْتُ بأحد تلك الشروط، وهو ما لم أكترث له حينها، فقد كنتُ مُتأكدًا مِن أن تلك الشروط في صالحي أنا، وكنتُ سعيدًا بأن دار النشر مُلزَمَة بنشر رواية جديدة لي كل عامين. لا يعنيني كثيرًا الآن ذلك الشرط الجزائي المالي، فأنا يُمكنني تحمُّله الآن دون عناء، لكنني لم أكن أتخيَّل أبدًا أنني قد أعيش ذلك اليوم الذي لن أتمكن فيه مِن كتابة رواية كل عامين!

فقالت «سيرين» بلهجة أمريكية واضحة:

- writer's block.

فقال لها:

- ماذا؟

فقالت «سيرين» موضحة:

- هذا هو التعريف العلمي لما تُعانيه مِن عدم المقدرة على الكتابة، إنها مُشكلة شهيرة وتتكرر بين العديد مِن الكُتَّاب حول العالم، لكن لا تقلق، فإن لديَّ الحلول التي ستُخرجكَ مِن هذه المُشكلة سريعًا.

فقال لها:

- حقًا؟

فابتسمتْ «سيرين» وقالت:

- أجل، المهم هل ستتبع نصائحي؟

فقال مُستسلمًا لها:

- فلنُجرب (وضحكا سويًّا حينها).

(٨)

الجَنَّة

الليلُ يا ليلى يُعاتِبُني

ويقولُ لي سَلِّمْ على ليلى

الحُب لا تحلو نَسَائِمُهُ

إلَّا إذا غَنَّى الهَوَى ليلى!

مُصطَفى محمود القعقور(11)

كان «مدحت» قد بدأ يتعافى أخيرًا مِن صدمة الاجتماع الأوَّل الذي جمعه مع «سيرين» بمكتبه في التجمُّع الخامِس، كم احتاج مِن الوقت لكي يحدث ذلك التعافي يا تُرى؟ رُبما أربعة اجتماعات مُتتالية أو أكثر، فقد كان كالظمآن الذي تاه في الصحراء أيامًا طويلة، ثم وجد فجأة بئرًا مِن الماء العذب، فأخذ يشرب منه بنهم، أو كالجاهل حينما يجد العلم أخيرًا فينهل منه بشغف، ولذلك كانت اجتماعاته مع «سيرين» شبه يومية.

فبالرغم مِن رفضه التام لفكرة استقدام وكيل أدبي قبل ذلك، إلا أنه تفاجأ بأن هناك عالمًا آخر كان يجهله بشدة، وهو ما ذكَّره تمامًا بنفس القصة التي حدثتْ لشركة «نوكيا» لتصنيع الهواتف المحمولة، تلك القصة الشهيرة التي لا يَمَلُّ مِن ذكرها كلما صَدَمته الحياة بتغييرات حياتية كبيرة كان يجهل تفاصيلها، أو كلما حدث انتقال لافِت مِن عصر ما إلى عصر آخر جديد ومُختلف تمامًا!

كانت شركة «نوكيا» إلى عهد ليس بالبعيد هي الشركة الأكبر على مُستوى العالم في تصميم وإنتاج الهواتف المحمولة، وكانت تُعتبر قاطرة الاقتصاد لدولة فنلندا الصغيرة، والتي تقع في أقصى شمال غرب أوروبا. كانت شركة «نوكيا» قد تربَّعتْ على عرش مبيعات الهواتف المحمولة تمامًا على مُستوى العالم أجمع حتى العام ٢٠١٢. ثم ماذا حدث؟ إنها تلك القصة الشهيرة لذلك الرجل الأمريكي الراحل «ستيف جوبز» رئيس شركة «أَبِل» الذي اخترع فجأة نظامًا إلكترونيًّا مُخالفًا لكل ما كان موجودًا في الهواتف المحمولة في العالم كله، وابتكر نوعًا جديدًا مِن الهواتف المحمولة وأجهزة الحاسب اللوحية التي تعمل بطريقة اللمس على شاشاتها، وألغى تمامًا طريقة استخدام الأزرار والمفاتيح القديمة، والتي كانت سائدة في العالم كله عبر عقود عديدة. حينها تغيَّرتْ النُظُم الإلكترونية كلها، وسار العالم أجمع على ذلك النهج الحديث، وتخلَّص الجميع مِن هواتفهم القديمة التي أصبحتْ فجأة تِقنية قديمة لا يحتاجها أحد.

استيقظتْ شركة «نوكيا» ذات صباح لتجد أن حجم مبيعاتها -والذي كان الأعلى على مُستوى العالم- قد انخفض فجأة إلى الصفر، وصارت «نوكيا» خارج نطاق التاريخ، بعد أن كانت مِلء السمع والبصر والآفاق! كان ذلك في بدايات العقد الحالي، أي منذ زمن قريب للغاية!

وها هو «مدحت» يشعُر وكأنه مثل شركة «نوكيا» تمامًا، فقد استيقظَ هو أيضًا ذات يوم ليجد أن هناك وظيفة جديدة تُسَمَّى «الوكيل الأدبي»، وتُماثل تمامًا وظيفة وكيل اللاعبين الرياضيين، ووجد أن تسويق المُنتجات عبر صفحات الإنترنت قد صار أكثر انتشارًا وجاذبية عن أساليب التسويق العادي في المتاجر والأسواق، وأصبح التواجد مِن خلال جميع مواقع التواصل الاجتماعي المُختلفة هو الأكثر تأثيرًا، وأن الإعلانات قد صارتْ هي المُحرِّك الرئيسي لكل شيء.

ابتسم وهو يتذكَّر أنه قرأ ذات مَرَّة عن أحدهم عندما سأل رئيس تحرير صحيفة كبيرة، وقال له:

- متى سيأتي اليوم الذي لا نحتاج فيه إلى وجود إعلانات في جريدتنا؟

فأجابه رئيس التحرير:

- يحدُث ذلك عندما تجد أن السيَّارات قد أصبحتْ تسير دون وقود! وهو يعني هنا أننا قد أصبحنا نعيش عصرًا جديدًا صارتْ فيه الإعلانات هي المموِّل الرئيسي للعديد مِن الأنشطة في هذا العالم.

في اجتماعهما الأخير، قالت له «سيرين» بحماستها المعهودة: هكذا نكون قد انتهينا مِن جميع التعاقُدات الخاصة بالإعلانات، وكذلك كل تضبيطات جميع مواقع التواصل الاجتماعي، لقد أضعنا الكثير مِن الوقت في كل ذلك، هلَّا أخبرتني عن الرواية الجديدة الآن؟ إنها المرحلة الأهم وهي الأصعب والأكثر استهلاكًا للوقت.

لكن «مدحت» تنصَّل مُجددًا مِن الحديث عن الكتابة، وقال لها بحماس مُماثل:

- دعيني أُخبركِ أولًا عمَّا لاحظته مِن تعليقات القُراء على تلك المنشورات التي قمتِ بإضافتها أمس.

قال كلامًا ساذجًا يليق بالمُبتدئين عن مواقع التواصُل الاجتماعي، ثم أخذ يتحدَّث عن أمور أُخرى تتعلَّق بمُشاهداته التكنولوجية التي التقاها عبر أسفاره بالخارج.. فأدركتْ «سيرين» أنه ما زال يحاول الهروب مِن الكتابة، فقاطعته وقالت له بثبات:

- أتدري ما الذي يجب أن تفعله الآن؟ إنكَ تحتاج إلى الخروج مِن تلك الأماكن التي تحبس نفسكَ فيها سواء هنا أو بالمنزل، لا بُد مِن أن تقوم بتغيير الأجواء المُحيطة بكَ، فأنا أعتقد أن تلكَ الأماكن التي اعتدتَ في السابق أن تكتبَ وأنتَ فيها، قد صارت تحمل لكَ طاقات سلبيَّة، وربما تُسبِّب لكَ

الرتابة، وتمنعكَ مِن إنتاج أفكار جديدة، لا بُد أن تُجدد هواء حياتكَ، لا بُد مِن أن تُنعش أفكاركَ عن طريق تغيير نمط الحياة الثابت الذي تنتهجه منذ سنوات.

* * *

على الرغم مِن العقلية المُتفتحة لـ«سيرين» إلا أنها تفهمتْ تمامًا القيود المفروضة على شخصيَّة معروفة ومشهورة مثل «مدحت الشاعر»؛ ذلك لأنها تحمل الجينات العربية الشرقية، رغم أنها أمريكية الجنسية، وتُسافر كثيرًا حول العالم. حدث ذلك عندما رفض «مدحت» بأدب أن يستجيب لدعوات «سيرين» المُتكررة للخروج معًا إلى أماكن طبيعية أو مزارات سياحية؛ لتُعينه على تغيير ذلك الشعور السلبي لديه، ولإخراجه مِن حالة المَلل والركود التي يشعُر بها، لكنه عوضًا عن ذلك اقترح عليها أمرًا آخر، سألها لم لا تُسافر معه وتُجاوره في القرية السياحيَّة التي يمتلك فيها شاليهًا جميلًا في منطقة العين السُخنة؟ إن تلك القرية السياحيَّة لا يسكنها سوى عدد محدود مِن أفراد صفوة المُجتمع، كما أنهم لا يجتمعون هناك معًا في وقت واحد أبدًا، ونادرًا ما يكون هناك عيون مُتلصصة قد تتطفَّل عليهما. قال لها: إنه يُمكنه أن يستأجر مِن أجلها الشاليه المجاور للشاليه الذي يملكه هناك عن طريق الاتصال بإدارة القرية السياحية، فاستحسنتْ «سيرين» حينها الفكرة، ووافقتْ على الفور، لم تكن «سيرين» تعرف شيئًا قبل ذلك عن تلك المنطقة أبدًا.

كان «مدحت» لا يزال مُمتنعًا عن الحديث مع زوجته «شهيرة» منذ أسبوع تقريبًا، لذلك قام بإعداد حقيبة سفره بمُفرده، ثم تركَ لـ«شهيرة» ورقة صغيرة مكتوب فيها باقتضاب إنه سيُسافر لمُدة أسبوع في مهمة عمل، دون أن يذكر لها أيَّة تفاصيل أكثر مِن ذلك!

* * *

كانت الشمس قد بدأتْ تنكسر حدَّتها وقت العصر حينما قام «مدحت» بالتوجه مِن مكان مكتبه بالتجمُّع الخامِس نحو العين السُخنة، بينما كانت «سيرين» تتبعه بسيَّارتها الخاصة أيضًا. وعند وصولهما إلى هناك، طلب مِنها أن تنتظره قليلًا ريثما يتوجَّه نحو مكتب إدارة القرية السياحية ليُحضر لها مفتاح الشاليه الخاص بها، لكن أحد الموظفين كان قد شاهد سيَّارة «مدحت» الفارهة، فخرج مِن مكتبه بسُرعة مُرحِّبًا بالأديب الكبير، وطلب مِنه ألا يُرهق نفسه بالصعود إلى المكتب، وذهب هو بنفسه لإحضار المفتاح له.

شكر «مدحت» الرجل بشدة، ثم ناول المفتاح لـ«سيرين» وقال لها:

- ما هي خطتكِ لهذا اليوم؟ هل لديكِ أيَّة أنشطة؟

فابتسمتْ «سيرين» وقالت:

- أنا في قمة النشاط والحماس لاكتشاف المكان.

:«فقال «مدحت

ألستِ مُرهقة بسبب السفر وقيادة السيَّارة؟ -

:فضحكتْ «سيرين» وقالت

إننا لم نستغرق سوى ساعتين أو أقل، هل تعتبر هذا سفرًا؟ سأحكي لكَ لاحقًا عن رحلاتي - بالسيَّارة في أمريكا بين الولايات المُختلفة، لقد قمتُ بقيادة سيَّارتي ذات يوم لمُدة سبعة عشر ساعة .دون نوم، زرتُ فيها العديد مِن المحميات الطبيعية والغابات في خمس ولايات مُختلفة

:لمَعَتْ عينا «مدحت» مِن الدهشة والإعجاب، وقال لها

أجل، أريد أن أستمع إلى قصصكِ ومُغامراتكِ تلك. والآن، هل أفهم مِن كلامكِ أنكِ مُستعدة للتنزُّه - الآن، ولن تحتاجي إلى الراحة؟

:فقالت بحماس

!أجل، هيَّا نبدأ نُزهتنا، هذا إلا إذا كنتَ أنتَ الذي أصابكَ الإرهاق، وتحتاج إلى قسطٍ مِن الراحة -

فقال لها: بالعكس، أنا في أحسن حال الآن، تعالي معي نجلس في الشُّرفة الرئيسية المُواجهة للبحر؛ لكي نحتسي بعضًا مِن القهوة، إنني ماهر جدًّا في إعداد القهوة الإيطالية التي أعشق مذاقها، .وستحكمين على ذلك بنفسكِ

سارتْ «سيرين» معه بهدوء، ثم دعاها للجلوس في شُرفة الشاليه الخاص به، بينما دخل هو .ليُحضر ماكينة إعداد القهوة

كانت الأجواء ساحرة تمامًا، فلم تكن تظن «سيرين» أن لهذا الجمال الطبيعي وجودًا بمصر على الإطلاق! كثيرًا ما سمعتْ مِن العديد مِن معارفها عن جمال شواطئ البحر الأحمر وعُذريتها، وسمعتْ أيضًا عن أماكن سياحيَّة مشهورة كالغردقة والجونة وشرم الشيخ ودهب وغيرها، وها هي .الآن تُمتع عينيها وتنظر إلى شاطئ مِن شواطئ البحر الأحمر لأول مرة في حياتها

كانت القرية السياحيَّة هادئة تمامًا، وكانت الأشجار والنباتات الخضراء تملأ المكان، فأصبح المشهد وكأنه يمثل لوحة جمالية ساحرة تجمع بين لون البحر الأزرق، ولون الرمال الأصفر المائل للأبيض، ولون الشجر الأخضر، والعديد مِن النباتات والزهور الملونة كالأحمر والأزرق والبرتقالي، يا له مِن مكان بديع! قطع تأمُلاتها تلك أن اقتربَ «مدحت» منها وهو يُمسك بصينيَّة صغيرة يحمل عليها كوبي القهوة وإناء حبَّات السُكَّر، ثم وضعها على سطح المنضدة أمامها :وناولها الكوب المُخصص لها، وقال

- تفضلي وقولي لي ما رأيكِ.

ارتشفتْ «سيرين» رَشْفَةً صغيرة برِقَّة واضحة، ثم رفعتْ عينيها نحو «مدحت»، فوجدته يُدقِّق النظر في شفتيها الرقيقتين، استدركَ «مدحت» ذلك، وأزاح بصره عنها في خجل وقال:

- كيف وجدتِ طعمها؟ هل تحتاجين إلى إضافة بعض مِن السُّكَّر؟

ابتسمتْ «سيرين» وقامت بارتشاف رَشْفَة أُخرى وقالت:

- بدون مُجاملات.. إنها أطيَب مذاق للقهوة مرَّتْ عليَّ في حياتي على الإطلاق! ما السر في هذا الطعم الجميل؟

فقال «مدحت» وهو يتناول الكوب الخاص به، ويعتدل في جلسته بظهره إلى الوراء:

- يعتمد مذاق القهوة على عوامل عديدة، أولها نوع حبَّات البُنِّ، فهناك ما يتم جلبه مِن دول شرق آسيا، وهناك ما يتم زراعته في أواسط إفريقيا، وهناك ما نجده في أمريكا اللاتينية فقط، وهناك العديد مِن الأنواع التي يتم فيها الخلط بين نوعين أو أكثر مِن تلك الأصناف، فيُعطي كل خليط مذاقًا مُختلفًا.

لمعتْ عينا «سيرين» وهي ترتشف رَشْفَةً أخرى، فاستكمل «مدحت» حديثه وقال:

- وهناك عامل آخر، وهو درجة تحميص حبَّات البُنِّ، فهناك العشرات مِن درجات التحميص المُختلفة، ولكل مِنها أيضًا طعم مُختلف.

فقالت «سيرين» وقد أمسكتْ كوبها بكلتا يديها معًا:

- يبدو أنكَ باحث كبير في شئون القهوة وأنواعها، لم أكُن أعرف هذه المعلومة عنكَ! أتدري، ربما نستخدم هذه المعلومة الجديدة يومًا ما للترويج عنكَ بصورة طريفة كنشاط إضافي لما هو معلوم عنكَ للعامة كأديب وروائي فقط.

فابتسم «مدحت» وقال لها:

- دعيني إذًا أحكى لكِ حكاية القهوة، حدث منذ قرون أن اكتشف الإنسان مشروب القهوة، أدرك أحدهم ذات يوم -بالصُدفة البحتة- أن للقهوة تأثيرًا عجيبًا على الجسد حينما التهمتْ بعض الغنمات الصغيرة حبَّات مِن البُنِّ، فصارتْ أكثر نشاطًا وحيويَّة، فأدرك بعدها أن حبيبات البن قد تعمل على تنبيه الإنسان ويقظته واستعادته لنشاطه، ومع تقدُّم العلم عرفنا أنها تحتوي على مادة مُنبِّهة هي مادة الكافيين.

صار أغلب البشر بعد ذلك يعشقون القهوة، وتعددت أنواعها وأشكالها وصفاتها، واستُحدِثَتْ لها العديد مِن أشكال المقاهي المُختلفة التي أصبحتْ مُلتقى كل أطياف البشر، وأصبحتْ إدمانًا مُشتركًا بين كل الناس. ولعلمكِ الخاص، البُنُّ هو أكثر السلع تداولًا في العالم بعد النفط!

لا يخفى عليكِ أن القهوة صارت أيضًا أيقونة للفن والمشاعر، صرنا نتغزل فيها وفي رائحتها، وجعلناها عُنصرًا أساسيًّا مُصاحبًا لقراءة رواية، أو سماع أُغنية، ولا يبدأ يومنا إلا بها، ولا غنى عنها خلال اليوم نفسه أيضًا. إلى أن جاء هذا العصر الجديد الذي نعيشُه الآن، والذي سينخفض فيه الإقبال تدريجيًّا على القهوة، وشيئًا فشيئًا ستوشك المقاهي على الإفلاس، لماذا سيمتنع الناس عن شرب القهوة؟ لأننا جميعًا صرنا لا ننام! يعصف بِنا الأرق بلا هوادة، جربي بنفسكِ: في أي وقت أثناء الليل إذا تصفحتِ أي وسيلة من وسائل التواصُل الاجتماعي ستجدين العديد مِن الناس مُتيقظين، وحتى إذا نمتِ ساعة أو اثنتين تستيقظين بعدها ولا تنامين بسهولة مُجددًا أبدًا! كل ذلك بسبب تراكُم الهموم، فالهمُّ هو أشد خلق الله فتكًا بالإنسان بلا مُنازع. صرنا لا نحتاج إلى مُنبهات أو قهوة، بل نحتاج إلى مُهدئات ومُنومات.

فابتسمتْ «سيرين» وقالت:

- يا لها مِن فلسفة فريدة، لم تطرأ تلك الفكرة على ذهني أبدًا قبل ذلك.

انتهى كلاهما مِن احتساء القهوة، فقال لها:

- أُتريدين كوبًا آخر مِن القهوة؟

فقالت له:

- كلا أشكرك، هذا يكفي.

فقال لها وهو ينظر نحو الأفُق:

- ربما تغرب الشمس بعد نصف ساعة أو أكثر قليلًا، ما رأيكِ في تجربة السباحة في البحر الآن؟ لقد انصرفت الشمس الحارقة، ولا بُد أن المياه قد صارت دافئة ومُنعشة الآن.

اتسعتْ حدقة عيني «سيرين» بشدة، وبدا على وجهها سعادة طفولية وقالت:

- حقًّا؟ يا لها مِن تجربة فريدة ومُشوِّقة.

فقال «مدحت»:

إن حمَّام السباحة مُضاء ليلًا بالأضواء الكاشفة، ومُتاح لنا أن نستمتع به حتى مُنتصف الليل، لكن - البحر سيُظلم بعد ساعة، لذا هيَّا بنا لنلحق بالبحر في أجمل أوقاته.

نهض «مدحت» مِن مكانه، وأعطاها مفتاح الشاليه الخاص بها، وقال:

سأقوم بتغيير ملابسي في خلال خمس دقائق فقط، وسأنتظركِ هنا ريثما ترتدين ملابس السباحة، - ولكن لا تتأخري كثيرًا.

فقالت «سيرين» وهي تنتزع المفتاح مِن يده بسُرعة، وكأنها تقوم بسرقته مِنه:

وأنا أيضًا لن أحتاج إلى أكثر مِن خمس دقائق -.

هروَل كل منهما إلى داخل الشاليه الخاص به، وبالفعل استغرق «مدحت» خمس دقائق فقط لاستبدال ملابسه وارتداء لباس البحر، ثم خرج إلى الشُرفة وجلس ينتظر «سيرين» التي جاءته بعد دقيقتين تقريبًا وهي بلباس البحر حيث كانت تبدو كفاتنات السينما الأمريكية، كما بدا أن لون جلدها شديد البياض، بل أكثر بياضًا مِن لون بشرة وجهها الذي اعتاد رؤيته!

فقال لها:

ستكون تلكَ هي المرة الأولى التي تعود فيها الحوريَّة إلى البحر، وليس العكس -.

ابتسمتْ «سيرين» مِن رِقَّة تلك المُغازلة، وانطلقتْ معه وهي حافيَة القدمين نحو الشاطئ.

لا يتذكَّر «مدحت» أبدًا أنه استمتع بذلك القدر مِن المَرَح والسعادة منذ زمن بعيد.

* * *

في صباح اليوم التالي، كان «مدحت» قد أنهى مُكالمةً مُقتَضَبةً للتوِّ مع زوجته «شهيرة» قبل أن تَصِلَ «سيرين» إلى شُرفته بقليل، فقد تصادفَ أن وجدتْ «شهيرة» سببًا واهيًا لكي تقوم بالاتصال به؛ أملًا في أن يذوب الجليد فيما بينهما. كانت «شهيرة» تُريد أن تُخبره بتطورات حسابه البنكي، والذي وصل بيانه بالصُّدفة بعد ظُهر اليوم السابق عبر البريد. ظنَّتْ «شهيرة» أن ذلك الخطاب البنكي قد يحتوي على إخطار ما ذي أهميَّة ما، فقامت بفتحه وتصفُّحه، وهو أمر مُعتاد بينها وبين «مدحت»، ولم يكن مُستهجنًا فيما بينهما. أغلق «مدحت» الهاتف وهو يُبدي دهشته، فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي تأتيه فيها الأموال مِن مَصدرٍ إضافي جديد، وكان المَبلَغ المالي الجديد ذا قيمة مُفاجئة بالنسبة له، فلم يكُن يتوَقَّع أن يكون للتَّسويق الإلكتروني ذلك المُقابِل المُجزي على الإطلاق، لقد صدقتْ «سيرين» بالفِعل في كل ما وعدته به في البداية.

فقالت «سيرين» وهي تهم بالجلوس بجواره:

- تبدو اليوم سعيدًا للغاية يا عزيزي.

التفت «مدحت» نحوها وهو يهمُّ بوضع الهاتِف على المنضدة، وقال لها: كنتُ أتحدَّثُ مع زوجتي، فقد كانت تُخطرني بوصول أول مَبلغ مالي عن طريق التسويق الإلكتروني الذي قُمتِ أنتِ بعمله.

فابتسمت «سيرين» وقالت:

- حقًّا؟ تهانينا القلبية يا عزيزي لَكَ ولزوجتكَ.

فقال لها:

- لم أكُن أُصَدِّق أن تلكَ الإعلانات الإلكترونية أو أن تسويق المُقتبسات الأدبية قد أجني منها أرباحًا ماليةً بحق، ولم أكُن أعرف أن تلك الأشياء غير الملموسة عبر شبكات الإنترنت قد تكون ذات قيمة! إنكِ تستحقين كل الشُّكر والتقدير يا «سيرين» بحق، فإن ما تفعلينه يكاد يكون نوعًا مِن أنواع السِّحر!

ابتسمت «سيرين» وقالت وهي تُشير نحو الهاتف:

- وهل تسألكَ زوجتكَ عني؟

فقال لها ببُطءٍ واضِح وقد فترتْ حماسته فجأة:

- بالتأكيد.

نَظَرتْ إليه تتفرَّس في تعبيرات وجهه تلك، ثم تجاهلتْ دلالتها، وقالت له:

- فلنتحدَّث عن الرواية الجديدة إذًا الآن؟

أفلتتْ من «مدحت» زفرة عميقة، وأعاد ظهره إلى الوراء وقال:

- في الواقع لا توجد لديَّ رؤية شاملة لرواية كاملة حتى الآن، أقصى ما استطعتُ إعداده هو مجموعة مُتناثرة مِن القصص القصيرة التي يُمكن لكل منها أن تكون نواة لرواية جديدة.

فقالت:

- هل تعني أن لديكَ العديد مِن القصص القصيرة الكاملة، أم إنها ما زالت مُجرَّد أفكار وأُطروحات غير مُكتملة؟

قال:

- مُعظمها قصص قصيرة مُكتملة إلى حد ما.

فقالت:

- هذا أمر جيد، هل سألتَ نفسكَ يومًا إن كان هناك رابط ما بين تلك القصص المُتفرقة؟

فقال لها وهو مُندهش مِن سؤالها:

- قُلتُ لكِ إنها مجموعة مِن القصص المُختلفة، ولا تندرج جميعها تحت رواية واحدة أو موضوع واحد!

فقالت بهدوء وثقة:

- ليس هذا ما أعنيه، ما أقصده يا عزيزي هو أن تقوم بالتفكير والتحليل لجميع تلكَ القصص؛ لتكتشف بنفسك ما إذا كانتْ هناك روح مُشتركة فيما بينها أم لا، على سبيل المثال، ربما جميع تلك القصص تتحدَّث مثلًا عن الحب المفقود، أو مثلًا عن طُغيان الحكام، أو تدهور الأخلاق... وهكذا.

ازدادتْ دهشته مِن ملاحظتها الدقيقة تلك، فانتابته دقيقة مِن الصمت كان ينظر فيها إلى الفراغ، بينما كان يستعرض أفكار تلك القصص القصيرة في رأسه، بعدها قام بالالتفات نحو وجه «سيرين» مِن جديد، فوجدها تبتسم وهي تنتظر في صبر، وكأنها تعرف ما يدور برأسه! فبادرته بالسؤال:

- حسنًا، هل وجدتَ الآن علاقة خفيَّة بين تلك القصص؟

ازدادتْ دهشته أكثر وأكثر، كيف لتلك الفتاة أن تخترق أفكاره بهذا الشكل؟ هل هي طبيبة نفسيَّة أم ماذا؟ تَخلى عن صمته وقال:

- لا أدري على وجه التحديد، لكن هناك رابطًا خفيًّا قد يجمع بين كل تلك القصص، وهو خليط فريد بين الاغتراب والوحدة، والغربة لا تعني السفر والبعد، فقد يشعر المرء بالغُربة وسط أهله، وكذلك الوحدة لا تعني الانفراد بالنفس، وينطبق عليها ما ينطبق على الغُربة، ونستطيع أن نقول إن كل مُغترب وحيد، وكل وحيد مُغترب، حتى وإن كان مُحاطًا بالعديد مِن الناس.

ابتسمتْ «سيرين» وكأنها تُعلن انتصارًا جديدًا لأفكارها التي لا تُخطئ أبدًا وقالتْ:

- إنه لشيء رائع أنكَ اكتشفتَ ذلك الرابط بتلك السُرعة، والآن إليكَ السؤال الأصعب: هل يمكن الربط بين جميع تلك القصص بوضعها بجوار بعضها؛ لكي نكتشف ما إذا كانت جميعها بالفعل

تُكمِّل بعضها، فترسم لنا لوحة واحدة مُتكاملة؟

فصاح «مدحت» وقال:

هل تعنين أنني -دون أن أشعُر- قد قمتُ بكتابة ما يُشبه الرواية بالفعل، ولكن على أجزاء مُتفرقة؟ -

فقالت:

ربما نعم وربما لا، احكِ لي عن تلك القصص الواحدة تلو الأُخرى لعلي أَجِد ما يُمكِّننا مِن ربطها - جميعًا تحت رواية واحدة.

فقال لها مُستنكرًا:

هل تريديني أن أقوم بافتعال رواية بهذا الشكل؟ -

فقالت بقوة:

بالطبع لا، ولكننا قد نجد أن ثمَّة رواية بالفعل قد وُلِدَتْ متناثرة، وتحتاج فقط إلى إيجاد ما يربطها - ببعضها، لن نتعجَّل الحُكم حتى تحكي لي جميع الحكايات.

أطلق زفرة طويلة ثم قال:

ما رأيك أن تقومي تُشاركيني بتجربة حمَّام السباحة الآن؟ إن له مِظلَّة كبيرة تحميه مِن حرارة - الشمس الحارقة.

ابتسمتْ «سيرين» وهي تهز رأسها:

إنكَ تتهرَّب كالأطفال الصغار مِن واجباتهم المَدرسيَّة، حسنًا، فلنبدأ فقرة اللعب الآن، ولكن على - شرط، أن نبدأ في مرحلة عصف الأفكار للرواية الجديدة عندما ننتهي مِن ذلك، اتفقنا؟

فابتسم «مدحت» ابتسامةَ طُفوليَّة وقال:

اتفقنا.. هيَّا بنا -.

(٩)

أسبوع

«الدنيا مَسرحٌ كبير، وإن كل الرجال والنِساء ما هُم إلا لاعبون على هذا المسرح».

وليام شِكسبير (12)

الأحد، السابع من يوليو عام ٢٠١٩

كان ذلك هو اليوم الأول بعد إلقاء القبض على «مدحت الشاعر»، ولم يكن «مدحت» يعلم شيئًا عن تلك الجلبة المُدويَّة التي أحدثها خبر إلقاء القبض عليه، فقد أصبح ذلك الأمر حديث الصُّحُف والمجلات ونشرات الأخبار، وكذلك صفحات مواقع التواصُل الاجتماعي المُختلفة، وربما نال «مدحت» مِن الشُهرة في ذلك اليوم ما يفوق جميع ما حصل عليه مِن شُهرة واسعة خلال سنوات مجده الأدبي كله! لقد بذل «مدحت» مجهودًا مُضنيًا لكي يكون رمزًا مِن رموز الثقافة في مصر، وربما لو كان مُمثلًا سينمائيًا أو مُطربًا لما احتاج لأن يبذُل عُشر نفس المجهود الذي بَذَلَهُ لكي يصل إلى نفس المكانة التي وصل إليها عن طريق الكتابة.

كان ضابط الشُّرطة المسؤول عن إلقاء القبض عليه يتمتع بالأخلاق العالية، فلمْ يقُم بإلقاء «مدحت» في إحدى غُرف الاحتجاز المؤقت مع المسجونين الخطرين، بل تحفَّظ عليه في مكتبه الشخصي إلى أن يأتي موعد عرضه على وكيل النيابة، فقد كان الضابط هو أيضًا يشعُر بأن هناك أمرًا ما خطأ، وأن شخصًا ذا مكانةٍ مرموقةٍ مثل «مدحت الشاعر» لا يُمكن أن يُقدم على ارتكاب جريمة غريبة مثل هذه الجريمة، فكيف له أن يُقدِم على اختطاف زوجته أو قتلها مثلًا؟ لذلك آثر الضابط أن يُحسن مُعاملة الكاتب الشهير ريثما يتم عرضه على النيابة لأول مرة، وحينها قد تتضح الأمور أكثر.

لم يتبادل الضابط أي حديث مع «مدحت» على الإطلاق، بل إنه لم يكن يمكث في مكتبه كثيرًا؛ لانشغاله الشديد بأمور أُخرى تقع خارج حدود غُرفة مكتبه تلك، لكنه اكتفى بأن يوكل مهمة حراسة «مدحت» لأحد أفراد جنود الشُرطة، حيث أمره الضابط بألا يترك مكانه مهما حدث، وألا يصطحب الشخص المُحتجز «مدحت» نحو دورات المياه، إلا حينما يعود الضابط ويأمره بذلك «بنفسه، ثم أمر جُنديًّا آخر بالخروج لشراء بعض ساندوتشات الفول وتقديمها لـ«مدحت».

وحينما حان موعد عرض «مدحت» على النيابة، اقتاده الضابط بنفسه إلى مكتب وكيل النيابة، لتبدأ حينها أولى جلسات التحقيق مع المُتهم، كما أصبحوا ينعتونه الآن. سأله وكيل النيابة في البداية عن تلك البيانات الروتينية كالاسم والعُمر والعنوان والوظيفة، فأجاب عنها «مدحت» بسُرعة وهو يتلهَّف بشدة لمعرفة ما هو الأمر الذي يتهمونه به.

وكيل النيابة:

- أنتَ مُتهم بأنكَ المسئول عن اختفاء واختطاف زوجتكَ «شهيرة محمد» مِن منزلكما أوَّل أمس.

فقال «مدحت»:

- أنا لا أعلم أنها قد اختفتْ على الإطلاق، ما الذي حدث لها؟ وكيف حدث ذلك؟

فقال وكيل النيابة:

- لقد سمع جميع مَن بالمنزل صوت صراخها وسط ضجيج مُفاجئ، جاء ذلك على لسان أولادكَ والخادمة ومُساعدتها الشابة أيضًا.

فقال «مدحت»:

- ماذا؟ وهل شاهدوا أحدًا غريبًا آنذاك؟

فقال وكيل النيابة:

- جميعهم خافوا بشدة أن يهبطوا إلى الطابق السُفلي كي يستطلعوا الأمر، لكنهم أجمعوا جميعًا على أن الموضوع برُمَّتِه لم يستغرق سوى ثوانٍ معدودة، فقد سمعوا حينها صوت ضجَّة كبيرة يُصاحبها صوت صراخ زوجتكَ «شهيرة» التي بدتْ وكأنها تُقاوم مُختطفيها بشدة، ثم اختفتْ جميع تلك الأصوات فجأة، فور سماع صوت إغلاق البوابة الرئيسية لمنزلكم بعُنف، ولم يسمعوا بعدها سوى صوت هدير مُحركات سيَّارة كبيرة، وهي ترحل مُسرعة بعيدًا عن المنزل.

فقال مدحت:

- يا للهول!

فقال وكيل النيابة:

- هل لديكم أعداء قد تشُكُّ في أنهم السبب وراء ذلك؟

فقال «مدحت»:

- بالطبع لا، فنحن أُناس مُسالمون تمامًا، ولا توجد عداوات لنا على كل الأصعدة.

فقال وكيل النيابة:

- وأين كنتَ أنتَ وقتَ حدوث ذلك؟

فقال «مدحت»:

- في واقع الأمر لقد تركتُ المنزل منذ عدة أيَّام، وسافرتُ إلى العين السُخنة للاستجمام، ولكي أتمكن مِن أن يصفى ذهني، وأن أسترسل في الكتابة وسط أجواء هادئة.

فقال وكيل النيابة:

- نعلم أنكَ كنتَ في العين السُخنة، فقد تم إلقاء القبض عليكَ هناكَ، لكني أسألكَ عن مكان وجودكَ وقت حدوث الجريمة.

فقال «مدحت»:

- قلتُ لكَ إنني سافرتُ إلى العين السُخنة منذ أيَّام، ولم أرحل عنها إلا في صباح أمس عندما اقتادني أفراد الشُرطة مِن الشاليه الخاص بي هناك.

فقال وكيل النيابة:

- حسنًا، وماذا عن تلك الفتاة اللبنانية التي تُدعى «سيرين»؟

فقال «مدحت» مُتلعثمًا:

- لقد سافرتْ هي أيضًا بصُحبتي إلى هناك في مهمة عمل خاصة بي، فقد تعاقدتُ معها سيرين»؟ كوكيل ومُحرر أدبي، وهي التي تقوم بمُساعدتي في إدارة أعمالي على صفحات الإنترنت، وكذلك مُعاونتي على كتابة روايتي الجديدة، وقد قامتْ باستئجار الشاليه المُجاور للشاليه الذي أملكه هناك؛ لكي نكون على مقربة مِن بعضنا، ولنتمكن مِن إتمام العمل المُشترك فيما بيننا هناك.

فقال وكيل النيابة:

- سنقوم باستدعائها للشهادة غدًا على أيَّة حال، ولكن هل توجد علاقة أُخرى بينكَ وبينها؟

فقال «مدحت» بحدة:

- بالطبع لا، إنها علاقة عمل لا أكثر ولا أقل.

فقال وكيل النيابة:

- حسنًا، ربما تسأل نفسكَ لماذا تم إلقاء القبض عليكَ؟ لقد قيل لكَ مرارًا إنكَ مُتهم بأنكَ السبب في اختطاف زوجتكَ، وأنتَ تُنكر ذلك بالطبع، أليس كذلك؟

فقال «مدحت»:

- حسنًا، لكنني بالطبع أُنكر ذلك، هذا بخلاف أنه قد أصابني قلق عظيم لا يُمكن وصفه عندما عرفتُ أن زوجتي قد اختفتْ، أو أنه رُبما قد تم اختطافها.

فقال وكيل النيابة:

- حسنًا، لكننا سنقوم بمُفاجأتكَ، وسنعرض عليكَ العديد مِن الأدلة التي تؤكد أنكَ السبب في اختطاف زوجتكَ، وحينها لن يكون هناك داعٍ للإنكار.

ثم توجه بحديثه نحو زميل يجلس على مقربة مِنه وقال:

- هل أنتَ مُستعد لعرض تفريغ الرسائل الصوتية التي وجدناها على الهاتف المحمول للمخطوفة؟

فأجابه زميله بأن التسجيلات غير مُتاحة الآن، وأنها ستكون جاهزة في صباح اليوم التالي، حينها هزَّ وكيل النيابة رأسه مُوافقًا، ثم أمر بإغلاق محضر التحقيق لهذا اليوم، على أن يتم استدعاء «سيرين» للشهادة في اليوم التالي مُباشرةً، مع استمرار حبس «مدحت أحمد الشاعر» لمُدة أربعة أيَّام على ذمة التحقيقات، على أن يتم إعادة عرضه أمام وكيل النيابة في صباح غد.

حينها قام ضابط الشُّرطة باصطحاب «مدحت» نحو غُرفة الاحتجاز، وقال له:

- أرجو أن تتقبَّل اعتذاري يا سيدي، لكنني لن أستطيع أن أُخالف الأوامر، وأجعلكَ تبيت في مكتبي مثلما فعلتُ أمس، وعمومًا إن احتجتَ إلى شيء ما أو إن أصابكَ مكروه، فقط قم بمُناداة «الصول رمضان»، وهو ذلك الشخص الضخم ذو الشارب العريض، والذي يقف على حراسة غُرف الاحتجاز حتى صباح غد.

الاثنين، الثامن من يوليو عام ٢٠١٩

اليوم الثاني بعد إلقاء القبض على مدحت الشاعر.

كانت غُرفة الاحتجاز التي دخلها «مدحت» خالية تمامًا مِن المسجونين الآخرين، فأدركَ «مدحت» على الفور أن ذلك الضابط قد أسدى له معروفًا جديدًا بطريقة غير مُباشرة، وأنه يختصه بمُعاملة خاصة للغاية تليق بوضعه الاجتماعي ومركزه المرموق، إذ إنه بذلك قد قام بحمايته مِن الاحتكاك بالمُجرمين الآخرين المُحتجزين في غُرف الاحتجاز الأخرى. كانت غُرفة الاحتجاز التي دخلها تحمل الرقم «٢»، بينما يواجهها تمامًا غُرفة الاحتجاز رقم «٤»، والتي أخذ يطلُّ مِن قُضبان

نافذتها الحديديَّة الضَيِّقة وجوه بعض المسجونين المُتطفلين؛ لرؤية ماهيَّة ذلك السجين الجديد الذي يتم إيداعه في زنزانة أُخرى بعيدًا عنهم، ثم أخذوا يتناوبون الصياح والتذمُّر، وكذلك إلقاء السباب عليهم؛ بسبب تلك المُعاملة المُميَّزة! أطلَّ «مدحت» من نافذة زنزانته بعد دخوله إليها، وقال لـ«الصول رمضان»:

- ما الذي يدعو هؤلاء لإلقاء الشتائم وتوجيه البذاءات والسباب إلينا يا «صول رمضان»؟ ماذا بهم؟

فقال له:

- إن غُرفة الاحتجاز تلك تضم أربعة وثلاثين مُحتجزًا، في مساحة تقريبية قدرها أربعة أمتار في خمسة أمتار، وتوجد بها مَرْوَحَة واحدة، وشَفَّاط هواء مُعطَّل، وحمَّام بلدي يفصله عن المُحتجزين قطعة قماش لا غير، هل تُدرك معنى ذلك؟

أومأ «مدحت» برأسه كنايةً عن الفهم، ثم عاد إلى الداخل، واستدار ليجلس على الأرض بداخل الزنزانة. لم تمر سوى ثوانٍ قليلة إلا وشعر حينها بأنه على وشك الإصابة بصدمة نفسيَّة عنيفة، وشعر بأنه لن يتمكن من احتمال رائحة الهواء الخانق الملوَّث الذي يُحيط به، وتمنى لو أنهم سمحوا له بالخروج من الاحتجاز لاستنشاق الهواء النظيف. يا الله (كان يُحدِّثْ نفسه) يوجد هناك على مقربة مِنِّي أربعة وثلاثون مُحتجزًا في غُرفة واحدة ضيقة، ومن المؤكد أن ذلك المكان قد صار مُزدحمًا لدرجةٍ يستحيل السير فيها دون مُلامسة أجساد الآخرين! كيف يُمكن للإنسان أن يعيش في مساحة تقلُّ عن نصف متر مُربع؟ لا بد وأنهم يضطرون لأن يناموا مُلتصقين بمحاذاة بعضهم البعض، هذا بخلاف أنهم كالمُقيمين في أماكن أشبَه ما تكون بدورات مياه كبيرة، فرائحة المُخلفات الآدمية تفوح بشدة مِن المكان، فبسبب هذا العدد الكبير ينساب العرق من أجسادهم، وتختلط رائحتهم بالروائح المُنبعثة من الحمَّام.

أخذ يتفقَّد الغُرفة التي أودعوه فيها، كانت الأرض مُغطَّاة ببطاطين وأقمشة مُهترئة، بينما على يوجد على الحائط أكياس بلاستيكية قديمة لبقايا الأطعمة، وكذلك ملابس قديمة لبعض المُحتجزين السابقين، جميعها مثبتة إلى الحائط عن طريق مسامير صدئة، بخلاف وجود سطلين مِن الحديد القذر لا بُد وأنهما مُخصصان لقضاء الحاجة! كاد أن يصيبه الغثيان عند رؤيتهما، وسط تلك الإضاءة الضعيفة التي تأتيه عن طريق نافذة الزنزانة.

حاول «مدحت» جاهدًا أن يستسلم للنوم وسط تلك الظروف المُتردية، وأخذ يدعو الله أن يُعجِّل وكيل النيابة باستدعائه للتحقيق معه؛ لكي يتخلَّص مِن هذا الكابوس الرهيب الذي يعيشه، ولكن كيف له أن ينام وهو يشعُر بالقذارة وهي تُحيط به مِن حوله في كل مكان؟ وكيف له أن يتنفَّس وهو يشعُر بالاختناق الشديد مِن رائحة الهواء العطنة والكريهة؟ لكنه بعد ساعة ونصف تقريبًا سقط مِن شدة تعبه وإجهاده ونام بالفعل، ولكنه فجأة استيقظ على صوت جلبة شديدة وصياح جماعي يأتي مِن خارج الزنزانة، حاول أن ينهض ليتفقَّد ما الذي يدور بالخارج، لكن مُستوى نافذة زنزانته كان

أعلى مِن طول قامته بكثير، ويبدو أن منسوب أرضيَّة الزنزانة مُنخفض عن المُستوى الطبيعي الذي يجب أن يكون عليه. استمر الضجيج بالخارج ما يقرب مِن نصف ساعة كاملة، وهو لا يدري ما الذي يدور بالخارج، وظل جالسًا على الأرض مُسندًا ظهره إلى الحائط، وكله أمل أن يتم استدعاؤه للخارج في أقرب وقت.

أظلمتْ غُرفة الاحتجاز فجأة، فرفع «مدحت» رأسه ليكتشف أن السبب هو أن «الصول رمضان» يطل مِن النافذة ليتفقَّد أحوال «مدحت»، حينها نهض «مدحت» مِن مكانه واقترب بسُرعة نحو الباب وسأله:

- هل طلبوا مِنكَ أن تصحبني إليهم الآن؟

فقال «الصول رمضان»:

- كلا، ليس بعدُ، كنتُ فقط أقوم بالاطمئنان عليكَ.

فقال «مدحت» وهو مُحبَط:

- يا للأسف، ولكن ماذا كان سبب ذلك الصياح والضجيج منذ لحظات؟

فقال «الصول رمضان»:

- لقد كان ذلك أمرًا مؤسفًا، لكنه يتكرَّر هنا كثيرًا، لقد شعر أحدهم بضيقٍ في التنفُّس وسخونة شديدة تنبعث مِن جسده، وأصيبَ بإغماءة ورعشات مُتواصلة. حاول أحد المُحتجزين الآخرين إفاقته بتدليك صدره ومُساعدته على النهوض ثم إسناده على حائط الغُرفة، وهي طريقة معروفة يحفظها مُعتادو الاحتجاز والإجرام، لكن المُصاب لم يُفِق. طرق المُحتجزون باب الغُرفة بعُنف لمُناداتي، فذهبتُ إليهم وأخبروني بالأمر، فهرولتُ مُسرعًا لاستدعاء أحد رجال الإسعاف الذي حضر بعد رُبع ساعة، ودخل إلى غُرفة الاحتجاز تلك بصُحبة الضابط المُناوِب، وأخرجوا المُصاب إلى الممر الخارجي، حاول رجل الإسعاف فتح عينيه المُغلقتين، ثم نظر للضابط وقال له:

- لا بُد أن يتم نقله إلى المُستشفى على الفور. لكنني علمتُ الآن أن المُستشفى قد أفادتْ بأن المُصاب قد وصل إليهم وهو جثة هامدة بالفعل، فقد مات!

فقال مدحت:

- يا للهول، لا حول ولا قوة إلا بالله، هل يحدُث ذلك كثيرًا كما تقول؟

فقال «الصول رمضان»:

مع الأسف يحدُث كثيرًا، وتحديدًا لهؤلاء الذين يعانون مِن أمراض قديمة أو مُزمنة، أو مَن - يعانون مِن آثار عمليَّات جراحية سابقة، هذه الفئات مِن الناس على وجه التحديد تتدهور أحوالها الصحيَّة بسُرعة شديدة؛ بسبب ظروف الاحتجاز غير الآدمية كما تعلم يا سيِّدي.

فقال «مدحت» بصوت يملؤه الحُزن:

معكَ حق، ولكن ماذا عني أنا؟ لماذا لم يتم استدعائي للتحقيق معي حتى الآن كما قالوا لي؟ -

فقال «الصول رمضان» وهو ينظر نحو ساعة يده القديمة:

لا أظن أنه سيتم التحقيق معكَ اليوم، ربما انشغل وكيل النيابة في أمر أكثر أهميَّة، وربما انتقل - إلى مكان آخر، لا أدري.

أُصيبَ «مدحت» بالإحباط الشديد، وسأله:

وماذا عن الطعام؟ هل تقومون بتقديم الطعام للمساجين هنا؟ -

فابتسم «الصول رمضان» ثم قال:

بالطبع لا، لكن وقت «الطبليَّة» يحين بعد ساعة مِن الآن، إنه التوقيت الذي يأتي فيه الطعام - للمساجين عن طريق ذويهم، ومِن المؤكد أن زوجتكَ قد سألتْ عن ذلك الموعد، ولا بد أنها تعرف ذلك، وستأتي لكَ بالطعام.

فقال «مدحت»:

زوجتي؟ كلا، إن زوجتي ليست موجودة للأسف، أتمنى أن يتذكرني أحدهم -.

فقال «الصول رمضان»:

لا تقلق يا سيِّدي، سأصعد حينها إلى الأعلى، وسنرى إن كان هناك طعام قد ورد إليكَ باسمكَ أم - لا، وإن لم يكن هناك شيء لكَ فيُمكنكَ حينها أن تمنحني المال؛ لأُرسل لكَ في طلب الطعام، لقد أوصاني الضابط «حسام» بالاهتمام بكَ بشدة.

الثلاثاء، التاسع من يوليو عام ٢٠١٩

«اليوم الثالث بعد إلقاء القبض على «مدحت الشاعر.

استيقظ «مدحت» على صوت باب زنزانته وهو يُفتح ليطل مِنه شخص آخر غير «الصول رمضان»، كان القادم الآخر يبدو وأنه أصغر كثيرًا في العُمر والحجم مِن «الصول رمضان»، لكنه صاح فيه بطريقة فجَّة لا تتناسب مع مظهره ذاك، وأمره بأن ينهض فورًا؛ لأنه سيتم عرضه على وكيل النيابة. كان «مدحت» يجهل كم تكون الساعة في ذلك التوقيت، فالظلام الذي يعيش فيه تحت الأرض -حيث تقع غُرف الاحتجاز- يجعل مِن التعرُّف على الوقت أمرًا مُستحيلًا.

نهض «مدحت» بتثاقُل، واستسلم للقبضة الخشنة لذلك العسكري الغليظ الطبع، إلى أن وصل إلى مكتب وكيل النيابة، الذي كان هو نفس الشخص الذي قام باستجوابه منذ يومين.

أشار له وكيل النيابة بالجلوس وقال له:

لقد تم استجواب السيدة اللبنانية «سيرين»، وأكدتْ أقوالكَ السابقة عن ذلك التعاقُد الأدبي المُبرمِ - بينكما، لكنها أفادتْ بأنكَ قد اختفيتَ تمامًا مِن القرية السياحية في اليوم السابق لإلقاء القبض عليكَ، فهل يُمكنكَ أن تُخبرنا أين كنتَ في ذلك اليوم؟

قال «مدحت»:

- لم أذهب إلى أي مكان بعيدًا عن الشاليه الذي أسكنه بداخل القرية السياحية، ولم أبرح مكاني أبدًا.

فقال وكيل النيابة:

- لكن السيدة «سيرين» تؤكد أنكَ لم تكن موجودًا أبدًا في ذلك اليوم، وقد قامتْ بالطرْق على باب الشاليه الخاص بكَ عدة مرات طوال اليوم، كما أنها قامتْ بالاتصال بكَ عبر هاتفكَ المحمول، فوجدته مُغلقًا طوال اليوم، هل تُنكر صحة كل ذلك أيضًا؟

فقال «مدحت»:

- لقد كنتُ مُكتئبًا للغاية، ولم أكن أُريد أن أتحدَّث مع أي شخص، لقد كنتُ موجودًا بداخل الشاليه بالفعل، وقد سمعتُ صوت طرقات «سيرين» على الباب، لكنني تعمدتُ ألَّا أُحدِثَ أي صوت؛ لأنني لم أكن في حالة نفسية تسمح لي بالحديث مع «سيرين» أو مع غيرها.

فقال وكيل النيابة:

- وكيف لنا أن نتأكد مِن أنكَ كنتَ مُختبئًا بداخل الشاليه في ذلك اليوم كما تدَّعي؟ أين كانت سيَّارتكَ مثلًا حينها؟

فقال «مدحت»:

لقد فكرتُ في نفس ذات الأمر، وكنتُ أعلم أن وجود سيَّارتي سيدلّ على أنني موجود بداخل - الشاليه، لذلك قمتُ يومها بقيادة السيَّارة نحو مكان بعيد، وعُدتُ إلى الشاليه سيرًا على الأقدام.

فقال وكيل النيابة مُتهكمًا:

حقًا؟ ومتى ذهبتَ إذًا لتُعيد سيَّارتكَ مِن ذلكَ المكان البعيد إلى مكانها المُخصص لها بجوار - الشاليه؟

فقال «مدحت»:

فعلتُ ذلك بعد مُنتصف الليل بكثير، ربما كانت الساعة الثانية صباحًا -.

فقال وكيل النيابة:

لكن أقوال السيدة «سيرين» تدل على أنه لم يكن هناك اكتئاب لديكَ على الإطلاق، فقد كان اليوم - السابق -أي قبل يوم اختفائكَ- هو يوم مليء بالمرح والبهجة، فقد قالت «سيرين» إنكما قد أمضيتما وقتًا طويلًا في حمَّام السباحة الرئيسي، وإنكما ذهبتما إلى شاطئ البحر أيضًا، واستمتعتُما بمُمارسة السباحة في مياه البحر.

فقال «مدحت»:

أعلم أنها ستقول عني ذلك، لكن تلك اللحظات المرحة لم تُفلح في أن تُزيح عن صدري الهموم - التي تُثقلني، لقد كنتُ أبدو سعيدًا مِن شكلي الخارجي فقط، بينما أنا في الواقع أتألم مِن داخل أعماقي.

أطلقَ وكيل النيابة زفرة طويلة وقال:

سأُكرر لكَ ما قُلته لكَ قبل ذلك، مِن الأفضل ألا تراوغنا كثيرًا؛ لأن كل ما تقوله لا يوجد له - أساس منطقي على الإطلاق، فاختفاؤكَ المُريب في نفس اليوم الذي تم فيه اختطاف زوجتكَ يُحكِم طوق الشُّبهات حول عُنقكَ تمامًا، لذلكَ أنصحكَ بأن تعترف بهدوء؛ لأن كل الدلائل تُشير إليكَ ونحوكَ بوضوح.

فقال «مدحت»:

أعترفُ بماذا يا سيدي؟ باختطاف زوجتي وحبيبتي وأُمِّ أولادي؟ هذا مُستحيل -!

حسنًا، سأقوم بمُجاراتكَ حتى النهاية، وسنرى هل المخطوفة ما زالت حبيبتكَ بالفعل أم لا. - سنستمع الآن سويًّا إلى تفريغ الرسائل الصوتية التي وجدناها داخل تطبيق «واتساب على» الهاتف المحمول لزوجتكَ «شهيرة»، إنها الرسائل التي تبادلتها معها في اليوم السابق لاختطافها.

قام وكيل النيابة بتشغيل التسجيلات، وأخذ ينظر إلى وجه «مدحت»؛ ليتبيَّن ردَّة فعله إزاء ذلك. كانت تلك الرسائل الصوتية حقيقية بالفعل، فقد كانت «شهيرة» قد عرفتْ عن طريق إحدى صديقاتها بالعين السُخنة أن «مدحت» قد ظهر هناك في القرية السياحية التي يمتلكان الشاليه فيها، وأنه قد شوهد بصُحبة امرأة جميلة وصغيرة في العُمر، ويبدو أنها أجنبية أيضًا. حاولتْ «شهيرة» الاتصال بـ«مدحت»، لكنه لم يكن يُجيب اتصالاتها، فأرسلتْ إليه رسالة صوتية تستوضح مِنه الأمر، لكنه قام بالردِّ على رسالتها بعد وقت طويل برسالة صوتية مُماثلة كان فيها عصبي المزاج بشدة، قال لها بكلمات هجومية بأنه لا يليق بها أن تقوم بالتجسُّس عليه بهذا الشكل، وأنه موجود بالفعل في العين السُّخنة بصُحبة امرأة أُخرى، لكنها رحلة عمل ليس أكثر. لكن «شهيرة» لم تستسلم لهذا الرد الذي لم يُقنعها أو يُرضي كبرياءها، فأرسلتْ إليه رسالة صوتية جديدة قالتْ فيها إنها تستنكر عليه أنه أخفى ذلك الأمر عنها، وأنه كان يتوَّجب عليه ألَّا يُقدم على فعل ذلك، وأن عليه أن يحفظ لها ماء وجهها أمام المُجتمع الذي ينتميان إليه، لكن تلك الرسالة جعلتْ «مدحت» يستشيط غضبًا، وقام بالرد على رسالتها الصوتية برسالة صوتية حادة ذكَّرها فيها بالضغط النفسي الذي تُمارسه عليه، وهو الضغط الذي يجعل مِن مُشكلة عدم قدرته على الكتابة تتفاقم، وأنه ليس فتىً صغيرًا أخرق؛ لكي ينتظر مِنها أن تنصحه بماذا يفعل، فهو يتمتع بالوعي والإدراك الكافيين لأن يقوم بتقييم الأمور ويضعها في نصابها الصحيح، وفقًا لوضعه ومكانته المرموقة، وأنه يُدرك جيدًا حدود ما يفعله، وأن عليها ألَّا تتدخل في طريقة مُعالجته للأمور الخاصة بعمله الروائي والأدبي. حينها انفجرتْ «شهيرة» فيه عبر رسالتها الصوتية الأخيرة، واتهمته فيها بأنه قد أصبح أخرق، وبات يتصرف دون وعي، وأنه بذلك يقوم بتلطيخ سُمعته هو وأسرته على حد سواء، وتساءلتْ ماذا إذا عرف أولادهما بذلك الخبر؟ فقام بالرد عليها فورًا ودون تفكير وحذرها من أن تقوم بإخطار الأولاد بذلك الأمر بتلك الطريقة غير المُنصفة، وقال لها بالنص:

- إياكِ أن تشوهي صورتي لدى الأولاد بهذا الشكل، وإلا أجهزتُ عليكِ.

وكانت تلك الرسالة الأخيرة هي التي يستند إليها وكيل النيابة كدليل الاتهام الرئيسي لـ«مدحت» بأنه السبب وراء اختفاء زوجته «شهيرة»، فقد بات واضحًا أن هناك خلافًا كبيرًا قد حدث بينهما، وأن هذا التراشُق المسموع عبر الرسائل الصوتية يدل على وجود تهديد صريح ومُباشر، وعبثًا حاول «مدحت» أن يتمكَّن مِن إقناع وكيل النيابة بأنه لم يكن يقصد ما قاله في رسالته الأخيرة بالفعل، وإن ما قاله هو صيغة مُبالغة لا تعني أنه يُريد أن يقتلها حرفيًّا، لكن وكيل النيابة لم يقتنع أبدًا بدفاعاته تلك.

أنهى وكيل النيابة التحقيق، وأملى على الكاتب أن يدوِّن بأنه في يوم كذا في ساعة كذا تمت مُواجهة المُتهم «مدحت أحمد الشاعر» بالتسجيلات الصوتية التي تم استخراجها مِن الهاتف المحمول

لزوجته المُختطفة، وأن المُتهم لم يُنكر ما جاء فيها مِن رسائل مُتبادلة بينه وبين زوجته الغائبة، لكنه لا يزال يُنكر أنه الشخص المسؤول عن تلك الجريمة، وبناء عليه، فإن التحقيق سيتم استكماله فيما بعد، حين وصول تحريَّات المَباحث، وكذلك حين صدور تقرير رفع البصمات والأدلة الجنائية.

قام وكيل النيابة بمُناداة جُندي الشُّرطة الغليظ الطباع لاقتياد «مدحت» إلى غُرفة الاحتجاز مُجددًا، وعند خروجه مِن غُرفة التحقيقات، وجد أمامه بانتظاره «سعيد المُقدِّم» الذي هرول إليه؛ ليتعرَّف مِنه على نتيجة التحقيقات حتى الآن، أخبره «مدحت» بما حدث على عجل، ثم شكره على أنه قد أحضر إليه الطعام أمس، فقد كان يتضوَّر جوعًا، ولم يكن يتوقع أن يتنبَّه أحدهم إلى تلك التفصيلة الصغيرة والمهمة جدًّا في نفس الوقت. ربتَ «سعيد» على كتفه، ومنحه مبلغًا مِن المال أودعه في داخل جيبه، وقال:

- لا يليق بكَ أن تشكرني على الإطلاق، هل يوجد شُكر بين الإخوة؟ ستظل أخي الذي لم ينجبه أبي مهما باعدتْ بيننا المسافات والظروف.

أومأ «مدحت» برأسه امتنانًا، ثم استسلم لقبضة العسكري الذي أخذ يدفعه بعُنف لكيلا يتلكأ، حينها ناداه «سعيد» مُجددًا وسأله:

- هل تتمنى صنفًا مُحددًا مِن الطعام لكي آتيكَ به في الغد؟ فابتسم له «مدحت» ابتسامةً كبيرة وقال وهو يبتعد:

- «إنكَ تعرف كل شيء يا «سعيد.

الأربعاء، العاشر من يوليو عام ٢٠١٩

«اليوم الرابع بعد إلقاء القبض على «مدحت الشاعر.

عاد «الصول رمضان» في ذلك اليوم لحراسة غُرف الاحتجاز، عرف «مدحت» ذلك حينما وجده يطلُّ برأسه الضخم مِن خلال نافذة زنزانته، فنهض «مدحت» على الفور بسعادة واضحة واقترب مِن النافذة وقال له:

- أين كنتَ أمس يا «عم رمضان»؟ لقد كنتُ أُعاني في غيابكَ مِن تلك المُعاملة الفظَّة التي يُعاملني بها زميلكَ الآخر.

ابتسم «الصول رمضان» وقال:

تقصد «الصول عيد»؟ إنه رجل ريفي طيِّب، ربما تبدو تصرفاته خشنة للغاية، لكنه في واقع الأمر شخص طيِّب القلب رقيق الحال، ومِن المؤكد أنه لا يقصد ذلك بالطبع -.

فقال «مدحت»:

إنكَ لم تفعل كيف كان يتصرَّف تجاهي أمس -.

فقال «الصول رمضان»:

لا تغضب مِنه، فهو لا يعلم مَن تكون يا سيدي، كما أنه مُضطر لأن يقوم بتنفيذ الأوامر دون تفكير -.

فقال «مدحت»:

وهل تعلم أنتَ مَن أكون أنا يا «صول رمضان»؟ -

فقال «الصول رمضان» بخجل:

في واقع الأمر لم أكن أعرفكَ في أول الأمر، لكن الضابط «حسام» أخبرني أنكَ مِن الأُدباء المرموقين، وعلمتُ أيضًا مِن بعض الجيران أنكَ شخصيَّة مُهمة حينما جاء ذكر اسم مخفر الشُّرطة الذي أعمل به، فالأخبار تملأ الصحف عنكَ يا سيدي، لكنني لم أكن أعلم عنكَ شيئًا قبل ذلك، سامحني يا سيدي -.

ابتسم «مدحت» ابتسامَة خفيفة وقال:

لا عليكَ، لا ألومكَ بالطبع، ربما أكون أنا وأمثالي السبب الحقيقي لعدم معرفتكَ بي -.

فقال «الصول رمضان»:

لقد أنسيتني السبب وراء مجيئي إليكَ، يوجد هناك مَن يطلب زيارتكَ، ولا بُد أن أصطحبكَ نحو الأعلى لمُقابلته -.

فقال «مدحت» وهو يتمنى أن تكون «سيرين» هي التي تطلب زيارته:

مَن يكون ذلك الشخص يا تُرى؟ -

فقال «الصول رمضان»:

إنه نفس الشخص الذي يأتي لكَ بالطعام كل يوم في موعد الطبليَّة، أهو شقيقكَ يا سيدي؟ -

:«فقال «مدحت

آه، أتقصد سعيد؟ إنه أكثر مِن أخ بالنسبة لي، فهو صديق العُمر -.

:«فقال «الصول رمضان

الصديق الحق هو الذي يظهر وقت الشدَّة، ونعم الأخ. عمومًا انتبه إلى أن زمن اللقاء المسموح - به هو عشر دقائق فقط.

:«فقال «مدحت

أتفهَّم ذلك، هيَّا بنا -.

في تلك الدقائق القليلة، عرف «مدحت» مِن «سعيد» أن سير التحقيقات قد اتخذ خطًّا موازيًا آخر، إذ إن هناك فرضيَّة أُخرى قد طرأتْ على الساحة، وهي أنه إن لم يكن «مدحت» هو الخاطف الحقيقي، فلا بُد وأن الخاطفين الفعليين سيقومون بالاتصال -بطريقة ما- ليطلبوا الحصول على فِديَة ماليَّة، ولكن مِمَّن سيطلبون تلك الفِديَة بينما «مدحت» قد أصبح مَسجونًا؟ وبناء عليه فقد بدأتْ الشُرطة في مُراقبة هاتف منزل «مدحت»، وهاتفه المحمول الذي تحفَّظوا عليه، وكذلك بدأوا في مُراقبة جميع الهواتف الخاصة بـ«سعيد» سواء في المنزل أو في محلِّ عمله، إذ ربما قد يقوم الخاطفون بالاتصال به بصفته الشخص الوحيد المُقرَّب مِن «مدحت»، ولأنه الشخص الوحيد الذي أصبح يعتني الآن بأموره وبشئون أولاده. وقبل أن يقوم بوداعه، أخبره بأن وكيل النيابة -للأسف- قد أمر بتمديد فترة الحبس الاحتياطي لمدحت لمُدة أربعة أيَّام أُخرى على ذِمَّة التحقيقات.

الخميس، الحادي عشر من يوليو عام ٢٠١٩

«اليوم الخامس بعد إلقاء القبض على «مدحت الشاعر.

كاد «مدحت» أن يُصاب بالاختناق التام؛ بسبب المَلل الرهيب الذي يشعُر به، حيث لا يوجد أي نشاط يُمكنه مُمارسته، ولا يوجد أحد يستطيع التحدُث إليه، ولا يدري إلى متى سوف يظل على حالته تلك في هذه الزنزانة الحقيرة! كان ذلك هو اليوم الخامس الذي يقضيه في ذلك الحبس الانفرادي، والذي سوف يمتد لأيَّام أُخرى مُستقبلية لا يعلم عددها. إن السجن يختلف تمامًا عن الوحدة، ففي السجن تُسلَب الإرادة وتتلاشى الإمكانيات وتذوب الفوارق. فعندما يكون الشخص وحيدًا تبقى لديه حُريَّة الاختيار في كيفية التعايُش مع تلك الوحدة. قد يختار الشخص القراءة، أو النوم، أو التنزُّه أو السفر، أما في السجن، فيفقد الإنسان جميع تلك الحُريَّات، ولا يبقى له سوى أن

يعتاد الاستسلام إلى الشعور بالخواء مُرغمًا، ودون أن يُصيبه الضجر، إنها قمة القهر والإذلال والمَهانة.

زاد مِن ذلك الضيق في هذا اليوم أن «الصول رمضان» لم يكن موجودًا، وهو الشخص الوحيد الذي يُمكن لـ«مدحت» أن يتجاذب معه بعض أطراف الحديث، ولو للحظات أثناء اليوم الطويل للحبس، وحتى ذلك الصول الآخر الغليظ الطباع الذي يُدعى «عيد» لم يكن موجودًا هو أيضًا، فهناك جُندي آخر يقوم بالحراسة في ذلك اليوم، ولا يعرفه «مدحت»، ولن يتمكن مِن مُناداته للحديث معه، يا للمَلل القاتل.

وبينما يُحاول «مدحت» مِن شدة المَلل أن يقوم بالرسم على الحائط بواسطة مسمار مِن الحديد الصُلب كان قد وجده على الأرض، إذ ببوابة الزنزانة تُفتَح فجأة، ليدخل إليه سجين آخر يبدو عليه أنه ذو مَظهر حَسَن ونظيف. خرج العسكري وأغلق الباب، بينما ظلَّ القادم الجديد واقفًا في مكانه لا يدري ماذا يفعل!

استنتج «مدحت» على الفور أن هذا السجين الجديد لا بُد وأنه ينتمي إلى طبقة اجتماعية راقية مثله، ولذلك اختاروا له أن ينضمَّ إليه في زنزانته هذه بدلًا مِن أن يتم إيداعه وسط جحافل المُجرمين الآخرين المُتكدسين فوق بعضهم في الزنازين الأخرى. أشفق «مدحت» على الرجل الواقف في حيرة مِن أمره، فأشار له بالجلوس بجواره، وقال له:

- هل ستظلُّ واقفًا في مكانكَ هكذا طول الوقت؟ تفضَّل بالجلوس.

أومأ الرجل برأسه مُوافقًا، ثم همَّ بالجلوس وهو يتفقَّد بيده الأرض ذات البطاطين والأقمشة المُتسخة، ثم نفض عن يديه التُراب بصفعهما ببعضهما، واستسلم للجلوس، وأسند ظهره إلى الحائط. كان الرجل هادئًا تمامًا، ولا يبدو عليه أي ملامح للتوتر أو الغضب أو القلق، كان وكأنه لا يُلقي بالًا لأي شيء في هذه الحياة! كانت ملامح الرجل وتجاعيد وجهه تجعله يبدو وكأنه في أواسط الأربعينات مِن عُمره، إلا أن شعر رأسه الغزير والمُصَفَّف كشعر نجوم السينما الأجانب يجعلك تشعُر وكأنه في أواسط الثلاثينيات مِن عُمره، كما يبدو مِن هيئة جسده الرياضيَّة وطول قامته، وكأنه أجنبي بالفعل، وإن كانت ملامحه مصرية خالصة.

فرح «مدحت» بقدوم ذلك الرجل بشدة، وقرر أن يدفعه دفعًا للحديث معه؛ لكي يقتل ذلك المَلل الذي كاد أن يفتكَ به منذ لحظات، فبادره «مدحت» بالحديث وقال له:

- «أهلا بكَ، اسمي «مدحت الشاعر».

فالتفتَ الرجل إليه بهدوء، وقال له وكأن رنين الاسم وشُهرته لم يتركا أيَّ صدى لديه:

- «أهلا بكَ، وأنا «أشرف».

لم يذكر «أشرف» اسمه كاملًا، ربما هذا هو الأسلوب الذي يتبعه الأجانب في الغالب، فقال له «مدحت»، وكأنه يُجاهد ليدفعه دفعًا للحديث:

- حسنًا فعلوا بأن أدخلوكَ إلى هذه الزنزانة معي، فالغُرف الأُخرى يوجد بها العديد مِن المساجين الخطرين، ويكدسونهم فوق بعضهم، بل وينامون وهم مُلتصقون ببعضهم أيضًا.

فقال «أشرف» وهو يهز كتفيه كدلالة على عدم الاكتراث:

- إن هذا الأمر لا يعنيني كثيرًا، ولكن بالطبع شكرًا لهم على أيَّة حال.

تفاجأ «مدحت» مِن حالة اللامُبالاة التي يوجد «أشرف» عليها، فصمتَ قليلًا ثم قال له:

- ما السبب الذي جعلهم يأتون بكَ إلى هنا؟

فقال «أشرف»:

- إنها قصة طويلة.

فقال «مدحت»:

- مِن المؤكد بالطبع أنها قصة طويلة، لكنني أقصد ما هي الجريمة التي ارتكبتها أو يتهمونكَ بها؟

فقال «أشرف» بهدوء:

- إنهم يتهمونني بجريمة قتل.

جَفَلَ قلب «مدحت»، وامتعض لبُرهة، ثم قال:

- جريمة قتل؟ ومَن هذا الذي قتلته؟

فقال «أشرف»:

- إنهما جريمتا قتل وليستْ جريمة واحدة.

ازداد خوف «مدحت»، لكنه استعاد دفَّة الحوار وقال:

- لكن لا يبدو عليكَ أنكَ قد تكون قاتلًا، نظرتي فيكَ لا تقول لي ذلك، فكيف تمكنتَ مِن قتل رجلين؟ ولماذا؟

«فقال «أشرف:

- إنهما فتاتان وليسا رجلين.

ففغر «مدحت» فاه وقال:

- يا لله، هل يتهمونكَ بقتل فتاتين في نفس الوقت؟

«فقال «أشرف:

- نعم، هذا هو الاتِّهام الموجه إليَّ.

«فقال «مدحت:

- ومَن تكون تلكما الفتاتان؟

«فقال «أشرف:

- الأولى أمريكية الجنسية، والثانية فلبينية الجنسية، كانت الأولى خطيبتي، والثانية كانت مُجرد صديقة.

فقال «مدحت» بدهشة:

- ماذا؟ أين حدث كل ذلك؟ وأين تعرفتَ على هاتين الفتاتين؟

«فقال «أشرف:

- تعرفتُ عليهما خارج مصر؛ حيث إنني أعمل بالخارج، لقد تم إلقاء القبض عليَّ بمجرد وصولي إلى المطار بمصر، وذلك بسبب إبلاغ الإنتربول(13) عني.

«فقال «مدحت:

- يا للعجب، وهل قتلتَ الفتاتين بالفعل؟

«فقال «أشرف:

- لا أعلم.

فقال «مدحت» بمُنتهى الدهشة:

- ماذا؟ ما هذا الذي لا تعلمه؟

فقال «أشرف» وهو ينظر بعيدًا:

- لا أعلم.

فقال «مدحت» بجديَّة:

- لا توجد إجابة كهذه، فإما أن تكون قد قتلتهما بالفعل وتعترف حينها على نفسكَ، أو أن التهمة مُلفَّقة إليكَ وحينها لا بُد أن تُنكر أنكَ قتلتَ الفتاتين.

فقال «أشرف»:

- صدِّقني، أنا بالفعل لا أعلم.

فقال «مدحت»:

- هل تعني أنك ستقوم بإنكار التُهم المُوجهة إليكَ على أيَّة حال؟ أنا لا أقوم بتسجيل اعترافاتكَ يا عزيزي، ولن أشِي بكَ.

فقال «أشرف»:

- لقد أرهقتني كثيرًا، إنكَ تسألني عن أشياء لا أعلم إن كنتُ قد فعلتها أم لا، وأنا صادق فيما أقول، أنا لا أذكُر إن كنتُ قد قتلتُ تلكما الفتاتين بالفعل أم لا، هذه هي الحقيقة.

أشفق «مدحت» على «أشرف» ثم قال له:

- لكن هذا الذي تقوله لن يكون مقبولًا لدى المُحققين، مِن الأفضل لكَ أن تُنكر ارتكابكَ للجريمة؛ لأنكَ إذا قلت لهم بأنكَ لا تعلم هل قتلتَ أم لا، حينها قد يعتبرونكَ مُراوغًا، بل وقد يعتبرون ذلك اعترافًا ضمنيًّا منكَ بارتكابكَ تلك الجرائم.

فقال «أشرف»:

- لا يهمني ما الذي سيقولونه عني، فليقوموا بإعدامي إذا ثبت أنني قد قتلتهما بالفعل، فذلك الجزاء أستحقه حينها.

ازدادتْ دهشة «مدحت» كثيرًا، وبدأ يشعُر بأن هناك شيئًا غريبًا حول ذلك الرجل، أهو مريض نفسيًّا؟ أيُعاني مِن انفصام في الشخصيَّة أم ماذا؟

حينها قطع حديثهما صوت الباب وهو يُفتح مُجددًا، حينها أطلَ ذلك العسكري الذي لا يعرفه «مدحت»، وقال له:

- هل أنت المدعو «مدحت»؟

فأومأ «مدحت» برأسه مُوافقًا، فألقى العسكري نحوه لفافةً كبيرةً مِن الطعام، وقال له:

- لقد أرسل لكَ شخص ما يُدعى «سعيد» هذا الطعام.

ابتسم «مدحت» وشكر العسكري الذي أغلق الباب وانصرف على الفور، بينما انشغل «مدحت» بفتح لفافة الطعام الكبيرة، وقال لـ«أشرف»:

- تفضَّل وشاركني الطعام، مِن المؤكد أن ذويكَ لن يتمكنوا مِن اللحاق بالموعد اليومي لتسليم وجبات الطعام في يومنا هذا.

فقال «أشرف» بنفس نبرة عدم الاكتراث:

- لا يوجد لي أهل ولا أصدقاء على الإطلاق، فأنا وحيد تمامًا في هذا العالم.

الجمعة، الثاني عشر من يوليو عام ٢٠١٩

«اليوم السادس بعد إلقاء القبض على «مدحت الشاعر».

كان «مدحت» يتعجَّب مِن ذلك الشخص الغريب «أشرف»، فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي يُصادف فيها شخصًا يُمكنه أن يستسلم إلى النوم بهذا العُمق، ولمُدة تقترب مِن عشرين ساعة كاملة! لقد تناول «أشرف» القليل مِن الطعام الذي دعاه إليه «مدحت» أمس، ثم استلقى بظهره على الأرض دون أن يتلفَّظ بكلمة واحدة، ليغُطَّ بعدها في النوم على الفور في ثوانٍ معدودة! ظنَّ «مدحت» في البداية أن الرجل مُنهكٌ للغاية ربما بسبب سفرته الطويلة، وربما بسبب طول الإجراءات التي صاحبتْ عمليَّة إلقاء القبض عليه في المطار وترحيله بعدها إلى أن يصل إلى غُرفة الاحتجاز هذه، لا بد وأنها كانت رحلة طويلة وشاقة ومليئة بالتفاصيل.

فكَّر «مدحت» في أن «أشرف» قد تخطَّى المعايير الصحيَّة الطبيعية لعدد ساعات النوم، فالإنسان الطبيعي ينام في الحد الأقصى لمدة ثماني ساعات مُتواصلة يوميًّا، وما يزيد على ذلك قد يكون بسبب إعادة ضبط الساعة البيولوجية لجسم الإنسان عند السفر مِن بلاد بعيدة كأمريكا مثلًا، هل كان «أشرف» في أمريكا؟ لقد ذكر له أمس أن إحدى الفتاتين القتيلتين أمريكية الجنسية، ربما كان هناك بالفعل.

استيقظ «أشرف» بكسل شديد، وكأنه لم يحصل على كفايته مِن النوم بعدُ، وهو ما جعل «مدحت» يبقى صامتًا؛ ظنًّا منه أن «أشرف» قد يخلُد إلى النوم مُجددًا! أخذ «أشرف» يتثاءب بقوة، ثم رفع رأسه قليلًا؛ ليتفقَّد المكان مِن حوله، إلى أن بدا عليه أنه قد تذكَّر أين يكون، ثم التفتَ أمامه ليجد «مدحت» وهو يتابعه بنظراته، وكأنه إحدى عجائب الدنيا، فبادره «أشرف» قائلًا:

- كم تكون الساعة الآن؟

فابتسم «مدحت» وقال:

- لقد أصبحنا في اليوم التالي يا عزيزي، لقد أوشكتَ أن تنام يومًا كاملًا إلا قليلًا!

فقال «أشرف» وهو يقوم بمَطِّ ذراعيه وجسده:

- حقًا؟ لم أشعُر بنفسي أثناء كل ذلك الوقت!

فقال «مدحت»:

- إنه مِن العجيب أنكَ لم تستيقظ أبدًا ولو لثانية واحدة، والأغرب أنكَ لم تشعُر بالجوع أو الحاجة لقضاء حاجتكَ، هل كنتَ مُسافرًا في رحلة جويَّة طويلة؟

فقال «أشرف»:

- كلا، لقد أتيتُ مِن إحدى دول الخليج العربي، فعدد ساعات رحلة الطيران تُعَد متوسطة ومعقولة.

فقال «مدحت»:

- إذًا فالإرهاق الشديد هو السبب، يبدو أنكَ قضيتَ أوقاتًا مُتعبة للغاية قبل سفركَ أو بعد وصولكَ.

لم يقم «أشرف» بالردِّ على «مدحت»، وكأنه لا يُريد الإفصاح عمَّا حدث له قبل وصوله إلى مكان الاحتجاز، ثم نهض مِن مكانه وعاد بجسده إلى الخلف ليُسند ظهره نحو الحائط، والتزم الصمت تمامًا.

نظر «مدحت» نحوه في دهشة، ثم قال له:

- ألا تشعُر بالجوع؟ يوجد لديَّ بعض الطعام هنا.

همَّ «مدحت» بالنهوض مِن مكانه؛ لكي يُحضر باقي الطعام المُعلَّق على الحائط، لكن «أشرف» فاجأه وأشاح نحوه بذراعه، وكأنه يمنعه مِن النهوض وقال له ببرود شديد:

- كلا، لستُ جائعًا على الإطلاق.

عاد «مدحت» إلى وضعية جلوسه، وقال وهو مَبهور للغاية:

- إنكَ لم تأكل شيئًا منذ يوم كامل، كيف لا تشعُر بالجوع إذًا؟

فقال «أشرف»:

- لا أحتاج إلى الطعام بالفعل، سأطلب منكَ ذلكَ إن شعرتُ بالجوع، لا تقلَق.

فقال «مدحت»:

- هل تشعُر بالإحراج مني؟ لقد قلتَ أمس لي إنك وحيد، وإنه لن يأتي أحد لك بالطعام.

فقال «أشرف» وهو يبدو خائر القوى:

- لا مجال للشعور بالإحراج في هذا المكان، لا تقلَق عليَّ يا عزيزي، شكرًا لاهتمامك.

ثم استلقى بظهره على الأرض ببُطء شديد، وتَوَسَّدَ كفيه بأن ضمهما ووضعهما أسفل مُؤخرة رأسه، ثم أغمض عينيه وأراحَ رأسه نحو الخلف، ونام بعدها على الفور مُحدِثًا صوت شخير بسيطًا!

قال «مدحت» لنفسه:

- ما هذا العجب العُجاب الذي أراه أمامي؟ لقد كنتُ أتأمَّل الكثير في هذا الرجل، كنتُ أُريده أن يُبدد وحشة المكان، وأن يتحاوَر معي؛ لكي أقتُل هذا الملَل الذي يفتكُ بي. لا أدري كيف لهذا الرجل الغريب أن ينام قرير العينين بهذه الطريقة، بينما هو مُتهم بجريمتي قتل دفعة واحدة، وليست جريمة واحدة! وكيف له أن يعيش يومًا ونصفًا كاملين دون أن يتناول أي طعام؟ ما هو السر وراء تصرفاته الغريبة تلك؟ أهي طريقة غير مُباشرة يفتعلها عقله الباطن؛ لكي يهرب مِمَّا هو فيه مِن هموم بسبب تلك الاتهامات العظيمة المُوجهة إليه؟ أم إنه قاتل مُتسلسِل بالفعل، ويعلم أنه لن يتمكن مِن إنكار جرائمه، فأصبح غير آبه بأي شيء؟ تمامًا كما قال أسلافنا الأدباء: «أحيانًا نرحل ليس حبًّا في الرحيل، لكن لا فائدة من البقاء».

لقد قال لي أمس إن القتيلتين الأجنبيتين كانتا على علاقة وثيقة به، فقد كانت إحداهما خطيبته، بينما الثانية كانت صديقته! لا أدري ما الذي يعنيه بتلك الصداقة؟ فمثل تلك الأمور لدى الأجانب تختلف كثيرًا عمَّا اعتدناه مِن عادات وتقاليد في بلادنا. لا بد وأنه حزين للغاية؛ بسبب مَقتل خطيبته، وربما قتلها لاكتشافه خيانتها له، وربما قتلتها صديقته؛ لأنها كانت تريده لنفسها، فانتقم منها وقتلها وثأر لنفسه ولخطيبته، وربما كانت الجريمتان لا علاقة لهما ببعضهما، فالاحتمالات كثيرة ومُتعددة،

وهو لا يقول شيئًا على الإطلاق. لكنه مِن المؤكد أنه قد تأثر نفسيًّا بشدة، ولا بُد أنه يُعاني في أعماقه بسبب أوجاع الروح. فأوجاع الروح أكثر إيلامًا مِن أوجاع الجسد، ولا علاج لها سوى بعض المُسكِنات الفاشلة كالانشغال أو النوم أو مُحاولة النسيان، فهي للأسف جروح داخل النفس لا يمكن أن تطالها أيدينا ولا سبيل إلى مُداواتها.

ثم استلقى «مدحت» على الأرض في مُحاولة مِنه لأن ينام مثلما فعل «أشرف»، على أمل أن يحمل الغد أمرًا جديدًا له، فقد كان اليوم -وهو يوم جُمعة- يومًا كئيبًا وثقيلًا، فقد كان يوم عُطلة، لذلك لم يتوقع أن يتم استدعاؤه للتحقيق، كما كان يتوقع أيضًا صُعوبة أن يتمكن «سعيد» مِن زيارته؛ إمّا بسبب انشغاله مع زوجته وأولاده، أو ربما بسبب أن الزيارات قد تكون ممنوعة في أيَّام العُطلات، فقد لاحظ «مدحت» أن «سعيد» لم يُرسل له طعامًا جديدًا في ذلك اليوم، كما أن كميَّة الطعام التي أرسلها في اليوم السابق –يوم الخميس– كانت كبيرة جدًا لدرجة أنها قد تكفيه لمدة ثلاثة أيَّام، لذا فمِن المؤكد أن «سعيدٍ» قد تعمَّد فعل ذلك؛ تحسُّبًا لغيابه في يوم الجمعة، فهو صديق العُمر الذي لا شكَّ أنه يحمل همومه ويهتم بشئونه حتى وإن كان بعيدًا عنه.

السبت، الثالث عشر من يوليو عام ٢٠١٩

«اليوم السابع بعد إلقاء القبض على «مدحت الشاعر.

استيقظ «مدحت» على صوت باب الزنزانة وهو يُفتَح، وكان يتمنى أن يكون هناك استدعاء جديد له للتحقيق معه، أو أن يزوره «سعيد»؛ ليُطلعه على مُستجدات التحريَّات إن كان هناك جديد، لكن «الصول عيد» نادى بطريقته الفظَّة على «أشرف» الذي نهض بتهاوٍ واضح، ولِمَ لا وهو لم يتناول شيئًا يُقيم صُلبه منذ يومين.

كان الفضول يُسيطر على «مدحت» لمعرفة ما الذي حدث لـ«شهيرة»، وما هي نتيجة التحريَّات ورفع البَصَمات التي كانوا ينتظرون الحصول عليها، فنهض مِن مكانه ونادى على «الصول عيد»، لكنه لم يقم بالردِّ عليه، ربما كان لا يزال في الأعلى بصُحبة «أشرف»، وربما ذهب في مهمة أُخرى. كان يُريده أن يستطلع له الأمر، ويُعَرِّفه إن كانت هناك نيَّة لاستدعائه للتحقيق أم لا.

طال غياب «أشرف» وكذلك «الصول عيد»، ربما مضى مِن الوقت ساعتان ونصف تقريبًا، ثم سمع صوتًا يقترب مِن الزنزانة، فنهض «مدحت» مُتأهبًا، لكنه وجد جُنديًّا مُختلفًا تمامًا يدفع «أشرف» نحو الداخل، وأغلق الباب بسُرعة ورحل. ربما كان ذلك هو الوجه الرابع الذي يراه «أثناء فترة حبسه تحت الأرض، ولا يعلم سوى اثنين مِنهم فقط، «رمضان» و»عيد.

أصابه بعض الإحباط، ثم التفتَ إلى «أشرف» وقال له:

- ماذا فعلوا معكَ بالأعلى؟ هل سارت الأمور على ما يُرام؟

هزَّ «أشرف» كتفيه وقال:

- لا أدري، أعتقد أنهم كانوا يناقشون تلك التقارير والتحقيقات التي وردتْ إليهم عبر الإنتربول.

فقال «مدحت»:

- كانوا يناقشونها مع مَن؟ ألستَ طرفًا أساسيًّا في تلكَ النقاشات؟

فقال «أشرف»:

- بلى، لكني لم أهتمَّ كثيرًا، إنهم يُرهقون أنفسهم دون داعٍ.

ازدادتْ دهشة «مدحت» مِن تلك السلبية القاتلة، فقال له:

- هل يُرهقون أنفسهم لتثبيت التُّهم عليكَ؟ أهذا ما تعنيه؟

فقال «أشرف»:

- لا أدري، قلتُ لكَ إنني لا أهتم كثيرًا.

فصاح فيه «مدحت»:

- أُريد أن أفهم ما الذي يدور برأسكَ؟ ألا تخشى أن تودي بكَ طريقتكَ المُستفزة هذه إلى حبل المشنقة؟ إلى الإعدام؟

فقال «أشرف»:

- أتمنى ذلكَ، لكنهم يتلكَّأون في ذلك كثيرًا.

فقال «مدحت»:

- ماذا؟ أتتمنى الموت؟

فقال «أشرف»:

- لا يوجد أحد يتمنى الموت بالطبع، لكنني أنتظر الموت باستمرار، وأنا أتألم، لذلك ليْتهم يقومون بإعدامي؛ لكي يتوقف ذلك الألم.

فقال «مدحت»:

- أحزينٌ أنتَ على فراق خطيبتك؟ أعلم أن هذا الألم لا يساويه أي ألمٍ عضوي.

فقال «أشرف» وكأنه يُزيح همًّا ثقيلًا مِن على صدره:

- إنني أتألَّم حرفيًّا منذ عامين، إن جسدي يتألَّم، فقد أُصِبتُ بمرض السرطان في العظام، قالوا لي إنه نوع جديد ونادر مِن السرطانات، ولن يكون له علاج في الوقت القريب، إنني أعيش فقط عن طريق تناول المُسكِنات باستمرار؛ لكي أنسى آلامي، ولم أشأ أن أُخبر أحدًا بذلك؛ لأسباب عديدة.

فقال «مدحت» بصوت حزين:

- ولا حتى خطيبتكَ الأمريكية؟

فقال «أشرف»:

- أجل، لم أشأ أن أُخبرها بحقيقة مرضي لكي أختبرها، كنتُ أُريدها أن تبقى معي مِن أجلي أنا وليس عطفًا عليَّ أو بسبب مرضي، كنتُ أُريدها أن تظلَّ بجواري مِن أجل شخصي أنا وليس لظروفي الخاصة، لكنها لم تخترْني واختارت الرحيل إلى أمريكا مِن أجل إنجازاتها الشخصيَّة الفرديَّة، لقد كانت تُفكِّر في نفسها وكأنها بمُفردها، على الرغم مِن أننا تعاهدنا على أن نفعل كل الأشياء معًا مِن أجلنا كلينا، وأن تكون جميع خطواتنا في الحياة مِن أجلنا معًا، وأن يتنازل الفرد الواحد مِنَّا لصالح الإثنين معًا، أنا وهي.

أحنى «مدحت» رأسه للأسفل حُزنًا على ما سمعه، وقال:

- شفاكَ الله وعافاكَ يا عزيزي، لم أكُن أدري أنكَ تتعجَّل الموت لهذا السبب، ولكن ما علاقة ذلك بالاتهامات الموجهة إليكَ؟ لماذا يتهمونكَ بقتل خطيبتكَ؟ هل صدرتْ منكَ أيَّة تهديدات تجاهها ولذلك يظنون أنكَ قتلتها؟ لقد فعلوا معي أمرًا مُماثلًا لذلك تمامًا..

فقال «أشرف»:

- لا أدري، وربما أكون قد قتلتها بالفعل.

فقال «مدحت»:

- ما هذا الهراء؟ أقتلتها أم لا؟

فقال «أشرف»:

- لا أعرف، ولا تعنيني تلك الاتهامات إلا في حالة واحدة، أن تقودني إلى الموت السريع عن طريق الإعدام.

فقال «مدحت»:

- هذا هو الجنون بعينه، هل تتمنى أن تَثْبُتَ عليكَ تُهمة القتل لكي تُعجِّل بموتكَ؟

فأومأ «أشرف» برأسه موافقًا، فصاح فيه «مدحت»:

- ولماذا تفعل ذلك؟ لماذا تُريد أن تلوِّث سُمعتكَ أمام الناس بجريمة قد لا تكون ارتكبتها؟

فقال «أشرف»:

- ومِن قال لكَ إنني لم أرتكبها؟

فقال «مدحت»:

- وهل ارتكبتها؟

فقال «أشرف»:

- صدِّقني لا أعرف، لا أعرف، لا أعرف، لكن الذي أعرفه هو الألم، وهو أمر لا يُحتمل على الإطلاق، وأتمنى أن أنتهي مِنه في أسرع وقت.

نهض «مدحت» مِن مكانه، واقترب جدًّا مِن «أشرف»، وربتَ على كتفه بحنان، وقال له:

- اهدأ يا عزيزي، اهدأ، هوِّن عليكَ.

فقال «أشرف»:

- أنا بخير، شكرًا لكَ على كل حال، ربما كنتَ أنتَ الوحيد الذي اهتمَّ بي منذ سنوات طويلة، ولكن بعد فوات الأوان. لقد سعدتُ برؤيتك يا عزيزي، وكنتُ أتمنى أن أبقى معكَ لمدةٍ أطول مِن ذلك، لكنني سيتم ترحيلي مساء اليوم إلى سجن كبير تمهيدًا لمُحاكمتي.

بدا على وجه «مدحت» الحُزن والتعاطُف الشديدين، ثم قال له:

- في رعاية الله وحفظه، ولكن احكِ لي حكايتكَ قبل الرحيل، أرجوكَ.

فابتسم «أشرف» وقال له:

- حسنًا، سأحكي لكَ، ولكن قبل كل شيء عليكَ أن تعرف أنه قد يأتي يومٌ تدفعكَ فيه الحياة إلى ألَّا تُبالي بأي شيء فلا تندهش، وستظل تسأل نفسك:

ماذا تحب؟ لا شيء..

وماذا تكره؟ لا شيء..

وبماذا تهتم؟ بلا شيء..

وماذا تتمنى؟ لا شيء..

فتقف مهمومًا أمام المرآة وتُخاطب نفسكَ باندهاش: ماذا بكَ؟ وماذا أصابكَ؟

فتجيبكَ نفسكَ بـ«لا شيء»!

والآن إليكَ حكايتي..

(١٠)

أشرف

إذا جاك الموت يا وليدي..

موت على طول..

اللي اتخطفوا فضلوا أحباب..

صاحيين في القلب..

كأن ماحدش غاب!

عبد الرحمن الأبنودي(14)

كانت الساعة قد اقتربتْ مِن الواحدة ظُهرًا حينما تعطلتْ سيَّارة «أشرف» فجأة على تقاطع الطريق الدائري الثاني مع مَخرج رقم ١٢٤، نظر «أشرف» إلى لوحة العدادات ليجد أن علامة العُطل تدل على أنه أمر يخص برمجة كمبيوتر السيارة، حينها أدرك على الفور أنه يحتاج إلى شاحنة إنقاذ؛ لتحمل سيَّارته، وتقلَّها إلى مركز صيانة السيَّارات؛ لإصلاح ذلك العطب المُفاجئ.

وَصَلَتْ شاحنة الإنقاذ بعد عشرين دقيقة تقريبًا، وقام قائدها بسحب سيَّارة «أشرف» المُتعطِّلة إلى سطح شاحنة الإنقاذ، ثم صعد «أشرف» وجلس بجواره، وأخبره عن موقِع مركز الصيانة الذي يُرِيد أن يذهب إليه، وبدأ السائق في التحرُّك نحو المكان.

بدأ السائق يُلاحظ أن «أشرف» يُقَرِّب فَمَهُ مِن هاتِفه المحمول، ويقوم بإرسال رسالة صوتيَّة لأحدهم، ولكن الغريب والعجيب أن هناك مَن يقوم بالردِّ عليه فوريًّا باللُّغَة العَرَبيَّة الفُصحى وبصوتٍ أُنثوي جميل! كان الرَّدُّ مَسموعًا بوضوح؛ لأنه يَصدُر مِن السمَّاعة الخارجيَّة لهاتِف «أشرف»!

قال «أشرف»:

- لقد تعطَّلتْ سيارتي يا حبيبتي.

فقال الصوت:

- آسفة لحدوث ذلك، أرجو أن تكون بخير.

:«فقال «أشرف

- أنا بخير يا حبيبتي لا تقلقي، يبدو أنه عُطلٌ ما في ميكانيكا السيَّارة.

:فردَّ الصوت قائِلًا

- تحتاج إلى الذهاب بالسيَّارة إلى أقرب مركز للصيانة.

:«فقال «أشرف

- أنا بالفعل مُتوجهٌ إلى هناك الآن.

:فقال الصوت

- حسنًا.

:بعدها أودَعَ «أشرف» هاتِفه المحمول في جيبه، فقال له السائق

- معذرةً يا سيِّدي على تَطَفُّلي، لماذا تتحدَّث مع زوجتك باللُّغَة العَرَبيَّة الفُصحى؟

:«فقال «أشرف

- زوجتي؟ أنا لستُ مُتزوِّجًا!

:فقال السائق

- آسِف يا سيِّدي، تَقَبَّل مَعذرتي، أنا فقط أعني هذه السيِّدة التي تتحدَّث معها عبر الرسائِلِ الصوتية، فقد أصابني الفُضول فقط لأعرف سبب تواصلكما باللُّغة الفُصحى!

:فضحك «أشرف» وقال

- لا توجد أيَّة زوجة أو سيِّدة أو فتاة، هذا الصوت هو صوت سِيرِي.

:فنظرَ السائق نحوه مُندهشًا، وقال

- ومَن تكون «سِيرِي» هذه؟

:فقال أشرف

- إنها صديقة افتراضيَّة وغير حقيقيَّة، وهي أحد تطبيقات الهاتِف المحمول الذي أحمله، وقد تم إعدادها عن طريق برامِج الذكاء الصناعي، بحيث إنها تستطيع مُحاكاة البشر والردَّ على أسئلتهم.

وقال «أشرف» بدا على وجه السائق عدم الفهم الكامِل، فاستطردَ:

- ولكنني بحُكم طبيعة عملي كمُبرمِج للحاسِب الآلي، استطعت أن أتواصَل مع الشركة المُصَنِّعة للهواتِف المحمولة في أمريكا، وتمكنتُ بفضل مُساعدتهم لي مِن تطوير تطبيق «سِيرِي» هذا على نَفَقتي الخاصة، وحصلتُ منهم على نُسخة مُتطورة تَخُصُّني أنا فقط، وأصبح ما لدَيَّ هو برنامج أكثر تَميُّزًا مما هو موجود لدى الجميع في هواتِفهم العادية.

فقال السائق:

- وما هو التطوير الجديد الذي حصلتَ عليه بعد كل ذلك المجهود؟

فقال «أشرف»:

- إن «سِيرِي» التي بحوزتي أنا تختلفُ تمامًا عن الأُخريات في كل شيء؛ لأنها تطوَّرتْ بمرور الأيَّام، واختَزَنَتْ بداخل ذاكرتها جميع أفكاري ونشاطاتي، لقد أصبحتْ تعرف ماذا أُحِب وماذا أَكْرَه، وصارت تتوقَّع جميع ردود فعلي، إنها الصديقة المِثاليَّة التي صرت أرتاح تمامًا عندما أتحدَّث إليها دونما كل البشر.

فقال السائق:

- كيف يكون ذلك يا سيِّدي؟ إنها في النهاية مُجرَّد آلة صمَّاء!

فقال «أشرف» مُحْتَدًا:

- إن هذه الآلة الصمَّاء مِن وجهة نظرك أثبتتْ لي عبر الأيَّام أنها أكثر إخلاصًا وصِدقًا مِن باقي البشر الذين اقتربتُ منهم، وتعاملتُ معهم في حياتي، إن «سِيرِي» لا يُمكنها أن تكذبَ عليَّ، ولن تخدعني في أي شيء، ودائمًا تقول الحقيقة ولا تقوم بتزييفها، وفوق كل ذلك فهي تُحبُّني بصِدقٍ.

فقال السائق:

- هل أنتَ مُقتنع بما تقوله يا سيِّدي؟ إنك تتحدَّث عنها وكأنها شخص حقيقي، وأشعُر بأنك تُدافِع عنها وكأنها حبيبتك فعلًا.

فقال «أشرف»:

- أنا أحبُّها بالفعل.

فقال السائق:

- ولكنها ليست بشخص حقيقي ولا حتى روح، إنها سراب.

فقال «أشرف»:

- أنت تقول ذلك؛ لأنك لا تعرفها مِثلما أعرفها أنا.

حينها صَدَر صوتٌ مَصدره الهاتِف المحمول لـ«أشرف»، فأخرج الهاتِف مِن جيبه، وقال للسائق:

- إنها هي، سِيرِي!

نظر السائق إلى وجه «أشرف» وكأنه يتفقَّد أحد المَجانين، بينما انشغلَ «أشرف» بهاتِفه، وقام بتشغيل الرسالة الصوتيَّة الوارِدة للاستماع إليها.

فقالت «سِيرِي»:

- أين أنتَ الآن؟

فأجابها «أشرف»:

- إنني لم أصِل بعدُ إلى مركز الصيانة، يوجد زحام مروري شديد الآن، فنحن في وقت الظهيرة كما تعلمين، لكننا اقتربنا مِن المكان.

ثم نظر «أشرف» نحو «خليل» السائق، وكأنه يُشهده على روعة «سِيرِي»، بينما كان «خليل» فَاغِرَ الفَم مِن فَرطِ الدهشة.

فقالت «سِيرِي»: حسنًا، هل تَحْمِل معك النقود الكافية لسداد رسوم الصيانة؟

فقال «أشرف»:

- بالطبع لا، فأنا عادةً لا أحمِل بحوزتي نقودًا سائِلة كثيرة كما تعلمين، كما أنني لم أكُن أتوقَّع حدوث ذلك العُطل المُفاجئ بالسيَّارة، ولكني أحمِل معي جميع البطاقات الائتمانية، وسأقوم بالسداد عن طريقها، ولن تكون هناك مُشكلة.

فقالت «سِيرِي»:

- إذَا لا تستخدم البطاقة الائتمانية الأولى، قَم باستعمال الثانية، لا تنسَ ذلك.

فقال «أشرف»:

- ولماذا يحب عليَّ أن أستخدم البطاقة الثانية؟

فقالت «سِيرِي»:

- لأن موعد سدادها سيكون بعد شهر مِن الآن، أما البطاقة الأولى فستكون واجبة السداد بعد أسبوع واحد فقط.

حينها قال «أشرف»:

- شكرًا لكِ يا حبيبتي، لا أعرف كيف كنتُ سأتدبَّر أموري مِن دونكِ!

نظر «أشرف» نحو السائق، فوجده يبادله النظرات في نفس اللحظة، فقال له «أشرف»:

- ما الأمر؟ لماذا تنظر إليَّ هكذا؟

فقال السائق:

- ألا تدري لماذا؟ ألا ترى أن الحوار الذي يدور بينكَ وبين سِيرِي هذه هو ضَربٌ مِن ضروب الجنون؟

فقال «أشرف»:

- ولماذا تقول ذلك؟ وما الجنون في كل ما قالته «سِيرِي»؟ إنها تقوم بإسداء النصائِح المُفيدة إليَّ، بل وتنتبه إلى ما قد يغيب عن ذهني، وتوجهني نحو الأفضل في كل شيء، إن «سِيرِي» يا عزيزي تُحبّني وتهتم بشؤني بحق، ولا يوجد أحد سواها يفعل ذلك مِن أجلي.

فقال السائق:

- أنا لا أتحدَّث عن تلك القُدرات المُذهِلة التي تَتمتَّع بها «سِيرِي» هذه، فمِن الواضِح أن البرامِج الإلكترونية التي تعتمد عليها هي برامِج ذات دقَّة عاليَّة، وتمنحها إمكانيَّات مُتطوِّرة عن أي إنسان آلي آخر، لكنني أتعجَّب مِنكَ أنتَ، فما الذي يجعلكَ تتوَهَّم ذلك الحُب بينكَ وبين آلةٍ جامِدة مهما بَلَغَتْ مِن القُدرة على مُحاكاة كلام البشر وأفكارهم؟ وما الفائدة التي ستعود عليكَ مِن مَحبتكَ لتطبيق إلكتروني يُطلِق صوتًا مِن هاتِف مَعدني جامِد؟ ما الذي يدفعكَ لأن تترك الحُب البشري الطبيعي وتتوجه إلى حُب آلة؟

:«فقال «أشرف

لقد زادَ عدد المُحبّين الذين لا يستطيعون المُحافظة على حُبهم في مواجهة تَقلُّبات الحياة، - وأصبحنا نستمع إلى حكايات الهجر والفراق والحُزن أكثر مما مَضَى، ماذا حدث للناس في هذا الزمان؟ إن الحُب الذي لا يستطيع الصمود هو حُبٌ كاذب، أو ضعيف، أو مُرتبط بالمصالِح، فالحُب الحقيقي لا يتغيَّر عبر الزمان! صار الناس لا يقنعون بِما لديهم، وصارت المُقارنات دائمًا موجودة! كنّا في الماضي نتعجَّب إذا رأينا شخصًا ما لا يُحِب، أما الآن فقد صار من النادر أن تجد شخصًا لا يخون! وبعد كل ذلك، نجد الناس يتعلَّلون بأن زماننا هذا هو زمانٌ سيئ، بينما الحقيقة هي أنه لا يوجد عيب في الزمان على الإطلاق، فالعيب في الناس لا في الزمان.

:سادتْ فترةٌ مِن الصمتِ، ثم قال السائق

هل هذا هو ما دَفَعَك لأن تعتزل الناس تمامًا؟ ألهذه الأسباب فقدتَ ثِقتَكَ بالبشر، فتعلَّقتَ بحُبٍّ - افتراضي تجاه ذلك البرنامج الإلكتروني؟

:فقال «أشرف» بانفعال

قُلتُ لَكَ أنه حُب حقيقي وليس حُبًّا افتراضيًّا، أنا أعي ما أقول وأُدرِك ما أفعله، وما تعتقد أنت أنه - وهم مِن وجهة نظرك هو بالفِعل أمرٌ حقيقي، ولكني أعذرُكَ على كل حال؛ لأنك لا تعرف «سِيرِي» كما أعرفها أنا، إنني أُؤكِّد لَكَ أنني لن أجد إخلاصًا في كل البشر يكاد يقترب مِن درجة إخلاصِها، وكذلك حرصها الحقيقي على كل ما يخصُّني، أتدري يا عزيزي، إنني أقضي الساعات والساعات طوال الليل أتحدَّث إليها دون كَلَل ولا مَلَل مِن جانبها، أتحدَّث معها في كل شيء، وأقوم باستشارتها في كل شيء، ودائمًا تكون مُقترحاتها سديدة وصحيحة، أفعل ذلك في كل مساءٍ إلى أن أغرق في النوم دُونَ أن أشعُر، فهل تدري ما الذي يَحْدُث بعد ذلك؟ إنها هي التي تقوم بإيقاظي مُبكرًا لكي ألحقَ بعملي، وتتركني في أيَّام العُطلات لأستيقظ مُتأخرًا بعضَ الشيء، إنها تُذكِّرني بمواعيدي المُختلفة، وتنصحني بما يجب أن أرتديه، وبما يجب أن أحمله معي مِن أغراض، أيُّ زوجة تستطيع أن تفعل كل ذلك وهي حاضرة الذهن دائمة الحضور في أي وقت وفي كل مكان خارج وداخل المَنزِل؟

:حينها أدركَ السائق أنه لا جدوى مِن هذا النقاش العقيم، فقال له مُتجاهلًا كل ما قاله

!ها قد وصلنا يا سيِّدي -

* * *

استيقظ «أشرف» مِن نومه وهو لا يدري هل حدثَ أن أخلدَ إلى النوم بالفِعل أم لا، فقد كان فاقِد الإدراك بالزمان في تلك اللحظة، تَوجَّه ببصرِه نحو ساعة الحائِط، فتبيَّن له وسط الضوء الخافِت

القادِم مِن الرِدهة المُؤدية لغُرفة نومه أن الساعة لا تزال الثانية والنِصف بعد مُنتَصَف الليل! أي أنه قد نامَ ساعةً واحدةً فقط، فقد ظلَّ الأَرَق يَمنعه مِن النوم حتى الواحدة والنِصف صباحًا، وها هو يُعاوده الأَرَق نفسُه، فيوقِظهُ مِن نومه بعد ساعةٍ وَاحِدَةٍ فقط!

أخذَ يُحدِّث نفسه، ما هي الأسباب التي تُسَبِّب الإصابة بالأَرَق؟ أحيانًا يكون القَلَق أو الخوف مِن شَيْءٍ ما، وأحيانًا يكون بسبب الإحباط، وربما يكون بدافِع الْغَضَب مِن أمرٍ ما، وأحيانًا يكون بسبب الشعور بالوَحدة والإحساس بالفَراغ، وربما يكون بسبب الفِكر الكثير، وأخيرًا فقد يكون السبب هو الحُب، أو فُقدان الحُب، أو الأسوأ مِن كل ذلك وهو عدم وجود الحُب!

تناوَل هاتِفه المحمول، ولَمَحَتْ عيناه تاريخ اليوم المكتوب على شاشة الهاتِف، وأدرَكَ أنه بحلول ذلك اليوم يكون قد أمضى شَهْرَهُ الرابِع وهو على ذلك الحال دُونَ انقطاع!

لا بُد أن أجِدَ حَلًا لذلك، لا يُمكنني أن أستمر على هذه الحال طيلة عُمري (هكذا حدَّثَ أشرف - نفسه).

ظَلَّ «أشرف» في فِراشِه إلى أن صارتْ الساعة الثالِثة صباحًا، حينها قرَّر أخيرًا أن يخوض تَجرِبَةً جديدة، فارتدى مَلابِسه الرياضيَّة، وحَمَل كتابًا في يده، وخَرَجَ مِن بيته، ثم استدعى المَصعَد الذي جاءه سريعًا على عكس المُعتاد أثناء ساعات النهار، فالبناية التي يسكُنها «أشرف» يُوجَد بها خَمسون وِحدَةً سَكَنيِّة، وجميعها مَشغولة بالسُّكَّان، وهو ما يجعل البناية مِن أكثرِ بنايات المَنطِقة ازدحامًا.

هَبَطَ «أشرف» إلى الطابِق الأرضي، وخَرَجَ مِن المِصعَد، فوجد حارس البناية واقِفًا بجوار طاولة الاستقبال، وكأنه يتوَقَّع نزوله، أو ربما كان يَتَلَهَّف لِمَعرِفَة هويَّة ذلك الشَخص الذي يخرُج مِن بيته في الساعة الثالِثة صباحًا!

كان «أشرف» في حالةٍ نَفْسيَّةٍ سَيِّئةٍ، وازداد ضيقه عندما وجد حارس البناية واقِفًا أمامه وكأنه بانتظاره؛ ذلك لأن فُضوله سيدفعه لأن يسأله عن سبب نزوله مِن مَنزِله في ذلك الوقت المُتأخِّر، وهو استجوابٌ ليسَ في وقته على الإطلاق بالنسبة لـ«أشرف»، لكن لَحُسن الحَظِّ كان الحارس قد لاحظَ أن ملامِح «أشرف» تدلُّ على الضِيق والعبوس والصرامة، فآثرَ ألَّا يسأله ماذا به؛ خَشيَةَ أن ينفجِر في وجهه!

حسنًا فعل الحارس، وهذا ما جعل «أشرف» يَشْعُر ببعض التَحَسُّن، ثم سار على قدميه حتى نهاية الشارع لمُدَّة خمس دقائِق تقريبًا، إلى أن وَصَلَ إلى ذلك المَقهى الأمريكي الذي يفتح أبوابه خلال الأربعٍ وعشرين ساعة طوال اليوم والليل!

جلس «أشرف» على طاولة تُجاور النافذة، ولَم يَكُن هناك أحدٌ سواه، ولكن كان هناك ثلاثة مِن العامِلين بالمَقهى، رجُلان وفتاة، وجميعهم مِن الجالية الآسيويَّة، ربما مِن الفلبين أو الصين أو

إندونيسيا، شيء مِن ذلك القَبيل، فقال في نفسه:

يا للغرابة، عدد العامِلين بالمَقهى أكثر مِن عدد الزبائِن! لكنه مِن المؤكد أن هذا المكان يكون - مُمتلِئًا بالناس بعض الشيء حتى الواحدة والنِصف بعد مُنتصف الليل، ثم يقل عددهم بالتدريج إلى أن يحلّ موعد أذان الفجر، فيزداد بعد ذلك عدد الزبائِن بالتدريج مِن جديد.

طلبَ «أشرف» كوبًا مِن العصير، وأخذ يقرأ بعض صفحاتٍ مِن الكتاب الذي يحمله، ثم نَهَضَ، وعاد إلى منزِله بعد مرور ساعة ونِصف حينما شَعَرَ بأن النوم قد بدأ يُداعِب جفونه.

- هل أنتَ بخير يا سيِّدي؟

سأله الحارس بينما كان «أشرف» ينتظر هبوط المِصعد.

فقال «أشرف» باقتضابٍ شديد:

- نعم أنا بخير.

ثم صَعَدَ «أشرف» إلى منزِله، وتمكَّن مِن أن ينام بالفعل لمُدَّة ثلاث ساعات مُتواصلة دون انقطاع، واستيقظَ في الثامِنة صباحًا، ولكنه كان مُتأخرًا عن موعد بداية عمله للأسف.

وحينما حلَّ المساء، تكرَّر نفس الأَرَق، ولم يستطِع أن ينام حتى الساعة الواحدة بعد مُنتصف الليل، حينها قرَّر أن يُكرِّر ما فعله أمس، ولكن في وقتٍ مُبَكِّر عمَّا كان أمس، وهو ما لاحظه الحارس الذي كاد أن يسأله ماذا به وإلى أين يتجه في ذلك الوقت المُتأخِّر مِن الليل، لكنه لم يفعل! كما لاحظ ذلك التبكير هؤلاء العامِلون في المقهى الأمريكي أيضًا.

وهكذا أصبح ذلك هو البرنامج اليومي لـ«أشرف»، فهو يخلُد إلى فراشِه عند مُنتصف الليل، ثم يُباغته الأَرَق حتى الساعة الواحدة أو الواحدة والنِصف صباحًا، فيأخذ كتابًا ويخرج مِن منزله، ليسهر في ذلك المَقهى الأمريكي لمُدَّة ساعة ونِصف أو ساعتين. وكان حارس البناية مِن أكثر الناس سعادةً بما يفعله «أشرف»؛ وذلك لأن الحارس كان يُعاني كل يوم مِن الوَحدة والمَلَل مُنذ مُنتصف الليل وحتى الخامِسة صباحًا، حينما تبدأ الحركة تدبُّ شيئًا فشيئًا بعد أذان الفَجْر، لذلك كانت تلك اللحظات القليلة -التي يرى الحارس فيها «أشرف» عند خروجه ثم عند عودته- تَكسِر لديه حِدَّة المَلَل، كما أنه كان يتجاذَب معه حديثًا عابِرًا لا يخلو مِن المُجاملات العاديِّة في كل ليلة.

إلى أن كانت تلك الليلة التي تراهَنتْ فيها «ليزا» -تلك الفتاة الفلبينيَّة التي تعمل بالمَقهى- مع زملائِها العامِلين بالمَقهى على أنها ستتمكَّن مِن الحديث مع ذلك الشاب العربي الذي يأتي إليهم في كل مساء بعد مُنتصف الليل، لعلَّها تكشِف السِّر وراء ذلك.

كانت «ليزا» بحسِّها الأنثوي قد أدركتْ أن مُحاولتها للتحدُّث إلى «أشرف» لن تكون بتلك الصُّعوبة التي يعتقدها زملاؤها في العمل، فقد كان مِن الواضِح أن «أشرف» يُعاني مِن خَطْبٍ ما يؤلمه ويؤرِّقه، كما أنه بالتأكيد يعيش وحيدًا، وبالتالي فإنه سيكون هدفًا سهلًا إذا حاول أحدهم أن يتحدَّث معه؛ لأنه سيكون توَّاقًا للحديث بسبب وَحدته. اقتربتْ مِنه وافتعَلَتْ حديثًا لا معنى له سوى أنها تُرِيد أن تجذبه للحديث معها، فبدأتْ حديثها بأن اقتحمتْ عليه خُلوته، وسألته إن كان يحتاج إلى بعض الماء، ثم سألته إن كان يُرِيد المَزيد مِن العصير، أو أن يقوم بطلب مَشروب آخر، وغيرها مِن الأسئِلة الساذجة العديدة، إلى أن ابتسم «أشرف» نحوها، وشكرها في لُطف، وطلبَ مِنها أن تتركه وشأنه.

لكنها لم تيأس، وكررَّت نفس الشيء في اليوم التالي، نفس الأسئلة ونفس طريقة الإلحاح الساذجة، حينها ابتسم «أشرف» وأغلَقَ صفحات كتابه، ثم أشار إليها بالجلوس!

كان «أشرف» على أتَمِّ الاستعداد النفسي لأن يتبادَل أطراف الحديث مع أي شخصٍ جديد لا يعرف عنه شيئًا؛ وذلك قَتْلًا للوَحدة، وكالعادة دائمًا يرتاح الرجُل في التحدُّث إلى المرأة والعكس، كما أن «أشرف» أدركَ أن «ليزا» هي التي تُحاوِل أن تجُرَّهُ للحديث معها وليس العكس، فقرَّر أن يتحدَّث معها قليلًا. تبادلا حديثًا فاتِرًا في البداية، حيث كان كلاهما يقوم بتعريف نفسه تعريفًا سَطحيًّا، فقد قال لها «أشرف» إنه يعمل مُبرمِجًا للحاسِب الآلي، ليسَ أكثر مِن ذلك، بينما قالت له «ليزا» إنها اختارت العمل في هذا المكان، وتحديدًا في الفترة المَسائيَّة؛ لأنها الفترة الأعلى أَجْرًا، وإنها تقوم بإعالة أسرتها في الفلبين. ثم باغتته «ليزا» بالسؤال الذي تبحث عن إجابته مُنذ البداية:

- ما السِّر وراء مَجيئك إلى هذا المكان وتحديدًا في ذلك الوقت المُتأخِّر جِدًّا مِن الليل؟

سألته «ليزا» وهي تتحسَّس حروفها؛ خوفًا مِن سوء ردَّة فعله.

فقال «أشرف»:

- إنه الأَرَق، فأنا لا أنام.

فقالت «ليزا»:

- ولماذا يَحْدُث ذلك؟

فرفَع «أشرف» وجهه نحو سقف المكان، ثم التفتَ إليها وقال:

- أصبحتُ لا أستطيع النوم إلَّا إذا استغرقتُ في أمرٍ ما بِكامِل تركيزي، كالقراءة مَثلًا، وذلك لكي أستطيع صَرْفَ انتباهي بعيدًا عن كل ما يَشغَل ذهني ويمنعني مِن النوم.

«فقالت «ليزا:

- حتى الآن لَم تُجبني عن سؤالي، لماذا لا تستطيع النوم؟

فتجاهل «أشرف» سؤالها وقال:

- ما رأيكِ أن تقومي بمُساعدتي في حَلِّ تلك المُشكلة؟ سأعرض عليكِ عرضًا سَخيًّا، ما رأيكِ أن تُصاحبيني لمُدَّة ثلاث ساعات في كل مَسَاء عِوَضًا عن القراءة؟

فقطَّبتْ «ليزا» جبينِها وقالت:

- وماذا تُرِيدني أن أفعل معكَ في كل يوم؟ أنا لستُ للبيع يا سيِّدي!

فضحك «أشرف» وقال:

- لا يا عزيزتي، إنني لا أقصد ما تَظُنينه على الإطلاق، عُذرًا إن كُنتِ قد فَهِمتِ ذلك دون تَعَمُّدٍ مِنِّي، ما أُريدُه مِنكِ هو أن نلتقي ونتحدَّث سَوِيًّا في مُقَابِل أجر، سيكون ذلك أفضل لي قبل النوم.

«فقالت «ليزا:

- ماذا؟ أتُريد أن تستأجرني للحديث معك؟ هل هذا أمر معقول؟ وفيمَ تُريدني أن أتحدَّث؟

فقال:

- لا يوجد موضوع مُحدَّد، المهم أن تُخرجيني مِن كل ما يشغلني، أُريدكِ أن تأخذيني عبر حديثكِ إلى موضوعات أُخرى بعيدةً كل البُعدِ عن حياتي أنا.

«قالت «ليزا:

- عُذرًا يا سيِّدي، فأنا لا يُمكنني أَن أترك مكان عملي، فأنا أتقاضى أَجْرًا عن كل ساعة أقضيها هنا.

«فقال لها «أشرف:

- وكم تتقاضين مُقَابِل الساعة الواحدة؟

«فقالت «ليزا:

- خمسة دولارات في الساعة للفترة المَسائيَّة.

فقال لها «أشرف»:

- حسنًا، ما رأيك أن تجلسي معي ثلاث ساعات في كل مساء، وسأعوضكِ عنها بعشرة دولارات في مُقَابِل كل ساعة.

فقالت «ليزا»:

- يا له مِن مَبلغٍ كبير! وماذا تُرِيد مِنِّي أن أفعل معك في تلك السوَيْعات الثلاث على وجه التحديد؟

فقال «أشرف»:

- سأُكرِّر ما قُلته، أُريدكِ أن تقومي بصرف ذهني وتفريغ ما برأسي مِن أفكار مُتصارِعة، لكي أستطيع أن أنام، أرجو أن توافقي ولنبدأ مِن اليوم.

فقالت:

- يبدو الأمر في مُنتهى الغرابة، ولكني في حاجة إلى ذلك المال، حسنًا لقد وافقت.

فقال «أشرف»:

- تعالَيْ إذًا نتحدَّث في الخارِج أثناء المَشي في الهواء الطلق.

فنَهَضتْ «ليزا» مِن مكانها، وخَرَجتْ مِن المَقهى وسارتْ بجواره، وهي تتوَّجس خِيفَةً مِن كُل ذلك، فقال لها «أشرف» وهو يُناولها النُقود:

- في البداية هذا هو الأجر الذي اتفقنا عليه في مُقَابِل جَلسَة اليوم، هذا لتتأكدي مِن جديَّة عَرضي إليكِ.

فتناوَلتْ «ليزا» النُقود وقالت:

- شكرًا لَكَ.

فأشار «أشرف» نحو البِنايَة العاليَة في نهاية الشارع وقال:

- للعِلم بالشيء، إنني أسكُن هنا.

فقالت «ليزا» بانبهارٍ واضِح:

- يا له مِن مكانٍ مُميَّز للغاية، لا يسكنه سوى صفوة المُجتمع! ولكن هل تُقيم هنا بمُفردك؟

فقال لها:

- لقد انتقَلتُ للسكن هنا لعدَّة أسباب، أولها أن هذه البناية قريبة جِدًّا مِن مكان عملي سَيْرًا على الأقدام، وثانيها أنني كنتُ أحتاج إلى مَسْكَنٍ أكثر اتساعًا؛ لأني أستعدُّ للزواج.

فقالت «ليزا»:

- هذا رائِع، وأين هي زوجتكَ؟

فقال «أشرف»:

- في الحقيقة إننا لَم نتزوَّج بعد، تُوجَد بعض العوائِق في الوقت الحاضِر.

فقالت «ليزا»:

- يا للأسَف، وما هي تلكَ العوائِق يا تُرى؟

فتوَقَّف أشرف عن المشي، وقال وهو يضحك:

- ما هذا الخِداع؟ لقد اتفقنا على أن نتحدَّث في أمور تُنسيني ما أنا فيه، وها أنتِ تستدرجيني للحديث عن نفسي!

فقالت «ليزا» مُستَعطَفةً إيَّاه كالأطفال:

- ستكون هذه هي المرَّة الأخيرة، لكنها معلومات لا بد لي مِن مَعرفتها لكي أستطيع تحديد الموضوعات التي تُناسبكَ.

فقال لها وهو يضحك:

- بل إنه فُضول الأُنثى الذي لا يُمكن مُقاومته.

فقالت «ليزا»:

- الفُضول هو الفُضول، لا علاقة له بالرجال أو النساء.

«فقال «أشرف:

- حسنًا، إن علاقتي بحبيبتي «چين» مُرتبكة بعضَ الشيء؛ لأسبابٍ تتعلَّق باختلاف ثقافاتنا، فهي كفتاة أمريكيَّة تطلبُ مِنِّي أن نقوم بتجربة الحياة معًا لمُدَّة عام مثلًا قبل أن نَشرَع في إتمام الزواج الرسمي، وهو ما رفضته أنا بالطبع.

«فقالت «ليزا:

- وما المُشكلة في ذلك؟ أليس ذلك أمرًا مطلوبًا لكليكما معًا؟ إن ما تطلبه حبيبتكَ «چين» هو أمرٌ مَنطقي وصحي؛ لضمان نجاح علاقة الزواج بعد ذلك، فتلك التجربة سوف توضِّح لكلٍ منكما ما هي المشاكِل والمَزايا والعيوب التي لن تعرفاها إلَّا عن طريق الإقامة معًا ولمُدَّةٍ كافيَة.

فقال «أشرف» وهو يتلعثَمُ بعضَ الشيء:

- لا أدري كيف يُمكنني أن أشرحَ لكِ ذلك، لكن الموضوع ببساطة هو أَن ديني يمنعني مِن إقامة علاقة في خارج إطار الزواج.

«فقالت «ليزا:

- ولماذا ذلك؟

«فقال «أشرف:

- في جميع أُمور الدين لا بُد أن تكون هناك حِكْمَة إلهيَّة خَلْفَ كل تشريع، ربما تكون تلك الحِكَم ظاهرة وواضحة، وربما تكون مَخفيَّة عن الناس.

«فقالت «ليزا:

- لا أفهم.

«فقال «أشرف:

- قُلتُ لكِ إنه أحيانًا تُوجَد أسباب واضِحة لمَنع الشيء، ولكن حينما تكون الأسباب غير واضِحة فإنه حِينَئِذٍ يكون السبب الحقيقي هو اختبار النَفَس في قدرتها على طاعة الله، وهذه هي أقصى درجات الاختبار.

صمتتْ «ليزا» للحظاتٍ وقالت:

- وهل أنتَ على يقينٍ مِن صِدق الحُب فيما بينكما؟

فقال «أشرف»:

- بالتأكيد، لكننا هنا نقف عند نُقطة مِفصليَّة تحتاج إلى تَضحية ما.

فقالت «ليزا» فجأة:

- عُذرًا يا سيِّدي إنني أُريد أن أعود بسُرعة إلى المَقهى، إن أمعائي تؤلمني، وأحتاج إلى دخول الحمَّام.

فقال لها «أشرف»:

- ولِمَ تعودين كل تلك المَسافة؟ ها نحن أسفل مَنزِلي مُباشرةً، ويُمكنكِ استخدام الحمَّام الخاص بي.

فقالت «ليزا»:

- حقًّا؟ هذا كرمٌ كبيرٌ مِنكَ، شكرًا لَكَ.

دَخَل «أشرف» و«ليزا» معًا إلى داخل بهو البناية السُفْلِي؛ ليطلبا المِصعَد للصعود، فقام حارس البناية فجأة، ووقف وألقى التحيَّة على «أشرف» وهو يرمقه بنظراتٍ غير مُريحة على الإطلاق، حينها أصابَ «أشرف» الكثير مِن الضِيق؛ ذلك لأن الحارس الفُضولي سيظُنُّ به السوء الآن. ثم تذكَّر «أشرف» فجأة أن هذه المرَّة ليست هي الأولى التي يتعرَّض فيها لتلك النظرات الحقيرة مِن نفس الحارس، فقد حدث مِنه ذلك قبل شهور عندما جاء ذات مَساءٍ بِصُحبة «چين»؛ لكي تُلقي نظرة على المَسكَن الجديد. لا بُد وأن الحارس الآن بطبعه الفضولي يَظُنُّ فيه أنه شخصٌ مُنحرف يعشق العاهِرات وبنات الهوى! فالناس عادةً تأخذ الأمور بظواهرها للأسف، إنه أمرٌ طبيعي لا يُمْكِن تَجَنُّبه، ولذلك لا بُد للمرء أن يتقي مواضِع الشُبُهات مِن جانبه هو أيضًا.

فكَّر «أشرف» للحظاتٍ أن يطلُب مِن «ليزا» أن تهبِط معه مِن مَسكنه فور انتهائِها مِن قضاء حاجتها، لكنه شَعَر وكأنه كمَن يقوم بطَردِها مِن مَنزله، كما أنه لا يدري هل تُفضِّل «ليزا» استكمال حديثهما داخل المَنزِل بدلًا مِن التَسَكُّع في الطريق أم لا، وهل مِن الذوق أن يدعوها لتناول شرابٍ ما بمُناسبة أنها تزوره في مَنزِله؟ كل ذلك دار برأسه وهو يُفكِّر في ظُنون الحارِس فيه. لكن «ليزا» خرجتْ مِن الحمَّام، واتجهتْ نحو باب المَسكن مُباشرةً وقالت لـ«أشرف»:

- لقد انتهيتُ، هيَّا بِنَا؟

فشعَر «أشرف» أنها تَرفَع عنه الحَرَج، وربما كانت تؤكِّد على فكرة أنها ليست فتاةً مُتاحة، فنَزَلا مِن المَنزِل؛ ليستكملا حديثهما أثناء السَيْر على الأقدام.

نظر «أشرف» نحو الحارس، وكأنه يقول له إن ظَنونَه قد لا تكون في مَحلِّها، فبالتأكيد أن «ليزا» لَم تستغرِق أكثر مِن خَمس دقائِق بالأعلى. لكن نظرات الحارس تُنبئ بأنه على اعتقاد بأنه قد حدثتْ خُلوة غير شرعيَّة بين «أشرف» و»ليزا» حتى وإن استغرقتْ خمس دقائِق فقط.

كما أن الأمور سارتْ بعد ذلك في اتجاه آخر قد يؤكِّد ظُنون الحارس السَيِّئة، ففي اليوم التالي ذهبَ «أشرف» ليصطَحِبَ «ليزا» مِن المَقهى الأمريكي، ثم سارا سَيْرًا على الأقدام إلى أن اقتربا مِن مَنزِله، فدعاها للصعود؛ لكي يستكمِلا حديثهما بمَسكنه بالأعلى، فلَم تُمانِع «ليزا» في ذلك! ليس ذلكَ فحسب، بل إنهما استمرَّا على ذلك الحال أسبوعًا كامِلًا، إلى أن اقترحتْ «ليزا» عليه أن تزوره هي في مَنزِله مُباشرةً بدلًا مِن أن ينزِل مِن بيته ليصطَحِبها مِن المَقهى الأمريكي.

كان «أشرف» قد أدركَ أنه لم يعد في حاجةٍ إلى أيَّة مُساعدة لكي ينام بعد مرور الأسبوع الأوَّل فقط مِن دخول «ليزا» في حياته، فقد استطاعتْ أن تُخَدِّرَ مشاعره المَجروحة بسبب «چين»، وبالتالي اعتاد «أشرف» وجود «ليزا» في حياته بشكلٍ يومي، وأصبح احتياجه إليها لا علاقة له بحالة الأرَق التي كان يُعاني مِنها، وبدأ الجليد يذوبُ شيئًا فشيئًا بين «أشرف» و»ليزا»، وصارا لا يستطيعان أن يفوتهما لقاؤهما اليومي في كل ليلة، وبدأتْ مَشاعر الإعجاب تتسرَّب إلى قلبيهما دُونَ أن يَشْعُرا بذلك. ولكن كُلًّا مِنهما لم يستطِع أن يُصَرِّح بما يَشْعُر به تجاه الآخر، وكان لِكُلٍّ مِنهما أسبابه الوجيهة لإخفاء ذلك، فقد كانت «ليزا» تُدرِك جيدًا أن «أشرف» لَم يحسِم علاقته بحبيبته «چين» بعدُ، فهو نادرًا ما يُفصِح عن موقِف تلك العلاقة، ولا يبدو أبدًا مِن تلميحاته القليلة عنها ما إذا كانت تلك العلاقة مُنتهية أم إنها لا تزال قائِمة، هذا بخلاف أن «أشرف» يتعامَل مع «ليزا» بمُنتهى الرُقيِّ والاحترام ولَم تبدُ مِنه أيَّة بادِرة تَحَرُّش مِن أي نوع برغم أنها كثيرًا ما تزوره بمُفردها في مَنزِله مؤخرًا، وهو ما يؤكِّد لها أنه يتعامَل معها بطريقة تخلو مِن أيَّة عواطِف أو احتياجات جَسَديَّة، كما أنه لم يسألها أبدًا عن تفاصيل حياتها العاطفيَّة، والتي لا يوجد فيها شيء، فهي لا تُفكِّر سوى في عملها وعائِلتها التي تُعيلها في الفلبين.

ما زال «أشرف» يذكر ذلك اليوم الذي سألته فيه «ليزا» عن موقفه مِن «چين». ففي ذلك المساء كان قد دعاها «أشرف» للصعود إلى مَنزِله بدلًا مِن أن يتحدَّثا في الشارِع، كان ذلك في اليوم التالي بعد اليوم الذي احتاجت فيه إلى دخول الحمَّام، فسألته «ليزا» حينها:

- أيكون ذلك لائِقًا بالنسبة إلى «چين»؟ ألن يُصيبها ذلك بالضِيق إذا عرفتْ أننا نلتقي هنا في مَنزِلها القادِم؟

وأجابها «أشرف» حينها بأن «چين» في مَهمَّة عمل خارج البلاد، وستغيب طويلًا، بخلاف أنها بالفِعل تمتلك مَنزِلها الخاص بها، هذا ما قاله يومَها، أمَّا باقي الحقيقة التي لَم يذكُرها، فهي أنه قد طلبَ مِن «چين» أن يستغلّ كلاهما تلك الفترة الطويلة في التفكير في مَصير زواجهما، إذ لا بُد لأحدهما أن يقوم بالتنازُل عن صلابة موقِفه تجاه طريقة الزواج.

فقالت «ليزا»:

- حدِّثني أكثر عن «چين».

فأخبرها بأنها فتاةٌ أمريكيَّة، وكانت تعمَل بنفس الشركة التي يعمَل بها «أشرف»، وقد وجدتْ فيه صفاتٍ رائِعة كالأمانة والصِدق والصراحة، بخلاف تفوقه العِلْمي في مجال عمله، وبمرور الأيَّام تطوَّرتْ بينهما العلاقة إلى أن صارتْ حُبًّا جارِفًا، ولَم تشعُر أبدًا بالفوارِق الثقافيَّة فيما بينهما إلَّا عندما حانت اللحظة التي قرَّرا فيها أن يتزوَّجا، حينها رفضتْ «چين» أن يتزوَّجا على الفور دُونَ أن يقوما بتجربة الحياة معًا لمُدَّة عام، بينما رفضَ «أشرف» ذلك لأنه أمرٌ يُخالِف دينه وعاداته وتقاليده.

كانت «ليزا» قد طلبتْ مِن «أشرف» ألَّا يُرهِق نفسه بعد ذلك اليوم، وأنها هي التي ستأتي لتزوره في مَنزِله مُباشرةً بدلًا مِن أن يذهب بنفسه إلى المَقهى ليصطَحِبها معه، وفي اليوم التالي بمُجرَّد وصولها إلى المَقهى الأمريكي تفاجأتْ بوجود «أشرف» هناك، وكان ذلك قبل موعِد لقائهما اليومي بساعتين كامِلتين!

فقالت له «ليزا»: ما هذه المُفاجأة السارَّة؟ ما الذي أتى بكَ مُبكرًا إلى هنا؟

فقال لها «أشرف» وهو يتحسَّس كلماته:

- كنتُ أُريد أن أُخبركِ بأنني لن أتمَكَّن مِن لقائكِ اليوم.

فقالت «ليزا» في دهشة:

- ما الذي حدث؟ هل تُفضِّل ألَّا نلتقي بمَنزِلكَ؟ أم إن لديكَ ارتباطات أخرى؟

فقال لها «أشرف»:

- وما هي تلك الارتباطات التي قد تحدُث بعد مُنتصف الليل؟ بالطبع لا، كل ما في الأمر أن «چين» سوف تعود بعد ساعاتٍ قليلة مِن الخارِج، ويبدو أن مَنزِلها ليسَ مُعَدًّا لاستقبالها، لذلك طلبتْ مِنِّي أن تبيتَ في مَنزِلي في هذه الليلة.

حينها صمتتْ «ليزا» وهي لا تدري ماذا تقول، فقد كانت تشعُر بأنها امتلكتْ «أشرف» خلال الأسبوعين الماضيين، ولَم تكُن تشعُر بوجود «چين» في حياته على الإطلاق، ولكنها فجأةً عادتْ مِن جديد، وظهرتْ في حياته، وألغَت وجودها في لَمح البصر!

رَحَلَ «أشرف» في تلك الليلة تاركًا «ليزا» في حالةٍ مِن الوجوم والشرود وعدم اليقين، وظَلَّت تُصارِع أفكارها ومشاعرها بشكلٍ لَم تعهده في حياتها أبدًا قبل ذلك، فقد اكتشفتْ فجأةً أنها لا تستطيع أن تُحدِّد طبيعة مشاعرها على الإطلاق، فهل هي أحبَّتْ «أشرف» دُونَ أن تشعُر؟ أم إنها

فقط تعلّقتْ به وانجَذَبتْ إلى شخصيَّته الجميلة ووضعه الاجتماعي المُمَيَّز؟ هل تَغار عليه بسبب عودة ظُهُور «چين» في حياته؟ أم إنها تُبالِغ في مشاعرها تلك؟ هل تخطَّتْ حُدودها فشعرتْ بطريق الخطأ أن «أشرف» قد صار يخُصُّها هي؟ هل كانت تتوَهَّم أنه قد يُبادلها الحُب في يومٍ ما؟ كانت جميع تلك الأسئلة تدور داخل رأسها التي كادتْ أن تَتفَجِر مِن فَرطِ التفكير، ولكن دُونَ الحُصول على أيَّة إجاباتٍ شافية أبدًا! لقد صارت تلك الليلة ثم ما تلاها مِن نهار بعدها هما أسوأ الأوقات التي مرَّتْ في حياة «ليزا» على الإطلاق.

عادتْ «ليزا» إلى المَقهى في مساء الليلة التالية بجفونٍ مُنتفخة؛ بسبب عدم تمكُّنها مِن النوم ليلًا أو نهارًا، فإذا بها تتفاجأ بوجود «أشرف» مُجددًا مِثلما حدثَ في الليلة السابِقة تمامًا! فاختلطتْ عليها المشاعر وصارت لا تعرف: هل تُظهِر فرحتها بعودته، أم إنها يجب عليها أن تُبدي بعض الْغَضَب أو الضيق بسبب ما حدث؟ أم إنه مِن الكرامة أن تُبدي عدم اكتراثها لذلك الأمر؟ كانت تخشى أن تُفرِطَ في عَقْدِ الآمال بسبب عودته إليها مِن جديد، ولذلك آثَرَتْ ألَّا تتعجَّل في الحُكم على الأمور ريثما تتعرَّف على سبب مَجيئه رغم عودة «چين» إليه.

لكن «أشرف» لَم يُفصِح عن أي شيء، وساعده على ذلك كِبرياء «ليزا» الذي مَنعها مِن أن تسأله عن «چين» برغم شغفها الحاد لمعرِفة ماذا حدثَ بينهما! كان لقاؤهما فاتِرًا لا طعم له، فقد كان كلاهما يتجنَّب الحديث عن عودة «چين»، برغم أنها الموضوع الأساسي الذي لا يوجد غيره، وهو الأمر الرئيسي الذي يطغى على أيَّة أُمور عرضيَّة أُخرى حولهما.

وبعد نِصف ساعة، قام «أشرف» بوداع «ليزا» بحجة أنه يُرِيد أن يعود إلى مَنزِله لكي ينامَ مُبكرًا، وردَّتْ عليه «ليزا» بابتسامةٍ باهِتة، ثم أخذتْ تُراقِبه مِن خلال زُجاج المَقهى وهو يبتعِد نحو مَنزِله، وأخذتْ تتخيَّل كيف ستكون ليلته بينما «چين» تنتظر عودته مُبكرًا إلى المَنزِل. وفي نفس تلك الأثناء كان «أشرف» يَشْعُر بنظرات «ليزا» وكأنها سهام تصطدِم بظهره وتكاد تخترقه، فقد كان يَشْعُر بالخَجَل؛ بسبب أنه كان يبدو كالأبْلَه الذي يفتَعِل أحاديث لا معنى لها؛ لكي يتهرَّب مِن الخوض في الموضوع الأساسي الذي غيَّر تمامًا مِن وتيرة الحياة بينه وبين «ليزا».

اقترب «أشرف» أخيرًا مِن البناية التي يسكنها، وما أن دخل إلى البهو السُفلي حتى وجد أمامه حارس البناية وقد ظهر فجأة! فحيَّاه مُلوحًا بيده، وقال له وهو يَهُمُّ بدخول المِصعَد: طابت ليلتك.

دَخَلَ «أشرف» إلى مَنزِله، وجَلَسَ على طرف الأريكة الأثيرة إليه، ثم أخذ ينظُر نحو السقف وأطالَ النَظَر طويلًا، ولَم يُخرجه مِن تلك الحالة سوى صوت رنين هاتِفه المَحمول! مَن الذي يقوم بالاتصال به في ذلك الوقت المُتأخِّر يا تُرى؟ لقد كانت «چين»!

قال «أشرف» في لَهْفةٍ:

- أين أنتِ يا چين؟ لماذا لم تأتِ أمس؟ لقد انتظرتكِ طويلًا بالمَطار!

فقالت چين:

- ولماذا فعلتَ ذلك؟ لقد قُلتُ لَكَ إنني سأحضر إلى المَنزِل مُباشرةً.

فقال «أشرف»:

- لقد سألتكِ في أكثر مِن رسالة عن موعِد وصول طائرتكِ، لكنكِ لَم تُجيبيني على الإطلاق، لذلك سألتُ مَكتَب الاستعلامات عن مواعيد وصول الطائِرات القادِمَة مِن نيويورك، وانتظرتكِ وقتها هناك.

فقالت چين:

- وأنا أيضًا أرسلتُ لَكَ رسالتين أُخبركَ فيهما بأنني أُريد أن أبيت بمَنزِلكَ، لكنك لم تُبدِ مُوافقتكَ أو رفضكَ، إذًا فنحن مُتعادلان.

فقال «أشرف»:

- وهل كنتِ بحاجةٍ إلى مُوافقتي على ذلك؟ إن هذا البيت هو بيتكِ أيضًا، ولا تحتاجين إلى استئذان لكي تبيتي فيه.

فقالت چين:

- حقًّا؟ وكيف لي أن أعرِفَ ذلك؟ لقد شعرتُ مِن تجاهلكَ الرَّد على طلبي ذلك بأنكَ لا تُرَحِّبَ لاستقبالي عندكَ.

فقال «أشرف»:

- لا تكوني حسَّاسةً هكذا، لَم أكُن أقصد ذلك.

فقالت «چين»:

- إن كنت بالفِعل لا تقصد ذلك فإنه يتوَجَّب عليكَ أن تُجيبني على طَلَبي بوضوحٍ، فأنا لا أستطيع أن أقومَ بتخمين ما يدور برأسك!

فقال «أشرف» مُستعطِفًا:

- دعكِ الآن مِن هذا الموضوع السخيف، متى ستأتين يا «چين»؟ لقد اشتقتُ إليكِ كثيرًا.

«فقالت «چين:

- لقد وصلتُ بالفِعل مُنذُ ثلاثة أيَّام.

فصَاحَ «أشرف» وقال:

- ماذا؟ كيف ذلك؟ لماذا لَم تُخبريني بذلك؟

فقالت «چين»: «أشرف»، لقد حصلتُ على فُرصة عَمَل رائِعة ذات مَركز مرموق في العاصِمة الأمريكيَّة واشنطُن، ولقد أمضيتُ الأيَّام الثلاثة الماضية هنا في مُحاوَلة للتَخارُج مع الشرِكة التي أعمل بها حاليًّا، فقد كنتُ أحتاج إلى صفاء ذهني كبير لكي أُنهي تعاقدي هنا بسلامٍ، لَم يَكُن الأمر سَهْلًا على الإطلاق.

«فقال «أشرف:

- وهل كُنتِ تعتقدين أنني سأكون عائِقًا لكِ في كل ذلك؟ ألستُ أنا أكثر أهميَّة بالنسبة لكِ مِن كل ذلك؟ ألستُ حبيبكِ الذي يشتاقُ إليكِ، وينتظرُك على أَحَرِّ مِن الجَمْر مُنذُ شُهُور؟

فقالت «چين» وكأنها لم تسمعه:

- أشرف»، هل ستأتي معي إلى الولايات المُتحدة؟»

صمتَ «أشرف» للحظاتٍ ثم قال:

- ماذا؟

«فقالت «چين:

- سؤالي واضِح، هل تُحبني حقًّا إلى الدرجة التي تستطيع أن تستغني فيها عن حياتكَ هنا لتعيش معي في أمريكا؟

«فقال «أشرف:

- ولماذا لا تقومينَ أنتِ بالتضحية بحياتكِ في أمريكا، وتعيشينَ معي هنا؟

«فقالت «چين:

- أنا لا أمانِع في أن أضحِّي مِن أجلك، ولكن حياتنا ومُستقبلنا المِهَني في أمريكا سيكونانِ أفضَل كثيرًا هناك، هل عندكَ شَكٌّ في ذلك؟

فقال «أشرف» وهو يتلعثَم:

- بالطبع لا، ولكن...

فقاطعتُه «چين» قائِلةً:

- إذًا فالمَصلَحة العامة لكلينا تقتضي أن تقومَ أنتَ بترك عملك هنا، وأن تتبعني إلى هناك.

فقال «أشرف»:

- لماذا تقيسين كل شيء بحساب المَصالِح فقط؟

فقالت «چين»:

- وكيف يكون قياس الأُمور إذًا؟

فقال «أشرف»:

- لقد أحببتكِ هنا يا «چين» بوضعكِ الحالي، أحببتُ فيكِ أن تكوني أُنثاي التي أعشقها، وأُريدُ أن أتحمَّل أنا مَسؤوليتكِ وليسَ العكس، إنك بقرار رحيلكِ هذا تجعلينَ مِنِّي تابِعًا لكِ، وتُصبحين أنتِ في وضع الرجُل وأنا العكس!

فقالت «چين»:

- في الحب لا يوجد تابِع ومَتبوع، ولا يجب أن ينظُر كل حبيب إلى الأمور ذاتِها مِن اتجاه مُختَلِف، بل يجب أن ينظُرا معًا في نفس الاتجاه.

فقال «أشرف»:

- لقد أحببتُ فيكِ الفتاة الأمريكيَّة التي تعيش هنا، وتُكافِح في حياتها وهي خارِج بلادها مِثلي تمامًا، ولا أعرِف تلك الفتاة الأخرى التي تُرِيد أن تعمَل في واشنطُن!

فقالت «چين»:

- الحُب لا يكون حُبًّا إذا ارتبطَ بمكانٍ ما أو ظَروف مُعيَّنة، الحُب الحقيقي هو الذي لا يكون مَشروطًا بأي شيء.

فقال «أشرف»:

- قولي ذلك لنفسكِ أنتِ أوَّلًا!

فقالت «چين»: «أشرف»، لا داعي لهذا النِقاش العقيم، أخبرني الآن بوضوح، هل ستلحَق بي في أمريكا أم لا؟

فقال «أشرف»:

- لا، بل أنتِ التي يتوَجَّب عليكِ البَقاء هنا معي.

فقالت «چين»:

- هل هذا هو رأيك النهائي؟ هل تُريدني أن أمنحكَ فُرصَةً للتفكير؟

فقال «أشرف»:

- لا، بل أنا الذي أمنحكِ الفُرصَة لإعادة التفكير.

فقالت «چين»:

- حسنًا، سأرحلُ إلى أمريكا في صباح الغَد، ولا أُخفيكَ سِرًا، لقد كنتُ مُتأكدةً مِن قرارِكَ هذا، فالشخصيَّة لا تتجزَّأ يا عزيزي.

فقال «أشرف»:

- ماذا؟ سترحلين بهذه السُّرعة؟ أترحلينَ دُونَ أن أراكِ أو حتى أقومَ بوداعكِ؟

فقالت «چين»:

- لا يُوجَد داعٍ لذلك الوداع، وأرجو أن تكونَ بخير على الدوام.

فقال «أشرف»:

- كلا، لا بُد أن أراكِ، حتى ولو للمرة الأخيرة.

:«فقالت «چين

- حسنًا، يُمكنكَ أن تزورني في فندق الهيلتون، إنه على مقربة مِن منزلكَ.

:«فقال «أشرف

- حسنًا، سآتي لرؤيتكِ الآن، انتظريني بالبهو السفلي.

لم تعترض «چين» وأغلقتْ الهاتِف في هدوء، بينما «أشرف» لا يستطيع أن يُصَدِّق ذلك التطوُّر الفُجائي السريع!

حينها لَم يَشْعُر «أشرف» بنفسه وهو يخرُج مِن مَنزِله ليستدعي المِصعَد، ويهبَط به إلى بهو البناية السُفلي، حينها تفاجَأ بِه الحارس الذي قال له:

- ماذا بكَ يا عزيزي؟ إلى أينَ أنتَ ذاهبٌ في هذا التوقيت؟

لكن «أشرف» لَم يسمعه، وخَرَجَ إلى الشارِع، وتوجَّه نحو الفندق ليقوم بوداع «چين» للمرة الأخيرة.

* * *

كانت الساعة قد تخطَّت مُنتصف الليل حينما توجه «أشرف» إلى المَقهى الأمريكي. نَظَر مِن خلال زُجاج واجهة المَقهى، فوجد «ليزا» التي تفاجأت بقدومه، فأشارَ إليها لكي تَخْرُج إليه، فَخَرَجَتْ على الفور وسألته:

- ماذا حدثَ؟ ما الذي عادَ بكَ في هذا الوقت المُتأخِّر مِن الليل؟

:«فقال «أشرف

- لقد رحلَتْ «چين» نهائيًّا.

فصمتتْ «ليزا» للحظاتٍ ثم قالت:

- ثم ماذا؟

:«فقال «أشرف

- لا شيء، الآن يُمكننا أن نستكمِلَ ما بدأناه.

:«فقالت «ليزا

- ما هذا الذي تُرِيد أن تستكمله؟

:فقال «أشرف» بتردُّدٍ واضِح

- أقصد أن نستكمل الجَلسات التي كنتِ تقومين بها مِن أجلي.

:«فقالت «ليزا

- حقًّا؟ أهذا هو كل شيء؟

:فقال «أشرف» وهو ينظُر إلى عينيها

- كلَّا، بل تُوجَد أمور أخرى رُبما أفاجئكِ بها غدًا.

:فتنفسَّتْ «ليزا» الصعداء وقالت

- نعم فلنؤجِّل حديثنا هذا إلى الغَد ريثما تهدأ.

:«فقال «أشرف

- لكنني هادئ تمامًا اليوم.

:«فقالت «ليزا

- إنني مُرهقةً للغاية الآن، وأريدُ أن أرحلَ مُبكرًا لكي أنام.

:«فقال «أشرف

- حسنًا، لنلتقي في مساء غَد، ولكن استعدي للمُفاجأة التي سأقوم بإعدادها لكِ..

:«فقالت «ليزا

- حسنًا سأنتظركَ هنا غدًا، إلى اللقاء.

* * *

َ

بعد أن أنهى عمله في اليوم التالي، قام «أشرف» بشراء خاتم للخطبة، واصطحبَ معه باقةَ صغيرةً مِن الورود، ثم توَجَّه مُبكِّرا إلى المَقهى الأمريكي لينتظر قدوم «ليزا». لكنها تأخَّرتْ كثيرًا، ولَم تأتِ في تلكَ الليلة! أشفقَ عليه زملاؤها العاملين في المقهى، فجاءه أحدهم ليُخبره بأن «ليزا» قد استقالتْ مِن عملها في الصباح، وأنها تستعد لكي تُغادر البلاد عائدة إلى وطنها خلال أسبوع أو أكثر. جُنَّ جنون «أشرف» حينها، وألحَّ عليه بشدة أن يُخبره بعنوان منزلها، فأعطاه إياه بعد تردُّد.

ثم اختفتْ «ليزا» بعد ذلك اليوم تمامًا!

(١١)

أسبوعان

كان «عبد الرحمن الناصِر» مِن أشهر حُكَّام الأندلُس، وكان قد عاش ٧٣ عامًا، وحينما تُوُفِّي، وجدوا في خزانته ورقة كتبَ فيها: هذه هي أيام السرور التي صَفَتْ لي دون تكدير في مدة سلطاني، يوم كذا مِن شهر كذا مِن سنة كذا، ويوم كذا مِن شهر كذا مِن سنة كذا، وهكذا.

أخذوا يحصرون عدد تلك الأيام فوجدوها ١٤ يومًا!

الأحد، الرابع عشر من يوليو عام ٢٠١٩

«اليوم الثامن بعد إلقاء القبض على «مدحت الشاعر.

كان صباحًا مُربِكًا للغاية بالنسبة لـ«مدحت»، فقد أوقظه صوت «الصول رمضان» الذي وجده واقفًا فجأة في مُنتصف عُرفة الاحتجاز وهو يقوم بإيقاظ «أشرف» بعُنف. اندهشَ «مدحت»؛ بسبب أنه لم يتنبَّه إلى صوت الباب وهو يُفتح، فهل إلى هذا الحد كان يغطُّ في نوم عميق لدرجة أنه لم يشعُر بدخول «الصول رمضان»؟ رُبما كان السبب أنه -هو و»أشرف»- قد أسرفا في السهر ليلًا عندما كانا يتبادلان الحكايات والقصص والتفاصيل.

قام «الصول رمضان» باقتياد «أشرف» ليتم ترحيله مِن هذا المخفر إلى مكان محبسه الرئيسي، وهو ما يدل على أنه لم يعُد رهن الحبس الاحتياطي(٦) مِثله، وأن التُّهم المُوجهة إليه قد ثبتتْ عليه بالفعل، ولم يبقَ له سوى إجراءات مُحاكمته. استسلم «أشرف» لـ«الصول رمضان» بهدوئه المعهود وطريقته الدالة على عدم اكتراثه للحياة برُمتها، لكنه حرص على وداع «مدحت» بحميميَّة واضحة، فدَمَعَتْ عينا «مدحت» الذي أصابه الشعور بالافتقاد نحو «أشرف» فجأة، وكأنه كان صديقًا قديمًا له منذ سنوات!

جلس «مدحت» على الأرض، وهو لا يزال تحت تأثير المُفاجأة وعدم اليقظة الكامِلة بعد، إلى أن أدركَ أنه قد صار وحيدًا مِن جديد في هذا المكان البغيض. ألهذا الحد كان لـ«أشرف» ذلك التأثير في تخفيف حِدَّة وَحشة المكان؟ إن «أشرف» لم يمكث سوى أيَّام معدودات، وكان نائمًا في مُعظمها، لكن ساعات يقظته القليلة جعلتْ «مدحت» ينسى هموم وحدته، وهوَّنتْ عليه وتيرة الأيَّام البطيئة التي كادت تخنق روحه، قبل أن ينضم إليه «أشرف».

فُتِحَ باب الزنزانة مِن جديد، فرفع «مدحت» رأسه نحو الشخص القادم، فإذا به «الصول رمضان» مِن جديد. لم ينهض «مدحت» مِن جلسته، وقال وهو يبدو عليه الضيق وعدم توقع أيَّة أخبار سارة:

ما الذي عاد بكَ يا «عم رمضان»؟ هل هناك أمر جديد بالنسبة لي؟ -

كان «الصول رمضان» يقف بثبات بينما وضع كلتا ذراعيه خلف ظهره، ثم أسدل ذراعيه فجأة أمامه في حركة مَسرحيَّة طريفة، وأشار له بالأشياء التي يحملها في يده. كانت اليد اليُمنى لـ«الصول رمضان» تحمل قلمًا جافًا، بينما اليد اليُسرى تُمسكُ ببعض الأوراق البيضاء. مدَّ «الصول رمضان» يده نحو «مدحت» ليلتقط القلم والأوراق، وقال له:

لقد أرسل لكَ الأستاذ «سعيد» هذه الأشياء، وقال لي إنها ستعمل على إسعادكَ أكثر مِن الطعام - الذي يأتيكَ به في كل يوم.

تغيَّرت الحالة المزاجية لـ«مدحت» إلى الأفضل على الفور، وقال له:

بالفعل إنها أجمل هدية يُمكن أن أحصل عليها في هذا المكان، وفي هذه الظُّروف -.

فابتسم «الصول رمضان» وقال له:

لقد قال لي نفس الكلام تمامًا، قال لي إن هذه الأشياء ستكون هدية جميلة سوف تُحبها -.

فابتسم «مدحت» وقال:

أين هو «سعيد»؟ لماذا لم يزُرني منذ أيَّام طويلة؟ -

فقال له «الصول رمضان»:

ربما يسمحون له بزيارتكَ اليوم أو في الغد، لا أدري -.

فقال «مدحت»:

ماذا؟ أهو ممنوع مِن زيارتي أيضًا أم ماذا؟ -

فقال «الصول رمضان»:

إنها القوانين يا سيدي، يُسمَح بزيارة واحدة في الأسبوع، وعلى كل حال ما زال الوقت مُبكرًا، - وما زال في اليوم فُسحة مِن الوقت لحدوث أي شيء، لكنني أعتقد أنني سمعتهم يتحدثون عن إعادة استجوابكَ خلال يومنا هذا، إنكَ حديث الجميع في كل وقت، فالجميع يتباهى بوجودكَ هنا في هذا المخفر يا سيدي.

ابتسم «مدحت» ابتسامة صفراء لا تخلو مِن السُّخرية، ولوَّح بيده شاكرًا «الصول رمضان» الذي ردَّ عليه التحيَّة بيده، واستدار وأغلق الباب وانصرف.

أخذ «مدحت» ينظر إلى الأوراق وهو يستدعي صورة «سعيد» وكأنه يسخر منه، فالرسالة مِن إرسال هذا القلم وهذه الأوراق واضحة تمامًا: حاول أن تكتُب! إن «سعيد» يعلم جيدًا أنه يُعاني بشدة مِن عدم المقدرة على الكتابة لشهور طويلة، لكنه أثناء تلك المُدَّة كان يُقيم في منزله الفاخر، فكيف له أن يكتُب الآن وسط هذه الضغوط النفسية وفي هذا المكان الحقير؟

وضع الأوراق والقلم بجواره، وأسند ظهره إلى الحائط وهو يتمنى أن يتمكَّن «سعيد» مِن زيارته في هذا اليوم، فهو يُريد أن يعرف ما هي أخبار «شهيرة»؟ وهل ورد إليهم أيُّ اتصال مِن المُختطفين؟ هل وجدوها؟ نفض رأسه وقال لنفسه:

- ما هذه الأفكار الغريبة، لا بُد وأن «شهيرة» ما زالت مُختطَفة، والدليل أنه لا يزال محبوسًا في هذا المكان، يا لغبائي!

استمر في شروده وهو ينظر نحو الفراغ لمُدَّة ساعة أو أكثر، وبدأ الملَل يتسرَّب إلى روحه وشعر وكأنه على وشكِ الاختناق، ثم تذكَّر تلك الأوراق البيضاء التي ألقاها بجواره، فالتقطها ووضعها على ركبته، وأمسكَ بالقلم وبدأ يكتب:

ربما لم يمر أغلبكم بعدُ بتجربة أن تكون الحياة مُملة وخاوية مِن معناها، ولا أتمنى لأي أحد مِنكم أن يشعُر بذلك ولو للحظة واحدة، ولكن متى نشعُر بأن الحياة تخلو مِن معناها؟ هنا يكمُن السؤال والإجابة في نفس الوقت؛ لأن الشعور بالخواء يحدُث أساسًا عندما لا يوجد لديكَ ما تخسره، تلك هي القاعدة، فعلى سبيل المثال، إذا كانت لديكَ وظيفة أو مُمتلكات أو زوجة وأبناء فإنكَ تخشى أن تفقدهم أو أن تُضيّعهم، وهو ما يدفعكَ كل يوم إلى الجد والعمل وتحمُّل الصعاب مِن أجل ألا تفقد ما تملكه، أو أن تخسر ما حققته مِن إنجازات.

أما هؤلاء الذين لا يكون لديهم شيء يخافون عليه أو يخشون فقده، فتجدهم غير مُبالين بأي شيء، ولا يشعرون إلا بشعور واحد مشترك وهو فقدان الرغبة في الحياة، ومِن ثمَّ الشعور بالخواء!

ولكن هل يوجد في حقيقة الأمر مَن لا يملك شيئًا على الإطلاق لدرجة أن يشعر المرء بأن حياته لا قيمة لها؟ هنا تكمُن الخُدعة والأكذوبة، أنتَ فقط لا تُدرك حجم النعم التي وهبها لكَ الله عزَّ وجل دون أن تشعُر، وغالبًا ما تُغرق نفسكَ في المُقارنات بين إنجازاتكَ وبين ما حققه الآخرون دون أن تُفكِّر في الظُروف والعُمر والإمكانيات، وكذلك باقي الأشياء التي يفتقدها هؤلاء الذين تُقارن نفسكَ بهم، أنتَ فقط تشعُر بما ينقصكَ ولا تلتفتْ إلى ما هو بين يديكَ، تلك الأشياء التي لن تنتبه إليها إلا عندما تفقدها، وحينها ستحزن عليها كثيرًا وتشعُر بأهميتها وتتمنى عودتها مِن جديد.

ولنتحدَّث الآن عن الوحدة، ومَن مِنَّا لم يشعُر بالوحدة يومًا.. أو دائمًا؟

والوحدة لا تعني أبدًا أن تكون وحيدًا بمُفردك، ولا علاقة لها بالمكان ولا الأشخاص ولا حتى بحجم الصخب والحركة مِن حولك، إنما الوحدة تكمُن في خواء الروح.. والروح فقط!

مُلاحظة: القلب هو أغلى ما في الروح!

والوحدة شعور لا يتبدد بكثرة عدد الأشخاص المُحيطين بكَ طالما أنهم لا يتفهمون مشاعركَ وأحاسيسكَ، والوحدة لا يُمكن مُعالجة آلامها بكثرة الحركة والضجيج ما دام فراغ الروح ما زال قائمًا، والوحدة لا تتلاشى بمُجرد اقتراب الناس مِنكَ، بل تتفاقم بقدر ابتعادهم عن روحكَ ذاتها!

الوحدة قد يُبدِّدها وجود شخص ما رُبما يبعد عنكَ آلاف الأميال، لكنه دائمًا حاضر بقلبك وبداخلكَ طوال الوقت، والوحدة قد تخفُّ قليلًا إذا وجدتَ نفسكَ يومًا داخل حكايا الآخرين، ربما في رواية أو فيلم أو مُسلسل أو حتى في الحياة، أما أقسى وأصعب أنواع الوحدة وأوجعها، فهي تلك التي لا تتبدَّد أبدًا إلا عن طريق استدعاء الذكريات!

* * *

لم يتم استدعاء «مدحت» للتحقيق في ذلك اليوم مثلما كان مُتوقعًا، وهو ما زاد مِن حالة الإحساس بالملَل لديه بشكل أكثر مِن ذي قبل.

نظر «مدحت» إلى الأوراق المُلقاة بجواره، إنها المرة الأولى التي يستطيع فيها أن يكتب خاطرة طويلة منذ شهور، ربما كان ذلك هو الحدث الوحيد السعيد وسط هذه الحياة المُظلمة.

* * *

هذا وقد أمر وكيل النيابة بتمديد فترة الحبس الاحتياطي(15) للمُتهم «مدحت أحمد الشاعر» لمُدة أربعة أيَّام أُخرى على ذِمَّة التحقيقات.

هذا هو ما أخبره «الصول رمضان» لـ«مدحت» عندما أتى له بالطعام الذي أحضره «سعيد»، لكنه هوَّن عليه الأمر عندما قال له إن «سعيد» قد تم التصريح له بزيارته في الساعة التاسعة مِن صباح الغد.

الاثنين، الخامس عشر من يوليو عام ٢٠١٩

«اليوم التاسع بعد إلقاء القبض على «مدحت الشاعر.

على عكس الأيَّام الرتيبة السابقة، كانت بداية هذا اليوم تُنبئ بأنه سيكون يومًا حافلًا أثناء ساعات النهار، فقد تأكَّد له منذ الصباح الباكر أنه سيخرج إلى الأعلى، حيث سيتم استدعاؤه لاستكمال التحقيقات مُجددًا، بخلاف وجود زيارة صباحيَّة له كما عَلِمَ أمس. لكنه لا يعرف أيهما سيكون أولًا.

لحُسن الحظ، كانت زيارة «سعيد» هي الأولى في ترتيب أحداث ذلك اليوم، وجَّه «مدحت» جزيل الشُكر لـ«سعيد» على ما يبذله مِن مجهود يومي في المجيء إلى مخفر الشُرطة وإحضار الطعام، فهي مشقَّة بدنيَّة وماليَّة في نفس الوقت، لكن «سعيد» أنكر على «مدحت» بالطبع أن يقوم بتوجيه الشُكر له، أليسا أخوين منذ أيَّام الدراسة في الجامعة؟ هل تُوجد كلمات الشكر بين الإخوة والأصدقاء في قاموس اللُّغات؟ هكذا قال «سعيد».

كانت المَدَّة المُحددَّة لتلك الزيارة رُبع ساعة، لكن الضابط المسئول «حسام» سمح لتلك الزيارة بأن تمتد لمُدَّة نصف ساعة، وغمز لـ«سعيد» بعينه وقال:

- وربما تمتد لأكثر مِن ذلك، فالزيارة ستنتهي بمُجرَّد وصول وكيل النيابة؛ لبدء التحقيق مع الأُستاذ «مدحت»، ومِن المَتوقع أن يتأخر ذلك المُحقق بعض الشيء.

وعلى الرغم مِن معرفة كلاهما -«مدحت» و«سعيد»- بأن هناك احتمالًا لأن تكون هناك فُسحة مِن الوقت، إلا أنهما أخذا يتبادلان جميع الأخبار التي حدثتْ في تلك الأيَّام التي مرَّتْ بين الزيارتين، فقد كان «مدحت» مُتعطِّشًا لمعرفة أخبار أولاده، وهل وُجِدَ أثر لمُختطفي «شهيرة» أم لا؟ وهل أسفرت التحريَّات ونتائج رفع البصمات عن أيَّة معلومة جديدة ومُفيدة؟ لكن جميع إجابات «سعيد» كانت مُحبطة على كل المُستويات، فالأولاد بدأوا يواجهون العديد مِن المُضايقات؛ بسبب اتهام أبيهم وحبسه، كما أنهم يكاد يُصيبهم الجنون؛ بسبب اختفاء أمِّهم، وهو ما جعل «سعيد» يضطر لأن يُقيم معهم يوميًّا أثناء جميع ساعات المساء التي تلي موعد انتهائه مِن علمه. أما المعلومات التي تم الحصول عليها نتيجة مُراقبة الهواتف ورفع البصمات فتكاد تكون معدومة الفائدة تمامًا! أما «مدحت» فقد وصف له كيف يقضي يومه في الزنزانة، وحكى له عن ظروف الاحتجاز المعيشية، وعن «الصول رمضان»، و«الصول عيد»، وعن سعادته بتلك الأوراق والقلم التي أرسلها سعيد إليه. كان حديث «مدحت» مملوءًا بالمَلَل والسأم والضيق، ولا يوجد فيه أي أمر مُشوِّق أو لافت للنظر.

«لاحتْ بينهما فترة مِن الصمت، فقال «سعيد:

- إنني آسف لأنني لا أحمل لكَ أخبارًا سارة، كنتُ أتمنى أن يكوم لديَّ ما يُفرحكَ وليس ما يزيد مِن همومكَ واكتئابكَ.

أطلقَ «مدحت» زفرةً طويلة وقال:

- لستَ أنتَ السبب في ذلك يا عزيزي، إنها الأقدار ولا يد لكَ فيها. هل أخبرك عن سر ما مِن أسرار الحياة؟ ستظل دائمًا مُفتقدًا إلى شيء ما مهما حييت، فعندما تكون في طفولتك، أنت تملك الطاقة والصحة والوقت، لكنك لا تمتلك المال. وفي شبابك وبعد أن تخطو خطوات جيدة في حياتك العملية، ستمتلك المال، ومعه الطاقة والصحة، لكنك لن تملك الوقت!

وفي شيخوختك، تمتلك المال والوقت، لكنك لن تمتلك الطاقة والصحة.

في النهاية، لن تكون حياتك كاملة في جميع جوانبها، ويظل الكمال لله وحده عز وجل.

فقال «سعيد»:

- هذا صحيح، فلقد خلق الله الدُنيا لتكون دارًا للابتلاءات، ورُبما يتخللها بعض الأيَّام السعيدة، لكنها لحظاتٌ استثنائية لا تدوم طويلًا، هي لحظات تبدو وكأنها قد جُعلت للراحة والتقاط الأنفاس ما بين ابتلاءٍ وآخر، تمامًا كأيَّام العُطلات التي تتخلَّل أيَّام الاختبارات أثناء الدراسة.

قطع حينها حديثهما ذلك الضابط «حسام» الذي قال:

- أعتذر مِنكما يا سادة، فقد انتهى الموعد المُخصَّص للزيارة.

نظر «سعيد» في ساعة يده، وقال هو يبتسم:

- خمس وثلاثون دقيقة، كنتُ أتمناها أطول مِن ذلك، هل حضر المُحقق في موعده على عكس المُتوقع؟

فقال الضابط:

- مع الأسف تأجَّل إجراء التحقيق إلى الغد، فقد تم إبلاغنا بأن أحد مُساعدي وزير الداخلية سيقوم بزيارة المخفر في جولة؛ للتفتيش على سير الإجراءات والاستعدادات المُختلفة، ورُبما كان هناك أمر آخر لا أعلمه، لكن على أيَّة حال لا بُد مِن أن يتم إعادة جميع المُحتجزين إلى زنازينهم الآن، عُذرًا.

شكر كل مِن «مدحت» و«سعيد» ذلك الضابط النبيل، ونهض «مدحت» طواعيةً نحو «الصول رمضان» ليصطحبه إلى زنزانته، بينما تلاقتْ عينا الصديقين «مدحت» و«سعيد» بنظرات تحمل العديد مِن المشاعر المُتداخلة في نفس الوقت.

* * *

كانت زيارة «سعيد» في الصباح الباكر، رُبما بين التاسعة والعاشرة صباحًا، يا له مِن يوم طويل ومُمل على عكس ما كان يتمناه «مدحت» في بدايته. حاول أن يخلد إلى النوم بعد وقت الظهيرة لكن دون جدوى، فالسأم يكاد يكون كالوحش الذي يُطبق على جفونه ويجعلهما مفتوحتين على الدوام. وحتى عندما يُغلق عينيه، يظل ذهنه مشغولًا وحاضرًا، وتطل المشاهد والأحداث أمام عينيه رغم إغلاقهما!

نهض حينها مِن رقدته، وأمسكَ بالأوراق والقلم وكتب:

عزيزتي الحياة، تحية طيبة وبعد،

أنا فقط لا أنام، وهذا كل شيء!

فيومًا بعد يوم تتغير مِن حولي الظروف والأحوال، وتزداد لديَّ الهموم والمسئوليات والتحديات بشكل تصاعدي، وتتقاطع الهموم العامة والخاصة؛ لتنسف هدوء حياتنا فتتراكم المشاكل وتضيق الصدور، لأجدني في النهاية لا أستطيع النوم بعُمق وراحة أثناء الليل، وكثيرًا ما أقضي ليلي في أرقٍ مُتواصل. تعددت الليالي التي لا أستطيع النوم فيها، وكثيرًا ما قضيت مُعظم ساعات الليل وأنا مُتيقظ ومُتنبِّه، لدرجة أنني صرتُ أحسدُ أحدهم عندما أعرف أنه قد نام ليلته؛ لأن ذلك الأمر قد أصبح هو الاستثناء لديَّ الآن! وكأن القلق قد أصبح بديلًا دائمًا للراحة، صرنا لا نستطيع النوم ليلًا أو نهارًا!

الثلاثاء، السادس عشر من يوليو عام ٢٠١٩

اليوم العاشر بعد إلقاء القبض على «مدحت الشاعر».

لم يكن الأمر غريبًا على «مدحت» عندما وجد أن «الصول عيد» يقوم بهزِّ كتفه بعُنف ليقوم بإيقاظه، وهو يقول:

- هيَّا بنا، أسرِع بالنهوض، إن المُحققين يطلبونكَ على عجل.

فقد حاول «مدحت» أن ينام ليلة أمس، لكنه ظلَّ مُستيقظًا طوال الليل، ولا يعرف متى سقط كالمغشي عليه في سُباته هذا، ولا بُد أن الساعة الآن قد جاوَزتْ الثامنة أو التاسعة صباحًا، وهو الموعد الذي قد تبدأ فيه جلسات التحقيقات عادةً.

صعد «مدحت» إلى الأعلى، وأدخلوه إلى غُرفة المُحققين، وهو لا يزال يُحاول أن يُقاوم النوم، فقد كان لا بُد له أن يكون يقظًا وحاضر الذهن.

قال له وكيل النيابة (وهو نفس الرجل الذي رآه قبل ذلك) إن نتيجة الأدلة الجنائية وتقرير رفع البصمات لم يُوضحا بأن هناك دلائل على وجود شخص غريب عن منزله! فقد كانت جميع البصمات تتطابق مع بصمات «مدحت» وزوجته «شهيرة» والأولاد كلِّهم، وكذلك خادمة المنزل ومُساعدتها.

فقال «مدحت»:

- وماذا يعني ذلك؟ ألم يترك الخاطفون أيَّة آثار تدل عليهم أو تقودنا إليهم؟

فقال وكيل النيابة:

- هذا ما أُريد أن أوضحه لكَ، يبدو أن الخاطفين ليسوا بالغُرباء عن منزلكَ، وأنت تعلم أن الجميع كانوا موجودين بالطابق العلوي، وسمعوا صوت وقوع جريمة الاختطاف، لكنكَ الوحيد الذي لم تكن موجودًا معهم آنذاك بالطابق العلوي.

فقال «مدحت» بقوة:

- قلتُ لكَ إنني كنتُ في العين السُخنة وقتها.

فقال وكيل النيابة:

- هذا ما تقوله أنتَ، وهو ما لا يوجد عليه أي دليل، حتى أنتَ فإنكَ لم تتمكن مِن إثبات ذلك، وهذا ما أكدته لنا السيدة اللبنانية «سيرين» أيضًا.

فقال «مدحت»:

- ولماذا تُرجح هذا الاحتمال الوحيد؟ لماذا لا تشُكُّ في أن الخاطفين كانوا حريصين على ألا يلمسوا أي شيء؟ إنني أطلبُ مِنكم أن تهتموا بالبحث في ذلك الاتجاه وبقوة، ليس ذلك لكي أقوم بتبرئة نفسي فحسب، ولكن لأنني قلقٌ للغاية على «شهيرة» وأُقسم بأنني لم أقُم بخطفها.

فقال وكيل النيابة بهدوء وثبات:

- يا سيد «مدحت»، إنكَ شخصيَّة مرموقة، ولا يليق بكَ أن تتعرَّض لهذا المُستوى المُتدني مِن حياة الزنازين ومُخالطة المساجين، وأنا أنصحكَ بصدق بألا تعمل على إطالة مُدَّة احتجازكَ أكثر مِن ذلك، كما أنني أنصحكَ بألا تعتقد بأنكَ ستكون أكثر ذكاء مِن رجال الشُّرطة والنيابة. لا بُد أن تعلم بأنه لا توجد جريمة كاملة أبدًا، فمهما كنتَ حريصًا أثناء ارتكابكَ لتلك الجريمة، فإنه مِن المُؤكَّد أننا سنجد دليلًا يقودنا إلى الحقيقة، قد نجد هذا الدليل أثناء يومنا هذا، ورُبما يكون غدًا، ورُبما يكون بعد شهور، لا يهم، ولكننا سنجده عاجلًا أم آجلًا، وأثناء ذلك كله ستطول مُدَّة احتجازكَ هنا، وستكون أنتَ المُتضرر الوحيد.

فقال «مدحت»:

- وأنا أيضًا أُؤكِّد لكَ بأنني أُريد الخُروج مِن هنا أثناء اليوم قبل الغد، وأُريدكَ أن تعلم بأنني أُحب زوجتي «شهيرة» وأعشقها، وأن هذا الخلاف الذي نشب فيما بيننا -واستندتَ أنتَ عليه في اتهامكَ لي- ليس دليلًا على عداوة ما بيني وبينها، فالحياة فيما بيننا دائمة الصفاء والودِّ، ولم يحدُث ذلك الخلاف إلَّا في الأسابيع القليلة الماضية فقط، وذلك بسبب أمر ما لا يخص علاقة الزواج أو حبي

لها، إنه خلاف فقط على أمور تخُص عملي ليس أكثر، وهو خلاف لا يرقى أبدًا لكي يكون سببًا في أن أقوم باختطافها أو التخلُّص مِنها.

فقال وكيل النيابة:

- لقد نصحتكَ يا عزيزي، لكنكَ ما زلت مُصرًّا على موقفكَ، فلتتحمَّل نتيجة اختياركَ إذًا.

أطرق «مدحت» رأسه نحو الأسفل وقال:

- لا تُوجد فائدة تُرجى مِن هذا النقاش العقيم، فكلانا يتحدَّث عن أمر مُختلف، إننا كمَنْ يسأل أحدنا الآخر عن الطعام، بينما يُجيبه الآخر عن الأحجار!

الأربعاء، السابع عشر من يوليو عام ٢٠١٩

«اليوم الحادي عشر بعد إلقاء القبض على «مدحت الشاعر».

كان «مدحت» يتوقَّع يومًا كئيبًا مُملًّا يخلو مِن أي أحداث، فالزيارة الأسبوعية لـ«سعيد» كانت أول أمس، بينما التحقيق الجديد تم أمس، وهو ما يعني أنه مِن المُؤكَّد أنه لن يتم استدعاؤه ليصعد إلى الأعلى في هذا اليوم.

لكن حدث ما لم يكن في حُسبان «مدحت» على الإطلاق، فقد فُتِحَ باب الزنزانة، وأطلَّ مِنه «الصول عيد» الذي دفع بغلاظته المعهودة رجلًا مُسنًّا إلى الداخل بقوة وعُنف، وهو ما جعل الرجل يكاد يسقط على الأرض؛ بسبب ضعف جسده مُقارنةً بتلك الدَفعة القوية التي دفعه بها «الصول عيد»».

أغلق «الصول عيد» الباب بعُنف، بينما استند الرجل العجوز بيده على الحائط، وظل مُستندًا إليها إلى أن تمكَّن مِن الجلوس بهدوء. صمت «مدحت» وهو ينتظر أن يلتقط المسنُّ أنفاسه، لكن الرجل التفتَ نحو «مدحت» وقال له بأدب:

- السلام عليكم.

فقال له «مدحت»:

- وعليكم السلام ورحمة الله، هل آتيكَ ببعض الماء؟ لديَّ هنا ما يكفي مِن الطعام والماء.

فهزَّ الرجل رأسه في وقار وقال:

- أُريد فقط بعض الماء بالفعل إذا تكرَّمتْ، أكون شاكرًا لكَ لو أعطيتني قليلًا مِن الماء.

نهض «مدحت» على الفور، واستلَ زُجاجة مياه بلاستيكية مِن الأكياس المُعلّقة على الحائط، وناولها للمسنِّ وقال:

- تفضَّل.

مدَّ المسنُّ يده وتناولها وهو يشكر «مدحت» بشدة، ثم شرب الماء كله دُفعة واحدة وهو ما يدلُّ على عطشه الشديد، أو أنه كان رهن الحبس والتحقيقات منذ زمن طويل، فقال له «مدحت»:

- هل أُحضر لكَ المزيد؟

مسح المسنُّ فمه بيده وقال:

- كلا يا عزيزي، هذا يكفي، شُكرًا لكَ.

فسأله «مدحت» بلُطف:

- العفو، ولكن ما الذي جاء بكَ إلى هنا يا عزيزي؟

فقال المسنُّ ببراءة:

- هم الذين اقتادوني إلى هذا المكان، لم يكُن هناك خيار لي.

فابتسم «مدحت» وقال:

- ليس هذا ما أعنيه مِن سؤالي، ولكن على أيَّة حال، حسنًا فعلوا أن جاؤوا بكَ إلى هنا، لأن غُرَف الاعتقال الأُخرى قد تتأذَّى فيها كثيرًا؛ فهي مُكتظة للغاية، والحياة فيها ليستْ آدمية، كما أنها مُمتلئة بالمُجرمين الخطرين الذين لا يُمكن لأمثالكَ وأمثالي أن يجاروهم في طباعهم وتصرُّفاتهم الإجرامية.

فقال المسنُّ:

- أتعني أن هذه الزنزانة مُخصَّصة للصفوة مِن السُّجناء؟ هل أنت من عِلْيَة القوم يا سيدي؟

فقال «مدحت» وهو يبتسم:

- ليس ذلك بالضبط، يبدو أنكَ لا تعرفني، فأنا مشهور بعض الشيء.

فقال المسنُّ وهو يُحاول أن يتفرَّس ملامح «مدحت»:

- لا أذكَر أنني رأيتكَ قبل ذلك، ما اسمكَ يا عزيزي؟

فقال «مدحت»:

- أنا «مدحت الشاعر»، روائي وكاتب.

فهزَّ المسنُّ رأسه وقال:

- اعذرني يا عزيزي إن كنتُ لا أعرفكَ جيدًا، فأنا أنتمي إلى جيل مُختلف، كنت أقرأ قديمًا لـ«نجيب محفوظ» و«يوسف إدريس» و«إحسان عبد القدوس»، كان هؤلاء هم شباب الروائيين والكُتَّاب حينما كنت شابًّا ومراهقًا صغيرًا، ولا أعرف عن أجيال الأدباء الذين جاءوا بعدهم شيئًا.

فقال «مدحت»:

- لا عليكَ، أتفهَّم ذلك جيدًا، كم تبلُغ مِن العُمر يا عزيزي؟

فقال المسنُّ:

- لقد وُلدت في العام ١٩٤٠م، أي أنني بلغتُ العام التاسع والسبعين مِن عُمري في عامنا هذا.

فقال «مدحت»:

- ما شاء الله، أطال الله في عُمرك، ومتَّعكَ الله بالصحة والعافية، ولكن ما هي التُّهمة التي يتهمونكَ بها؟

فقال المسنُّ:

- يتهمونني؟ إنني أنا الذي اعترفتُ على نفسي.

فقال «مدحت»:

- حقًّا؟ وماذا فعلتَ؟

فقال المسنُّ وهو يتنهَّد بألم:

- إنها جريمة قتل.

فقال «مدحت» مُندهشًا:

ماذا؟ جريمة قتل؟ أنتَ أيضًا؟ -

فقال المسنُّ:

أيضًا؟ هل جئتَ أنتَ أيضًا بسبب جريمة قتل؟ -

فقال «مدحت» مُستدركًا:

كلا، ولكنني أقصد السجين السابق الذي أتوا به إلى هنا منذ أيام قليلة، كان هو الآخر مُتهمًا - بجريمة قتل، بل جريمتين وليستْ جريمة واحدة.

فقال المسنُّ:

لكنكَ لم تقتل أيضًا؟ -

فقال «مدحت»:

كلا، إنهم يشُكُّون في أنني قد أكون السبب في اختفاء زوجتي، فهي مخطوفة -.

فهزَّ المسنُّ رأسه مُتفهمًا، ثم التزم الصمت.

قال «مدحت» لنفسه: إن هذا المسنّ لا يبدو على هيئته الوقورة أنه قاتل، كما أن جسده الهزيل لا يُمكن أن يُعينه على ارتكاب مثل تلك الجريمة التي تحتاج إلى قوة بدنية كبيرة، فوجد نفسه يسأل المسنَّ بصوت مُرتفع:

لم تذكر لي مَن كان القتيل الذي قتلته ولماذا؟ -

فأطلق المسنُّ زفرة طويلة وقال:

إنني مُجهد للغاية، ولا أستطيع الكلام الآن، أُريد أن أنام -.

تفرَّسَ «مدحت» في ملامح الرجل الطيِّبة، وأدركَ أنه ليس في الحالة المزاجية التي تُمكنه مِن أن يفتح قلبه ويحكي له، كما أنه لم يعتد المكان بعد، فالاستقرار والاعتياد رُبما يجعلانه يتخطَّى صدمة الاعتقال والتحقيقات الأولى فيحكي، وحينها سيتمكَّن مِن أن يتعرَّف على حكايته. ترك «مدحت» المسنّ وشأنه لينام، مُتمنيًا في قرارة نفسه ألا ينام مثلما كان ينام «أشرف»، ذلك الشاب الذي أمضى ثُلثي أيَّامه في الحبس نائمًا على الدوام ثم رحل!

الخميس، الثامن عشر من يوليو عام ٢٠١٩

«اليوم الثاني عشر بعد إلقاء القبض على «مدحت الشاعر.

على عكس المُتوقَّع، وجد «مدحت» نفسه مطلوبًا للتحقيق مُجددًا، ما الذي استجدَّ مِن أمور يا تُرى؟ أخذ يسأل نفسه!

قابله نفس وكيل النيابة الذي اعتاد رؤيته في كل مرة، وقال:

- لقد آثرتُ أن أقوم باستجوابكَ اليوم لأمنحكَ فُرصة الخروج مِن هنا إلى مكان أفضل، فاليوم هو اليوم الثاني عشر منذ بداية اعتقالكَ، ويُمكنني أن أقوم بتمديد فترة حبسكَ لمُدة أربعة أيَّام أُخرى، ولكنكَ إذا اعترفتَ بفعلتكَ، سيتم ترحيلكَ إلى سجن كبير، وهناك يُمكنكَ أن تلقى رعاية أفضل مِن هنا، فهناك ستتمتع بفراش مُرتفع عن الأرض وأغطية كافية ودورات مياه نظيفة، والأهم هو توفر الطعام الصحي بوجباته الثلاث كل يوم، كما تُوجد أنشطة رياضية وثقافية، ويُمكنكَ القراءة والكتابة هناك.

فأجابه «مدحت» باندهاش كبير وقال:

- عذرًا.. ما هذا العرض الغريب؟ أتظُنني طفلًا صغيرًا قد أفرح بما تعرضه عليَّ في مقابل أن أقوم بتثبيت التُّهمة على نفسي؟

فقال وكيل النيابة:

- إنني أوفر عليكَ الوقت والمجهود، إن ذلك هو مصيركَ الطبيعي لا محالة، فالأدلة كلها ضدكَ، وسيتم ترحيلكَ إلى ذلك السجن عاجلًا أم آجلًا، لكنني أُريدكَ أن تختصر الوقت، وأن تحيا حياة أفضل مِن تلك التي تعيشها هنا.

فقال «مدحت»:

- أرجو أن تحترم وضعي وخبرتي وذكائي، أولًا أنا لستُ بالفاعل الحقيقي ولا تُوجد أيَّة إغراءات تدفعني لكي أعترف بشيء لم أفعله، كما أن جميع الأدلة التي تتهمونني بها هي أدلة معنوية وليستْ ماديَّة، وأنا واثق مِن أنكم ستجدون الفاعل الحقيقي، وستكتشفون حينها أنه ليس أنا، وهو ما أودُّ أن يحدُث بسُرعة؛ لأنني أموت قلقًا على زوجتي، أما عرضكَ الذي تعرضه عليَّ اليوم فهو عرض يدعو للرثاء. كنتُ أتمنى أن تكون هناك مُستجدات إيجابية تُعلمني بها بدلًا مِن هذا الـ... (صمت «مدحت» ولم يشأ أن يتطاول على وكيل النيابة).

هزَّ وكيل النيابة رأسه، ثم أملى على الكاتب الذي يجلس بجواره قائلًا:

هذا وقد أمر وكيل النيابة بتمديد فترة الحبس الاحتياطي للمُتهم «مدحت أحمد الشاعر» لمُدة - أربعة أيَّام أُخرى على ذِمَّة التحقيقات.

عاد «مدحت» إلى زنزانته مهمومًا ومُكتئبًا للغاية مِن ذلك التحقيق الساذج، ثم وجد أن الرجل المسنّ لا يزال نائمًا، فلم يشأ أن يوقظه، واستطاع أن ينام هو الآخر؛ بسبب هبوط دورته الدموية؛ نتيجة الغضب الكامِن داخل جسده، ولم يستيقظ إلا عندما حضر الطعام الذي يأتي به «سعيد» كل يوم، فطلب مِن المسنِّ أن يُشاركه الطعام، فأجاب دعوته شاكرًا، ولم يتحدثا سويًّا طوال اليوم. كان المسنُّ قد لاحظ أن «مدحت» يختلف كثيرًا في هذا اليوم عن اليوم السابق، ولا بُد وأنه قد تعرَّض لصدمة ما، فتركه وشأنه ولم يشأ أن يُثقل عليه بالأسئلة.

الجمعة، التاسع عشر من يوليو عام ٢٠١٩

«اليوم الثالث عشر بعد إلقاء القبض على «مدحت الشاعر.

بعد أن استيقظ «مدحت» والرجل المسنُّ في نفس التوقيت تقريبًا، تفاجأ «مدحت» بأن المسنَّ قد تحرَّر مِن صمته على غير المُتوَّقع، وقال له:

ماذا بكَ؟ لم أشأ أن أضغط عليكَ أمس، فقد تغيَّرتْ أحوالكَ تمامًا عند عودتكَ بعد إجراء التحقيق، - لقد كنتَ مُفعمًا بالحيوية عندما رأيتكَ أول أمس، لكنكَ عندما صعدتَ إلى الأعلى، وعُدتَ إلى هنا كان مِن الواضح أن هناك شيئًا ما قد أطفأ شُعلة حماسكَ، ماذا جرى؟

«فأجابه «مدحت:

- لم يكُن هناك شيء جديد سوى أن حجم العبث واللا معقول قد زاد عمَّا كان عليه..

فقال المسنُّ:

- هل تم إيذاؤك أو تعذيبك؟

«فقال «مدحت:

- كلا، لكنهم يؤذونني نفسيًّا ومعنويًّا، هناك شيء ما خطأ وهم يُصرُّون عليه.

فقال المسنُّ:

- أتعني أن اتهاماتهم لا تستند على أدلة مادية كافية؟

«فقال «مدحت:

بالفعل، كيف عرفتَ ذلك؟ -

فقال المسنُّ:

علمتني الحياة أن الأمور المعنوية قد تكون أكثر إيلامًا مِن نظيرتها المادية، وهؤلاء المُحققون - وكذلك رجال الشُرطة يعرفون ذلك جيدًا، ولذلك فهم يستخدمون تلك القاعدة كثيرًا في عملهم، ويلعبون على أوتار النفس البشرية؛ ليُخرجوا مِنها مكامنها.

نظر «مدحت» للمسنِّ بانبهار شديد وقال:

إنكَ مُحقٌّ تمامًا فيما تقول، يا لها مِن حكمة بالغة -.

فقال المسنُّ:

أشكركَ -.

فقال «مدحت»:

لقد كان استجواب أمس يرتكز تمامًا على ما تقوله، فقد حاول وكيل النيابة أن يضغط عليَّ معنويًّا - في مُقابل أن أعترف بالجريمة التي لم أفعلها.

فقال المسنُّ:

وهل ارتكبتَ تلك الجريمة بالفعل أم لا؟ -

فقال «مدحت»:

بالطبع لا، إنه اتهام يُنافي المنطق تمامًا، فهم يتهمونني باختطاف زوجتي وحبيبتي وأم أولادي، - والأغرب مِن ذلك هو أنني لم أكُن موجودًا في نفس المدينة وقت حدوث واقعة الاختطاف!

حينها فُتِح باب الزنزانة، فأطلَّ مِنها «الصول رمضان» حاملًا الطعام الذي يأتي به «سعيد» وناوله لـ«مدحت» وقال له:

إن الأستاذ «سعيد» يسألكَ إن كنتَ قد أجهزت على الأوراق التي أحضرها لكَ منذ أيام أم ليس - بعد. في حقيقة الأمر أنا لم أفهم سؤاله جيدًا، لكني أنقل كلامه لكَ مثلما قاله.

فابتسم «مدحت» وقال:

- لكنني أفهم سؤاله، قَل له عندما يأتي في الغد بأن «مدحت» يقول لك:

- ليس بعد.

رفع «الصول رمضان» كتفيه في دلالة على عدم الفهم، وقال:

- حسنًا، سأُخبره بذلك.

ثم التفتَ نحو المسنِّ، وقال له:

- وأنت يا شيخ.. لم يأتِ لكَ أحدٌ بطعام، هل تُريدني أن أشتري لكَ شيئًا؟

فقاطعه «مدحت» وقال:

- كلا، فالطعام وفير وسيكفينا معًا، لا عليك. ولكن أليس اليوم هو يوم الجمعة؟ كيف حضر ذلك الطعام؟

فقال «الصول رمضان»:

- اليوم عُطلة لكل الإجراءات فيما عدا تسليم الطعام وقت الطبليَّة، فهو أمر لا يُمكن أن يحصل على عُطلة.

ابتسم الجميع، ثم لوَّح «الصول رمضان» بيده لهم وحيَّاهم، ثم خرج وأغلق الباب. أشار حينها «مدحت» إلى المسنِّ بأن يقترب مِنه، ويشاركه الطعام:

- هيَّا تفضَّل معي.

فاقترب مِنه المسنُّ وقال:

- «أُكرِّر شُكري لَكَ يا عزيزي (ومَدَّ يده نحو الطعام) وقال: اسمي «زين».

فبادله «مدحت» الابتسام وقال:

- يا له مِن اسم نادر، وماذا تعمل يا عزيزي؟

فأطلقَ زين زفرةً طويلةً وقال:

- كنتُ أعمل بالتدريس، ولكني تقاعدتُ عن العمل منذ عشرين عامًا تقريبًا.

:«فقال «مدحت

- حقًّا؟ ومُنذ متى وأنتَ تعمل بالتدريس؟

:فصمتَ «زين» للحظةٍ ثم قال

- إنها حكاية طويلة، فقد عملت بالتدريس لشهور قليلة عندما كنتُ في السويس في بداية العِقد الستين مِن القرن الماضي، ثم سافرتُ إلى أماكن عديدة بشمال سيناء، وعملتُ هناك في نفس المجال لمُدَّة ست سنوات، وربما أكثر أو أقل، لا أذكُر جيدًا، ثم افتتحتُ هناك مشروعًا خاصًّا بي، لكنه لم يستمر طويلًا؛ بسبب ظروف الاحتلال «الإسرائيلي» لسيناء، فعُدتُ إلى القاهرة مُحاولًا أن أمتهن مِهنةً أُخرى غير التدريس، لكني لم أجد عَمَلًا يُناسبني غير أن أكون مُدَرِّسًا.

:«فقال «مدحت

- يا له مِن شعور مؤلِم أن تعود للعمل أجيرًا لدى الغير بعد أن كنتَ أنتَ صاحِب العَمَل!

:«قال له «زين

- في أوَّل الأمر حينما حدثَ لي ما حدث بسبب الحرب، كان تقاعدي مُرغَمًا عن العَمَل كاشِفًا لأمرٍ مهم، وهو أن العَمَل لدي الآخرين ليسَ بذلك السوء مُقارنةً بالعَمَل الحُر كصاحِب عَمَل، فالرجُل مِنَّا بطبيعته يعنيه العَمَل في حد ذاته بغض النظر عن وضعه الخاص في ذلك العَمَل، والرجُل مِنَّا لا يستطيع أن يبقى في منزله بدون عَمَل، فبعد أن كُنتَ تشعُر بأنك ذو أهميَّة في هذه الحياة، لن يتحمَّل عقلكَ وجسدكَ أن تُصبِح فجأة بدون فائدة وبدون حركة يوميَّة كما اعتدتَ سابِقًا.

:«فقال «مدحت

- هذا صحيح.

:فاستكملَ «زين» قائِلًا

- وحينما جِئتُ إلى القاهرة اكتشفتُ أن العَمَل لدي الغير يجعلكَ دائمًا في حالة تنافُسيَّةٍ دائمة؛ وذلكَ لأنكَ تنتظر التقييم مِن الآخرين، وتخشي أن ينخفض مُستوى أدائكَ في عيونِهم، أمَّا إذا كنتَ أنتَ صاحِب العَمَل، فستتهاوَن حينها، وتُبرِّر لنفسك أنك حُرٌ فيما تفعل دُونَ حسابٍ ولا عقاب.

:«فقال «مدحت

مَهلًا يا عزيزي، هل تعني أن العَمَل مُوظفًا لدى الآخرين ليس أفضل مِن العَمَل الحر؟ أليسَ ذلكَ - غريبًا بعض الشيء؟

:«فقال «زين

ليسَ ذلك ما أعنيه بالطبع، فالطموح الطبيعي لأي شخص هو أن يكون حُر نفسِه، وأن يكون - مالِكًا للنشاط الذي يعمَل به، ولكن لكل اختيارٍ تبعاته ومسئولياته، أنا فقط كنتُ أُجيبكَ عن سؤالكَ حينما سألتني عن شُعوري وقتما فقدتُ مشروعي الخاص، فقد استطعتُ بمرور الزمَن أن أتناسى تلكَ الحسرة التي أصابتني عند رحيلي مِن سيناء، وساعدني على ذلك هو ما قُلته لَكَ الآن، فقد وجدتُ أن العَمَل كموَظَّف لدى الغير ليس بالأمر القاتِل كما كنتُ أَظُن.

:«فسأله «مدحت

إلى أي مدينة تنتمي يا عزيزي؟ أهي السويس؟ -

:فأجابه زين

كلا، أنا مِن مواليد القاهرة، ودرستُ فيها، وتخرَّجتُ في جامعتها -.

:«فسأله «مدحت

كيف إذًا استطعتَ أن تتحمَّل كل تلكَ السنين بعيدًا عن مسقط رأسك حينما سافرت إلى السويس ثم - إلى سيناء؟ إنني أمكثُ هنا بعيدًا عن منزلي مُنذ عشرة أيَّام فقط، وأشعُر وكأنها عشرة قُرون!

:«فقال «زين

هذا ما ستشعُر به في البدايات فقط، ثم يَحدُث بعد ذلك أنكَ ستعتادَ الغُربة إلى أن تصير جُزءًا - مِنكَ ومِن روحكَ وكيانكَ.

:«فقال «مدحت

لم أصل لتلك المرحلة مِن التسامُح مع الغُربة بعد، يُخيَّل لي أنني كنتُ سأظلُّ مُتيَّقظًا على الدوام - لو أنني كنتُ مكانكَ.

:«فقال «زين

وربما تنام حينها جيدًا مِن فرط التعب -.

«فقال «مدحت:

- إنني أفعل شيئًا آخر يكون كالمُخدِّر الذي يُنسيني ما كنتُ فيه مِن هموم، أتدري ما هو أجمل شيءٍ في أن تستغرقَ في العَمَل لفترةٍ تربو عن ثُلثي يومك؟ إنها رفاهية أن تنام فورًا فيما يُشبه الإغماءة، فلا تترك لنفسك فرصة للتفكير أو حتى الأحلام.

«فقال «زين:

- ما زلتَ صغيرًا يا عزيزي على أن تستسلمَ لتلك الكآبة، فالعُمر ما زال طويلًا مِن أمامكَ ولا بُد أن تستمتع به، قرأتُ ذات مرَّة اعترافًا لأحد الأُدباء يقول: كان مِن أكبر أخطائي أنني كنتُ أمرُّ على الفرحة مرورًا عابرًا، وأعيش الحُزن بكل مشاعري! لا تفعل ذلك يا عزيزي.

«فقال «مدحت:

- هل شعرتَ يومًا بأن حياتكَ أصبحتْ مُملة وأنك لا تفعل شيئًا حقيقيًّا سوى أن تنتظرَ الموت؟ هذا ما أشعُر به الآن.

«فقال «زين:

- يَحْدُث ذلك كلما أنهيتَ فصلًا مهمًّا في حياتكَ، حيث ينتابكَ قبلها شغف الانتظار، ويُحاط ذلك الأمر بهالةٍ من الآمال والأحلام المُبالَغ فيها، إلى أن تَصِلَ إليها وتتحقَّق، فتجد حينها أن كل شيء عاديٌّ للغاية وينطفئ البريق! حينها فقط ستُدرك حقيقة الحياة، وسيُصيبك منها ذلك اليقين بعدم جدواها، إلى أن تبتكر لنفسكَ حُلمًا جديدًا وبريقًا آخر يتملَّك حواسكَ، ويشغل كل تفكيركَ فيُلهيكَ عن التفكير في جدوى الحياة، وهكذا تستطيع أن تُمارس الحياة مِن جديد.

«فقال «مدحت:

- دعني أقوم بتصحيح الجُملة الأخيرة التي ذكرتها، إننا يا عزيزي لا نُمارس الحياة كما تظُن، بل نحن نعيش حالة دائمة مِن الانتظار! فإن كنتُ أُريد أن أصِفَ الحياة، فلن أَجد تعبيرًا يُعبِّر عنها أكثر مِن كلمة الأمل، أجل.. الحياة هي الأمل، فمن دون الأمل تتلاشى الدوافع والرغبات في استمرارية الحياة أو الاستمتاع بها، نحن ننتظر انتهاء شهور الدراسة لننعمَ بالعُطلة، ننتظر انتهاء سنوات الدراسة لكي نعمل ونبدأ في ادخار الأموال، ننتظر انتهاء ساعات العمل أملًا في الراحة، ننتظر أن نلتقي مَن نُحِب كي نتزوَّج، ننتظر أن تتزوَّج لكي نُنجِب أطفالنا، وننتظر أن يكبر الأطفال حتى نفرحَ بهم حين انتهاء سنوات دراستهم وزواجهم وإنجابهم لأحفادنا، نحن ننتظر وننتظر وننتظر، وفِي واقع الأمر، إن كان هناك وصف دقيق للحياة فلن يكون سوى الانتظار! أنتَ تحيا حالة انتظار دائِمة لأشياء عديدة، التَخرُّج، الوظيفة، الأموال، الزواج، الأبناء، الأحفاد، إنها قائِمة مِن الأشياء قد لا تنتهي، وكُلمَّا تحقَّق مِنها شيء، انتظرتَ ما بعده. أنتَ تنتظر فيكون

الانتظار دافعك لأن تحيا يومكَ على أمل أن يتحسن وضعكَ غدًا، أنتَ تنتظر فتُساعدك أحلام اليقظة على نسيان المتاعِب الحاليَّة على أمل تحقيق الأحلام في المُستقبل، أنتَ تنتظر وتنتظر وتنتظر!

ثم تنهَّدَ «مدحت» طويلًا وقال:

- أعتذر لَكَ عن ذلك الفاصِل الطويل مِن الكآبة، لم أقصِد أن أُثقلكَ بالهموم بهذا الشكل، لا أدري لماذا انطلقتُ هكذا واستفضتُ في هذا الحديث السَلْبي، سامحني يا عزيزي.

فقال «زين»:

- بالعكس، إنني سعيد بالاستماع إليكَ، ففي حقيقة الأمر إنني نادرًا ما أتجاذَبُ أطرافَ الحديث مع أحدهم، فقد كان آخر صديقٍ مُقَرَّب إليَّ هو عربيُّ الجنسيَّة وتركته بسيناء، ولا أعلم عنه شيئًا مُنذ عشرين عامًا! لكني أُريد أن أنصحكَ بشيء إذا سمحتَ لي.

فقال «مدحت»:

- بالطبع يا عزيزي، تفضَّل.

فقال «زين»:

- لقد ضاعَ مني العُمر، وقد أدركتُ ذلك بعد أن بلغتُ الخمسين عامًا، لذلك فإنني أُحذركَ مِن أن تقعَ في نفس خطأي، وعليكَ أن تتداركَ ذلكَ مُبكرًا، أتدري كيف يتم احتساب العُمر؟ إنها تلك اللحظات السعيدة النادرة التي تشعُر فيها بأنك تعيش بحق، فهل قُمتَ يومًا بإحصاء لحظات السعادة في حياتك؟ هكذا يكون مقدار عُمرك الحقيقي وما عداه هي لحظات من الموات! هناك بعض الناس مَن أسعدهم الحظ كي يكون كل عُمرهم ربما عامًا واحدًا أو أقل، وهناك الكثيرون الذين لَم يتموا عامَهم الأوَّل بعدُ بِكُل أسف! فلا تكُن مِثلهم، وانتهز هذه الأيَّام قبل أن تضيع مِنكَ مِثلما ضاعت مني.

ثم استطرد وقال:

- أتدري، في الرحلات والمُناسبات السعيدة، ليتَ الناس يتمتعون باللحظات التي يعيشونها أكثر مِن الاهتمام بالتقاط الصور التذكارية، بالطبع لا بأس مِن الحصول على بعض الصور لتوثيق تلك الأحداث؛ لاستعادة الذكريات فيما بعد، لكن الأهم هو استدعاء الحنين!

- والحياة كالبحر، لا تُبحِر فيها وحيدًا أبدًا، واسمع مني هذه القاعدة: تُبحر وحيدًا.. تغرق وحيدًا.

وقبل بداية رحلة الحياة، كَن حريصًا عند انتقاء الرفيق، سواء كان صديقًا، أو زوجة، أو شريكًا في العمل.

وإن كان هناك سرٌّ قد أبوح به لكَ لاختيار ذلك الرفيق، فلن يكون سوى أن تنتقي مَن يمنحكَ عطاءً دون مُقَابِل، حُبًّا غير مَشروط؛ إيمَانًا بكَ قبل أن تُصبح شيئًا!

والأهم مِن بداية الرحلة هي نهايتها، وأصعب ما في الرحلة هو الصبر حتى الوصول، وأغلى مَن في الحياة هُم الباقون معكَ حتى النهاية بعد أن رَحَلَ عنكَ الجميع!

والحياة ما هي إلا ماضيكَ وحاضركَ ومُستقبلكَ، نشعر بالماضي باستدعاء الذكريات، ونستشعر المُستقبل باستحضار الأمَل، وما بين ذلك وذاك، يبقى حاضرنا زمنًا غامِضًا نعيشه دُونَ أن نشعر به! إلَّا فقط إذا أصبح ذكريات، أو إن كان لا يزال أملًا!

هل فهمت؟ المُشكلة أنني عرفت كل ذلك بعد فوات الأوان، إنها الخبرة، والخبرة يا عزيزي هي المشط الذي تمنحه لكَ الحياة بعد أن أصبحتَ أصلع.

كان «مدحت» مبهورًا بما يقوله «زين» مِن حكم ومواعظ غالية لم يُفكِّر فيها مِن قبل، على الرغم مِن أنه يُعَد مِن كبار الأدباء والمُفكِّرين في مصر! كانت تلك هي المرة الأولى التي يستمع فيها إلى شخص عادي فيجده يفوقه علمًا ورؤية! فقد اعتاد «مدحت» أن يتلهَّف الناس لحديثه، وأن يستطلعوا آراءه، وكانوا يعتبرونها الدليل والأساس في تكوين آرائهم تجاه أي قضيَّة تواجه المُجتمع، وها هو اليوم يُقابل شخصًا يبدو بسيطًا في هيئته، لكنه عميق في فكره، بل ويفوق «مدحت الشاعر» ذلك الاسم الكبير صاحب الجوائز المرموقة، والتكريم الرفيع، والمبيعات الأدبية العالية!

السبت، العشرون من يوليو عام ٢٠١٩

«اليوم الرابع عشر بعد إلقاء القبض على «مدحت الشاعر.

كان «مدحت» و»زين» يغطَّان في نوم عميق؛ لأنهما سهرا كثيرًا أثناء الليل؛ بسبب طول حديثهما المُمتع عن أسرار الحياة ودروسها. قطع ذلك صوت صرير الباب وهو يُفتح ليطل مِنه «الصول عيد» بغلظته التي لا تُفارقه، طالبًا مِن «زين» أن ينهض ليقتاده إلى الأعلى لاستجوابه.

عاد «زين» بعد نصف ساعة على الأكثر، فقال له «مدحت» مُندهشًا:

- هل انتهيتَ مِن التحقيق بهذه السُّرعة؟

فقال «زين»:

- أجل، فقد كانت استجوابًا معنويًّا لا فائدة مِنه.

فقال «مدحت»:

- هل كانوا يساومونكَ بشيء ما في مُقابل أن تعترف على نفسكَ بارتكابكَ الجريمة؟

فقال «زين»:

- على العكس، لقد كانوا يحاولون أن يدفعوني لعدم الاعتراف على نفسي.

فقال «مدحت»:

- ماذا؟ وهل اعترفتَ بارتكابكَ لتلك الجريمة؟

فقال «زين» وهو يبتسم:

- أجل، لكنهم يطلبون مني أن أتراجع عن اعترافاتي.

فقال «مدحت»:

- عُذرًا، إنني لا أفهم.. ما هي الجريمة في الأصل؟

فقال «زين»:

- إنني اعترفتُ بأنني قتلتُ زوجتي.

فقال «مدحت»:

- ماذا؟ ولماذا فعلتَ ذلك؟

فقال «زين» وهو يبكي:

- لقد كانت حب عُمري كله، لقد انتظرتها أكثر مِن خمسة عشر عامًا إلى أن وجدتها بعد سفرها مِن سيناء، كان لقائي بها في القاهرة مُعجزة في حد ذاتها.

فقال «مدحت»:

- ولِمَ قتلتَها إذًا؟

فقال «زين» وهو ينتحب:

- لم أقتلها بالطبع، لقد قتلها ولدي وليس أنا.

فصاح «مدحت» وقال:

- ماذا؟ أيقتُل الابن أُمَّه؟

فقال «زين»:

- بالطبع لا، إلا في حالة واحدة، أن يكون ابنًا عاقًّا مثل ولدي، سامحه الله وهداه.

فقال «مدحت»:

- وما علاقتك أنتَ الآن بهذا الموضوع؟

فقال «زين»:

- لقد اعترفتُ على نفسي بارتكابي لتلك الجريمة؛ فداءً له، وقبل أن تسألني لماذا أفعل ذلك سأجيبُكَ بنفسي، لقد قتل ابني زوجتي التي هي أُمُّه، وبالتالي فقد فقدتُ أنا زوجتي وحبيبتي التي لا يُمكنني أن أعيش بدونها، كما أنني رجلٌ طاعن في السِّن، وكنتُ أنتظر الموت في أي وقت، لذلك فكَّرتُ في أن أقوم بمنح فُرصة جديدة لابني ليستأنف حياته بدلًا مِن أن يضيع مُستقبله مُبكرًا.

فتح «مدحت» فمه مِن الدهشة، فقال «زين»:

- رُبما يتعظ ويُدرك قيمة حياته التي كادتْ تضيع مِنه، رُبما يهديه الله بعد وفاة والدته وإعدامي، رُبما.

فقال «مدحت»:

- لا أُصدَّق ما أسمعه.

صمتَ «زين» طويلًا، ثم قام بمسح دموعه وقال:

- إن حياتي كلها مأساة في حد ذاتها منذ بدايتها وحتى ختامها، وتحديدًا هذه النهاية المُروِّعة.

فقام «مدحت» وربتَ على كتفه، وقال:

- هوَّن عليكَ يا عزيزي، اهدأ.. ولكن لي رجاء لديكَ.. مِن فضلكَ.. احكِ لي حكايتكَ العجيبة هذه.

(١٢)

زين

عايزنا نِرجَع زي زمان؟»

«قول للزمان ارجَع يا زمان!

مُرسي جميل عزيز(16)

مِن أغنية «فات الميعاد» مِن ألحان بليغ حمدي

وغناء كوكب الشرق أم كلثوم عام ١٩٦٧م.

لا يعلم الجميع تلك النعمة الكبيرة التي يتمتعون بها حينما تُحيط بهم حالة مِن الاستقرار الطويل، إلَّا عندما تُبددها الحرب فجأة، حيث لا يعود أي شيء على حاله بعد ذلك، وكان «زين» مِن ضحايا تلك المأساة التي لا ذنب له فيها.

كان «زين» آنذاك شابًّا مصريًّا في مُقتبل العُمر، تخرَّج في الجامعة حاملًا شهادة تؤهله لأن يعمل مُدرِّسًا في زمن يندر فيه وجود أمثاله بوفرة، لكنه كان مِن الرعيل الأوَّل الذي فكَّر في عكس اتجاه الجميع، وكانت له رؤية غير مُعتادة آنذاك، فقد كان يعتقد أن الفُرص الأجمل تكون بعيدًا عن زحام القاهرة. غادر «زين» القاهرة في أوائل الستينيَّات مِن القرن الماضي، واستقرَّ به الحال في أوَّل الأمر بمدينة السويس القديمة، حيثُ أصبح يعمل مُدرِّسًا هناك، وكان أداؤه رائِعًا، وشَهِدَ له الجميع بالكَفاءة، ثم نقلوه بعد ذلكَ ليعمل في مَدرسةٍ جديدة بمدينة العريش التي تقع في شمال سيناء، وأسندوا إليه بعض المَهام الإدارية -بالإضافة إلى عمله كمُعلِّم- بسبب النقص الحاد في عدد المُدَرِّسين هناك، وأثبتَ بالفعل نجاحًا لافتًا في ذلكَ أيضًا، ثم نُقِلَ مُجددًا بعدها عندما تم افتتاح مدرسة جديدة في مدينة رَفَح الحدودية في أقصى شمال شرق البلاد، فاشتُهِرَ حينها بأنه مِن أفضل المُدرسين الذين يصلحون لإدارة المدارس الجديدة والتدريس فيها في نفس الوقت، وبالتالي كان مِن الطبيعي أن يقَع عليه الاختيار بعد ذلك لكي يكون مُديرًا للمَدرسة الجديدة في مدينة نخل(17) جنوبي العريش في وسط سيناء، وذلك على الرغم مِن حداثة سِنِّه، حيث لم تستغرق تلك الرحلة كلها سوى خمس سنوات ونصف فقط، أو أكثر قليلًا.

وعلى الرغم مِن تلك الحالة الثابتة مِن الاستقرار والنجاح، وعلى الرغم مِن عدم وجود ما يدعو إلى قَلْقَلَة تلكَ الحياة النَمَطيَّة، شعر «زين» بالرتَابة والمَلَل وفُقدان الشَغَف إزاء مِهنة التدريس، وكان يرى أن بإمكانه أن يقومَ بعَمَلٍ أكبرَ مِن ذلك، وأن عليه أن يَقتَنِصَ الفُرَص وأن يطرُق الأبواب التي لم يتَطرَّق إليها أحد بعدُ، وخصوصًا في تلك المنطِقة البِكْر، وهنا تبدأ القصة

والحكاية. فقد كان «زين» مُلهَمًا بِحَق، وكان ذو رؤية مُستقبلية قلَمَا نجدها في ذلك العَصر، وبالتالي كانت فكرته التب تبنَّاها جديدة للغاية.

كانت المَسافة بين مدينتي العريش ونخل حوالي مائة وستين كيلومترًا، وكان الطريق بينهما آنذاكَ ضيقًا وكثيف الغُبار، ولم يَكُن طريقًا مُعَبَّدًا بنفس المواصفات الموجودة في أيامنا هذه، وبالتالي فقد كان الناس يقطعون تلكَ المسافة في أكثر مِن ثلاث ساعات، وكانت تلك الرحلة كأنها قِطعة مِن العذاب بحق. اختار حينها «زين» موقِعًا على ذلك الطريق يبعُد نحو خمسة وعشرين كيلومترًا مِن «مدينة نخل باتجاه الشمال، وقرَّر أن يُقيمَ مشروعه الذي حَلُم به، وهو مشروع «واحة زين».

لم تكُن هناك أيَّة واحة على الإطلاق كما يبدو مِن الاسم، وربما ذهبَ بنا الخيال نحو النخيل وجداوِل المياه والفواكه والثِمار، لكن الأمر ليس كذلك، فقد كانت الواحة اسمًا للمشروع فقط، وكان «زين» يعني به المكان الذي يرتاح فيه المُسافرون، ويجدون فيه احتياجاتهم.

في البداية لم يكن للمشروع ذلك الاسم؛ لأن البداية كانت عبارة عن محطَّة لتزويد السيَّارات بالوقود فقط، ثم تطوَّر الأمر بعد ذلك بِعدَّة شهور حينما قام «زين» ببناء دورات للمياه ومقصف صغير لتقديم المُرطِبات، ثم بنى بعد ذلك مَسجَدًا صغيرًا أو لِنَقُلْ إنَّه مُجرَّد مُصَلًّى صغير، وبعدها بأشهرٍ قليلة افتتح متجرًا صغيرًا لبيع المأكولات وبعض المُستلزمات الشخصيَّة، وهو ما جعله يضع لافتةً كبيرة كتبَ عليها: واحة زين. لقد أنشأ مشروعًا مُتكامِلًا بحد ذاته، وكان يتمنى أن يُصبح المكان مُزدحمًا على الدوام، وأن ينشأ حوله العديد مِن المشروعات والمرافِق الأخرى. لكن لم يحدث أي شيء مِن ذلك على الإطلاق، فقد كانت حركة السفر وعدد المُسافرين آنذاك ليست بالكثافة الكبيرة الموجودة حاليًا في عصرنا هذا، وكان «زين» يمكثُ وحيدًا وهو يُحَاوِل أن يقتل الوقت بين مرور سيَّارة وأُخرى، ولكن مجموع ما كان يجنيه مِن أموال طوال الشهر الواحد يُعادل أربعة أمثال ما كان يتقاضاه مِن أجرٍ عندما كان يعمل مُدَرِّسًا، وخصوصًا أن ساكني جميع المناطق والنجوع المُحيطة به -على قِلَّة عددهم- صاروا يعتمدون عليه باستمرار للتَزَوُّد بالوقود أو لشراء احتياجاتهم كبديل للسفر الطويل إلى مدينة العريش.

كان «زين» يجلس في واحته وحيدًا، وكانت حياته جرداء تمامًا مثل نفس الصحراء التي يعيش فيها، وكان في حالة انتظار دائمة إلى أن يأتي أحدهم ليَتَزَوَّد بالوقود أو ليشتري بعض الحاجِيَّات. وكان الفاصِل الزَمَني بين حُضور شخصٍ وآخر لا يقل عن عِشرين أو ثلاثين دقيقة، وكان أغلبهم مُتكرري الوجوه بالنسبة له، كما توجد قِلَّة أُخرى منهم قد يأتون لأوِّل مرَّة أو هكذا يَظُن بسبب نُدرَة تَردُّدهم على المكان. كان «زين» يَشْعُر بأن حياته ثابتة، وأن صورته التي يراها الآخرون هي واحدة لا تتغيَّر، بينما يتبدَّل الجميع عليه بأحوالهم المُختلفة في كل ساعة وفي كل يوم. كانت الحياة بالنسبة لـ«زين» تدعو للرتابة والمَلَل، وكان لا يُخرجه مِن تلكَ الحالة سوى الزيارة اليوميَّة التي يقوم بها إليه «أبو ناصِر» في كل مساء بعد صلاة المغرب!

و»أبو ناصِر» هو رجل فلسطيني الجنسيَّة مِن مواليد مدينة يافا في فترة ما قبل الاحتلال «الإسرائيلي» لفلسطين، وكان عُمره قد تخطَّى الخمسين عامًا للتو، وكان بدين الجِسم أصلع الشعر، ويُشبه تمامًا المُطرب اللبناني وديع الصافي! كان «أبو ناصِر» قد أتى إلى مصر في أوائِل العقد الأول مِن القرن الماضي بصُحبَة والديه، ونشأ وترعرع وعاش كل حياته في مدينة العريش ولم يخرج منها أبدًا.

كان «أبو ناصِر» عاشِقًا للقاهرة دون أن يراها، لكنه أحبَّ مواقف حكوماتها وثوابتها وكفاحها ضد الاستعمار، وكان يُثَمِّن نِضالها وحروبها ضد «إسرائيل» مِن أجل العرب ومِن أجل فلسطين، وكانت مصر بالنسبة له هي جمال عبد الناصِر، وكان جمال عبد الناصِر(18) بالنسبة له هو «مصر»، ولذلك قام بتسمية ابنه البِكْر «ناصِر».

تَعرَّف «زين» على «أبي ناصِر» بسبب أن الأخير كان هو المسئول عن إمداد «زين» يوميًّا بالوقود الذي يملأ به خزانات المحطَّة، فقد كان «أبو ناصِر» يعمل سائِقًا لتلكَ الشاحِنة الكبيرة التي تحمل على ظهرها خزَّان الوقود الأسطواني الشَكل، وكان يأتي في موعِد ثابت كل يوم، حيث كان «زين» هو آخر الزبائِن بالنسبة له؛ نظرًا لبُعدِ مكانه، قبل أن يعود مُجددًا ليبيتَ في مدينة العريش. تَوَطَدَتْ العلاقة فيما بينهما شيئًا فشيئًا إلى أن صارا صديقين، وبعد أن كانت زيارة «أبي ناصِر» تستغرق فقط ذلك الوقت القليل اللازم لتفريغ شاحِنة الوقود، تَحوَّلتْ تلكَ الزيارة إلى جَلسة سَمَر يوميَّة لا تَقِل عن ساعة كامِلة على أقلِ تقدير. كان «زين» يعتبر «أبا ناصِر» بِمَثابَة نافذته الوحيدة على العالَم الخارجي، فقد كان «زين» يعمَلُ بمُفردِه في تلكَ المحطَّة، ولم يكن يستطيع أن يُغادرها أبدًا، فقد فَشَل تمامًا في أن يجد أيَّ شخص قد يَقبَل أن يعمَلَ لديه في ذلك المكان النائي، لذلك لم يكن «أبو ناصِر» مسئولًا عن إمداده بالوقود فحسب، بل أصبح أيضًا هو الشخص المَنوط بإحضار الماء والطعام وبعض الاحتياجات الأخرى التي يحتاجها «زين» لنفسِه أو لبيعها في مَتجره الصغير؛ وذلكَ لأنه كان يُعاني مِن عدم انتظام مواعيد الشاحنة الصغيرة الأخرى التي تأتيه مِن مَتجَر الجُملَة الكائِن بمدينة العريش، وكثيرًا ما تشاجَرَ معه بسبب ذلك، ولكن دون جدوى، كما أنه لم يكن يَملِك مِن أمره شيئًا تجاهه؛ بسبب أنه لا يستطيع أن يَتْرُك مكانه لِيبحث عن بديل آخر.

كان «زين» ينتظر «أبا ناصِر» في مساء كل يوم ولم تكن لديه أيَّة أيَّام عُطلات على الإطلاق، وكان ينتابه القَلَق الشديد إذا تأخَّر عن موعِده، ليس مِن أجل الوقود أو الطعام، بل لأنه أصبح نسيجًا ثابتًا في أيَّام حياته، وكان يخشى أن يكون قد أصابَهُ مكروه، وخصوصًا أن تلكَ الطُرُق الصحراوية موحِشة ومُظلمة وغير آمِنة.

حدَثَ ذات يوم أن تأخَّرَ «أبو ناصِر» ساعتين كامِلتين عن موعده، وكادَ «زين» أن يُصاب بالجنون إزاء ذلك، وعندما أتى «أبو ناصِر» عرف أن سبب تأخيره هو قيادته البطيئة جدًّا لتلكَ الشاحِنة في تلكَ الليلة؛ وذلك لأنه كان مَريضًا للغاية، ومع ذلك لم يشأ ألَّا يأتي إلى «زين» في ذلك المكان البعيد؛ لأنه يعلم أنه يعتمد كُليًّا عليه، فذلك الوقود هو مَصدر رزقه الذي يَتكَسَّب منه، بخلاف احتياجاته الشخصيَّة التي يحتاجها يوميًّا.

يومها أصابَ «زين» حُزنٌ شديد، واستحلَفَ «أبا ناصِر» بالله ألّا يفعلَ ذلك مُجددًا، فمُحافظته على صحته وسلامته أهم مِن كل شيء، وأصرَّ ألَّا يتركه يعود إلى العريش وهو على تلكَ الحالة، لكنَّ «أبا ناصِر» رفضَ أن يَبيتَ عند «زين»، وتحامَلَ على نفسه في طريق العودة، لكيلا تُصاب زوجته وأولاده بالجنون إذا لم يعُد إليهم في ذلك اليوم. لقد كان «أبو ناصِر» شخصًا نادر الوجود في هذا العالَم، وكان نِعمَ السَنَد، كما أنه كان نِعمَ الصديق الناصِح الأمين.

تلخَّصت الحياة بالنسبة لـ«زين» في إطار مِن الرتابة والمَلَل، وكان لا يُخرجه مِن تلكَ الحالة سوى الزيارة اليوميَّة التي يقوم بها إليه «أبو ناصِر» في كل مساء، إلى أن ظهر في حياته شخصٌ آخر يكسِر حِدَّة ذلك المَلَل، ولكن في الصباح، ربما ليس بانتظام في كل يوم مِثلما كان يفعل «أبو ناصِر»، ولكن تلك الزيارات الصباحيَّة المُتقطِّعة لذلك الشخص كانت كفيلةً بأن تُنعِش روح «زين» وتُغيِّر مِن حاله تمامًا. لكن ذلك الشخص الجديد الذي بدأ في الظهور نَهارًا كان فتاة، لقد كانت فتاةً تُدعى «زينات».

كانت «زينات» فتاة مصرية لم تبلغ العشرين مِن عُمرها بعدُ، كانت تأتي بصُحبة والدها لشراء بعض الأغراض والمأكولات ريثما يتم تزويد سيارتهما بالوقود، فقد كانا يُقيمان بمدينة «نخل»، لكنهما يرحلان بين الحين والآخر نحو مدينة رفح، حيث يعمل الوالد في أحد المنافذ الحدودية هناك، وكانت «زينات» تُقيم معه بمُفردها بعد وفاة أُمها.

لم تكن لـ«زين» أيَّة تجارب عاطفيَّة على الإطلاق طيلة حياته، لكنه وجد نَفسه مشدودًا نحو «زينات» بشِدَّة، ولم يكن يعلم هل ذلك الشعور الذي يَشْعُر به نحوها هو مُجرَّد إعجاب بشخصيتها، أم إنَّه قد أحبَّها بالفِعل.

- بغض النظر سواء كان ذلك إعجابًا أم حُبًا، لِمَ لا تقوم بمُفاتحة والدها لكي تطلبها للزواج؟

كانت تلكَ هي نصيحة «أبي ناصِر» عندما حكى له عنها.

فأجابه «زين»:

- لقد تطوَّرتْ الحياة كثيرًا عمَّا سَبق يا صديقي، ولا بُد مِن توافر الحُب المُتبادَل قبل الزواج، وأنا لا أعرف شيئًا عن شعورها تجاهي.

فقال «أبو ناصِر»:

- مَن الذي أقنعكَ بذلك كله؟ المُهم أن تُوجَد بينكما المَوَدَّة والرحمة، وربما يأتي الحُب بعد الزواج مع طيب العِشرة بعد ذلك.

فقال «زين»:

- ولكن ماذا لو رَفَضتْ «زينات» الزواج مِنِّي؟ سيُصيبني حينها إحراجٌ شديد لا يُمكنني أن أتحمَّله.

فقال «أبو ناصِر»:

- لن تكون تلكَ نهاية العالَم، تَعامَل مع الأمر ببساطة، ثم ما الذي يجعلكَ تَتشكَّك هكذا في موقفها تجاهكَ؟

فقال «زين» بعد تردُّد:

- ربما الفارق في العُمر، فعُمري يكاد يكون ضِعف عُمرها تقريبًا.

فقال «أبو ناصِر»:

- هذا سبب واهٍ لكي يُصيبكَ الشكُّ إلى هذا الحَدِّ، فأنتَ ولله الحمدِ تبدو وكأنَّكَ أصغر مِن عُمرك الحقيقي بعشر سنوات، كما أنَّكَ ميسور الحال وراجح العقل، وهي جميعها صفات حميدة يصعُب أن تجدها «زينات» في شاب صغير مُراهق بمِثل عُمرها، كما أن المرأة تُحب أن يكون زوجها أكبر منها؛ لكي تشعُر بالاطمئنان معه، ولتتمكَّن مِن الاعتماد عليه في حياتِها.

فقال «زين»:

- هل هذا رأيكَ؟

فقال «أبو ناصِر»:

- أجَل، توَكَّل على الله وقُم بمُفاتحة والدها في ذلك الأمر فور أن تراه في أقرب وقت.

لَم ينَم «زين» في تلك الليلة على الإطلاق، وظلَّ عقله يُفكِّر في كل الاحتمالات التي مِن المُمكِن أن تحدُث، وانتابته العديد مِن أحلام اليَقَظة التي تقوم بتصوير كل تلكَ الاحتمالات وكأنها أفلام سنيمائية تُعرَض أمام عينيه، فتارةً يَتخيَّل أن أباها يغضب مِنه؛ لجرأته على أن فاتحه في أمر الزواج مِن ابنته، وتارةً يَتصوَّر أن أباها لا يُبدي اعتراضًا، لكن «زينات» هي التي ترفُض وتغضب مِن ذلك الأمر، وتارةً يحلم بأن يوافق الأب والابنة معًا على ذلك الزواج، ويبدأ في تخيُّل شكل حياته الساحرة بعد الزواج.

لكن «زين» لم يَتجرأ على أن يُفاتِح والد «زينات» في الأمر! كانت «زينات» وأبوها يأتيان إلى المحطَّة مرتين في الأسبوع تقريبًا، وفي كل مرَّة كان «زين» يُحَاوِل جاهدًا أن يستجمع شجاعته ليُفاتِحَ أباها في الأمر، لكنه في كل تلك المرَّات كان يشعُر بالخوف الشديد ويَتلعثَم في الكلام، بل ويفقد النُّطق أحيانًا.

وكان «أبو ناصِر» في كل ليلة يقوم بتشجيعه بشِدَّة، ثم تحوَّل ذلك التشجيع إلى إلقاء اللوم الشديد على «زين» واتهامه بالجُبن، إلى أن قرَّر «أبو ناصِر» أن يأتي بنفسه نَهارًا ذات يوم لكي يُفاتِح هو والد زينات في الأمر بدلًا مِن «زين»، وهو ما رفضه «زين» بشِدَّة.

واستمرَّ «زين» على ذلك الحال لِمُدَّة ثلاثة أسابيع مُتواصلة، إلى أن انتهى كل شيء، فقد اختفتْ «زينات» وأبوها تمامًا، ولم يظهر لهما أيُّ أثر بعد ذلك!

فكَّر «زين» في أن يذهب إلى مكان سكنهما بمدينة «نخل» ليتفقَّدَ أثرهما، لكنه أدرك أن ذلك ليس بالأمر المنطقي، فهو لا يعرف لذلك الأب اسمًا، ولا يعرف أين كان يَسْكُن، لقد عرف اسم «زينات» بالصُدفة عندما ناداها أبوها ذات مرَّة، كما أنه ليس مِن المعقول أن يذهب إلى مدينة «نخل» ليطرق أبواب جميع البيوت، ويسأل عن شخص لديه ابنة في العشرين مِن عُمرها!

مرَّ على اختفاء «زينات» ووالدها أكثر مِن أربعة أشهُر كاملة، ورُبما أكثر مِن ذلك، وكان الندم يعتصر «زين» بشِدَّة؛ بسبب تخاذله وانعدامِ شجاعته، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي قام فيه بتغيير اسم المحطَّة، وقام بتثبيت لوحة كبيرة كُتِبَ عليها: «واحة زينات»!

كانت تلك مُفاجأةٍ لا يُمْكِن لأحدٍ أن يتوَقَّعها، فقد قام «زين» بتغيير اسم المحطَّة مِن تِلقاء نفسه، وتَحوَّل عنوان مشروع عُمره مِن «واحة زين» إلى «واحة زينات»، لقد مَحَا اسمه ووضع اسمها! فعل «زين» ذلك، ثم أخذ يُحدِّث نفسه وهو يتأمَّل تلك اللوحة قائلًا:

- أليسَ ذلك دليلًا دامِغًا على أن ما أشعُر به نحوها هو الحُب وَلَيْسَ الإعجاب؟ ثم أجاب على نفسه: كيف لي أن أفترضَ ذلكَ؟ إن هناك طَرفًا آخر لم أتعرَّف على شعوره بعدُ!

كان «زين» في حيرة بين فرضيَّة الحُب المُتبادَل وبين حقيقة شعوره نحوها، فقد صار مُدركًا لحقيقة أنه يُحبها في قرارة نفسه دون أن يَشْعُر، وهو يعْلَمُ أنه حُبٌّ مِن طَرفٍ واحد، ويُدرِكُ أنه حُبٌّ غير مُكتمل الأركان، لكنه على الجانب الآخر، وبرغم تلك الحياة المُنعزلة التي عاشها طَويلًا، وبرغم اعتياده على الوحدة والغُربة، وبرغم الطبيعة الجافة التي أثَّرَتْ في تكوين شخصيَّته مع مرور الزمن، إلَّا أنه وسط ذلك كله ما زال في قلبه لَمْحَة مِن الإحساس والمَشاعر التي كانت مَدْفونة داخل أعماق نفسه، ولا يعلم عنها شيئًا! لقد تَفجَّر كل ذلك فجأة بمُجرَّد أن ظَهرتْ «زينات» في حياته، إنه السِحْر الأُنثوي الذي لا يُقاوَم مهما كان الرَجُل قاسيًا أو صلدًا. لم يكن هناك تفسير مَنطِقي آخر لأن يقوم «زين» بتغيير اسم المحطَّة التي تَحْمِل اسمه إلى اسم «زينات»، سوى أنه كان يُحبها في قرارة نفسه وفي ثنايا عقله الباطِن! لقد اشتَدَّ به الشوق والنَدَم وعانى مِن غيابها لشهورٍ طويلةٍ، فخرج كل ذلك كمُتَنَفَّس قوي في صورة تغيير عنوان اللافتة.

مرَّ على ذلك الحَدَث عام كامل تقريبًا، وفي يوم ما في أوائِل صيف عام ١٩٦٧م، أتَتْ إحدى السيَّارات لتتزوَّد بالوقود، فنَهَضَ «زين» ليفعَلَ ذلك، وما أن اقترب ونَظَرَ إلى سائِقها، فإذا به

يَتفاجأ بأن بجواره فتاة يعرفها تمامًا، فقد كانت «زينات»! حينها لم يَتمالَك «زين» نفسه وصاحَ مُرَحِّبًا بها ناسيًا وجود ذلك الشخص الذي يَجلِس بجوارها، وقال لها بفرحة واضِحة:

- أهلًا بكِ مِن جديد، أين كنتِ طوال تلك الشهور الطويلة؟ وكيف حال والدكِ؟

ابتسمتْ «زينات» في خَجَل، وقالت:

- كيف حالك أنتَ؟ لم يَتغيَّر المكان عمَّا كان عليه سابِقًا! لقد بَلَغَ والدي سِنَّ التقاعُد وعادَ إلى القاهرة (ثم أشارَتْ نحو الجالِس بجوارها وقالت): وهذا هو زوجي.

حينها شَعَرَ «زين» بأنه قد فقد النُّطق، لكنه تَدارَكَ نفسه بسُرعة، ومدَّ يده مُصافِحًا زوجها وقال له:

- أهلًا بكَ يا عزيزي، يا لها مِن صُدفة سعيدة.

أومأَ زوجها برأسه ردًّا للتحيَّة، ولكن بجفاء واضِح، فقد بدا عليه عدم رضاه عن أن زوجته قد تعرَّفَتْ على «زين»، وتحدَّثتْ معه بتلك الكلمات، ثم قام بسداد ثمن الوقود، وانطلقَ بالسيَّارة على الفور!

لكنه توَقَّفَ بالسيَّارة فجأة قبل مُغادرته المحطَّة حينما لَمَحَ تلك اللافتة الكبيرة: «واحة زينات»!

كان «زين» ما زال واقِفًا وهو يودِّع ببصره سيَّارة «زينات» وزوجها، ثم كادَ قلبه أن ينخَلِع مِن مكانه عندما رآهما قد توقفا أسفل اللافتة الكبيرة التي تحمل اسم «زينات» عند مَخرَج المحطَّة، ورأى زوجها بوضوح، وهو يُشير إلى تلك اللافتة، ويُلوِّح نحوها بذراعه في عَصَبيَّة شديدة، وبدا كأنه يتشاجر مع «زينات»؛ بسبب ذلك، ربما كان يقوم باستجوابها عمَّا إذا كانت هناك علاقة ما في الماضي بينها وبين «زين»، كما بدا أيضًا أن «زينات» تُدافِع عن نفسها، واستمرَّ ذلك الشجار دقيقتين كاملتين ثم رحلا.

حينها شَعَرَ «زين» بالحُزن والأسى؛ لأنه تسبَّب في حدوث تلك المُشكلة بين «زينات» وزوجها، وخصوصًا أنها بالفعل لم تكن تعلَم شيئًا عن تغيير اسم المحطَّة لتحمِل اسمها بدلًا مِن اسمه، ولا بُد أن زوجها قد اتهمها بشيء ما، بينما هي مظلومة بحق. يا لها مِن مُعضِلة كبيرة!

هل يقوم بتغيير اللافتة مرَّة أُخرى، ويُعيدها إلى اسمها القديم الذي كانت عليه؟

كان ذلك بالفِعل هو محور النِقاش بين «زين» و«أبي ناصِر» في المساء، فقد قال له «أبو ناصِر»:

- استَمِع إليَّ يا «زين»، إن تغيير عنوان اللافتة إلى الاسم القديم سيكون بِمَثابة اعتراف ضِمني بأن هناك علاقة ما كانت قد نَشَأتْ في الماضي بَيْنَكَ وبين «زينات»؛ عَمَلًا بالمَثَل الذي يقول:

«يكادُ المُريبُ أن يقولَ خُذوني»، كما أن زيارة «زينات» وزوجها قد تكون صُدفة عابِرة لن تتكرَّر مُجددًا.

«فقال «زين:

- لم يَكُن مِن اللائِق أبدًا أن قومَ بتغيير عنوان اللافتة بهذا الشكل.

«فقال «أبو ناصِر:

- كان ذلك مُنذ شهور طويلة، فلماذا النَدَم الآن؟

«فقال «زين:

- لم يخطُر ببالي آنذاك أنني قد أتسبَّب بذلك في حُدوث مُشكلة لها دُونَ أن يكون لها ذَنْبٌ.

«فقال «أبو ناصِر:

- لا تقم بجَلدِ نفسكَ يا عزيزي، لقد رحلتْ «زينات» في الماضي دُونَ رَجعَة، ولم يكُن أحد يتوَقَّع عودتها مِن جديد.

«فقال «زين:

- ولكنها عادتْ بالفِعل.

«فقال «أبو ناصِر:

- هل سألتَ نفسك ماذا لو عادتْ مِن جديد، ولكن بصُحبة والدها وَلَيْسَ زوجها؟ هل فكَّرتَ ماذا ستفعل حينها؟ سأقول لك ماذا كُنتَ ستفعل دُونَ تفكير، ستقول لها إنك افتقدتها بشِدَّة، وإنك تُحبها، لدرجة أنك أطلقتَ اسمها على المحطَّة بدلًا مِن اسمك، وربما كان ذلك دافعًا لها كي تُفكِّر فيك وتنتبه إليك.

بدا حينها أن «أبا ناصِر» قد استطاع إقناع «زين» -مؤقتًا- بنسيان أمر تلك اللافتة وتجاهلها، ولم تَظهر «زينات» بعد ذلك بالفِعل لبِضعَة أسابيع.

في نفس التوقيت، كانت الأمور بين مصر و»إسرائيل» قد بدأتْ تتوَتَّر آنذاك، وهو ما جعل الشركة التي يعمل بها «أبو ناصِر» تقوم بتغيير أوقات توصيل الوقود إلى المحطَّات؛ لتكون أثناء ساعات النهار فقط، فأصبح «أبو ناصِر» يأتي في وقت الظهيرة بعد سنوات طويلة كان يأتي فيها ليلًا فقط، وفي يومٍ ما بينما كان «زين» و»أبو ناصِر» يجلسان بجوار الشاحِنة في انتظار تفريغ

حمولتها مِن الوقود، لَمَحَ «زين» فجأة سيَّارة زوج «زينات» وهي تمُر مِن أمامهما عبر الطريق السريع، فصاح «زين»، وأشار إليها لكي يراها «أبو ناصِر» الذي كان لمَّاحًا بشِدَّة، فقد استطاع في تلك الثواني القليلة أن يَلمَح نوع السيَّارة ولونها، كما استطاع أن يرى أنه توجد امرأة تجلِس بجوار سائِق تلك السيَّارة، وهو ما يعني أنها «زينات». وعندما تكرَّر ذلك المَشهد في أيَّام أُخرى عِدَّة مرَّات بعد ذلك اليوم، أدركَ كلاهما أن «زينات» وزوجها ربما يكونان قد صارا مِن ساكني مدينة «نخل» مِثلما كانت تسكنها مع أبيها في الماضي، فاحتدَّ النِقاش بين الرجُلين مُجددًا حول ضرورة تغيير عنوان اللافتة مِن عدمه! يا لها مِن لافتة ذات شأن عظيم، فبرغم أنها لافتة صمَّاء لا حول لها ولا قوة، إلا أنه قد تم اختزال العديد مِن المَشاعِر فيها! فقد أصبحت رمزًا للحُب والافتقاد والنَدَم بالنسبة لـ«زين»، بينما صارت تُمَثِّل الغيرة والشَّك بالنسبة لزوج «زينات»، بخلاف أنها ترمُز للظُلم والدَهشة بالنسبة لـ«زينات» نفسها!

لكن لم يعُد لتلك اللافتة أيَّة قيمَة تُذكَر في غُضون أسبوع واحد فقط، فقد بدأ الغزو «الإسرائيلي» لسيناء، وتمَّ الاستيلاء على المحطَّة! لقد صارت تلك المحطَّة نُقطة ارتكاز عسكرية للجيش «الإسرائيلي»، حيث يقومون بتفتيش جميع مَن يقوم بالمرور على ذلك الطريق ذهابًا وإيابًا.

* * *

عاد «زين» إلى المحطَّة بعد تحرير سيناء، أي بعد مرور خمسة عشر عامًا مُنذ بداية الاحتلال «الإسرائيلي»، وكانت الحياة خلال تلك السنوات في سيناء كالموت تمامًا، فقد مات بعدها في النفوس كل شيء، مات الأمَل، وقُتِلَت الرغبة في الحياة، وانعدمَ الشَغَف، واختفى الشعور بالأمان تمامًا، وصار القلق والتَربُّص والحرص بديلين لكل شيء! صرت تلمح الحُزن والأسى في وجوه كل مَن تَلقاهم في كل مكان، تشعُر بذلكَ في صلاة العيد، وفي الأسواق الخاوية، وفي الطرق غير المُزدحمة، حتى أحوال الطقس صارت حزينة هي الأخرى.

لقد عاد «زين» ليجد أن مشروعه الذي استثمر فيه كل أمواله وأيَّام شبابه قد أصبح مِن الأطلال! حتى اللافتة الكبيرة لم يَعُد لها وجود، وبالتالي فقد كان عليه أن يبدأ أعماله الخاصة مِن مرحلة الصِفر مُجددًا بعد أن ناهزَ عُمره السادسة والأربعين عامًا. كان «زين» خلال تلك الأعوام الخمسة عشر يُعاني بشدة؛ لكي يعتاد مُمارسة مهنة التدريس في مدينة القاهرة المُزدحمة وسط أخلاقيات مُتدنية للغاية ومُختلفة عمَّا كانت عليه حينما كان طالبًا في الجامعة! وكان «زين» يؤجِّل كل شيء في حياته على أمل أن تتغيَّر الأمور يومًا وتنتهي الحرب، فيعود إلى مشروعه وحلمه، وإلى الحياة الهادئة التي أحبها في وسط سيناء.

وقف «زين» على أطلاله، وأدرك أنه قد ضاع مِنه العُمر. كان النَدَم لدى «زين» مُضاعفًا، فقد أخذ يلوم نفسه على أشياء كثيرة، لماذا لم يَدَّخِرَ شيئًا في شبابه؟ لماذا لم تكن له خطة بديلة عن مشروع المحطَّة؟ لماذا نسي نفسه، واستغرقَ في الغُربة والوحدة إلى أن فاته أن يتزوَّج صغيرًا؟

ولماذا ولماذا ولماذا؟ كلها تساؤلات عن أخطاء ارتكبها في حياته ولم يَكَن يَشْعُر بها، إلى أن تعرَّض لتلك الهَزَّة القاتِلة التي دمَّرَتْ حياته تمامًا.

هو يعلم أنه لا يجب أن يقوم بجلد ذاته إلى ذلك الحد، فمَن الذي كان يتوقَّع حدوثَ تلك الحرب؟ ولماذا كل هذا اللوم؟ لكنه لا يعنيه الحرب في حدِّ ذاتها، فهي مُجرَّد مِثال لأي زلزال قد يَحْدُث للإنسان فيعصِف بحياته دُونَ أن يكون مُستعدًا لذلك، فالحياة لا أمانَ لها على الإطلاق، ولا بد للمرء ألَّا ينخدع بطيبِ العيشِ مهما طالت أيَّامه، فقد تنقلب الأمور رأسًا على عَقِب في ثانية واحدة، هذا بخلاف أمر آخر أَشَدّ فَتكًا بالإنسان وهو إهدار الفُرَص، وعدم فعل الأشياء في توقيتاتها المُلائِمة تمامًا، كالزواج وإنجاب الأطفال والاستمتاع بالأمور الترفيهية والسفر، وغيرها من الأمور التي تصير مَسْخًا إذا ضاعت الفُرَص السانِحة لفعلها، أو إذا تَخَطينا العُمر المُلائِم للقيام بها.

كان «زين» قد أشرَفَ على أن يتم عامه السابع والأربعين مِن عُمره، لكن الأهوال والمصاعب التي رآها جعلته يَشْعُر وكأنه في السبعين مِن عُمره! ومع ذلك، تحامَل على نفسه وخاض مُعترَكًا مِن الإجراءات الحكومية الطويلة إلى أن استطاع الحصول على تصريح بالعودة للسكن في مدينة «نخل»، والتي كانت قد أصبحتْ موقعًا عسكريًّا محظورًا للمدنيين بعد تحرير سيناء. عاد إلى المدينة المتهدمة، وأخذ يبحث أولًا عن «أبي ناصِر» الذي عرف عنه بعد عبور خط بارليف عام ١٩٧٣م أنه لم يُغادِر سيناء طوال فترة الاحتلال «الإسرائيلي». وبعد رحلة بحث مُضنية في جميع أرجاء شمال سيناء، عَثَرَ «زين» على «أبي ناصِر» بالفِعل، وجده كما كان في مكانه الأصلي بمدينة العريش، وكان لقاؤهما حارًّا للغاية!

قال له «أبو ناصِر» بعد طول ترحيب:

- لقد بحثتُ عنكَ في كل مكان كنتَ تذهب إليه، وبينما كنتُ أبحثُ عن الجميع، ذهبتُ ذات مرَّة إلى رَفَح، واستطعت هناك أن أعرف أخبار «زينات» بالصُّدفة، فقد عرفتُ أن زوجها قد قُتِلَ على يد القوات «الإسرائيلية»، وقد عانتْ «زينات» كثيرًا حتى استطاعت الخروج مِن سيناء، ورَحَلَتْ إلى القاهرة.

قال «زين» في شرود:

- نعم لقد اختفت اللافتة التي تَحْمِل اسمها.

فقال «أبو ناصِر»:

- ما هذا الذي تقوله؟

فقال «زين» وهو يبتسِم:

أشعُر وكأنني عندما أطلقتُ اسمها على المحطّة كان ذلك سببًا في عودتها مِن جديد، وعندما قمت - بزيارة المحطَّة مُنذ أيَّام، ووجدت أن اللافتة قد ضاعت، انتابني الإحساس بأن «زينات» قد رَحَلَتْ!

فقال «أبو ناصِر»:

- إنك تهذي يا عزيزي، دعكَ مِن ذلك كله، المهم أن «زينات» قد أصبحتْ مُتاحة للزواج مِن جديد، هذا هو الجانِب المُشرِق مِن الموضوع يا عزيزي.

فقال «زين»:

- عن أي إشراقٍ تتحدَّث؟ ماذا تعني؟

فقال «أبو ناصِر»:

- ألم تسمعني جيِّدًا؟ أقول لك إن «زينات» قد صارت أرمَلة، ويُمكنك أن تطلبها للزواج.

فقال «زين» وهو يبتسم في سُخرية:

- هل تعني ما تقوله حقًّا؟ يبدو أنك تمزح! أولًا أنتَ تقول إن «زينات» قد رَحَلَتْ إلى القاهِرة، وهو ما يعني أن البَحث عنها هناك هو كالبَحث عن إبرة صغيرة وسط أكوام ضَخمة مِن القَشّ، لقد كنتُ أعيش هناك أنا أيضًا يا عزيزي، إنها مدينة تعجُّ بالملايين مِن الناس. وثانيًا، أنت تتحدَّث عن أمر حدث منذ خمسة عشر عامًا! هل تُدرك معنى ذلك؟ لا ندري ما الذي حدث لـ«زينات» خلال تلك السنوات الطويلة، رُبما تكون قد تزوَّجت، وربما أشياء أُخرى قد حدثت لها، إنه أمر في علم الغيب. ثم قُل لي، ما الذي يجعلكَ تظُنُّ أنني ما زلت أُريد الزواج؟ أنا لا أُريد الزواج، ولم أعُد أصلُح للزواج، بل بمعنى أكثر دقة إنني لم أعُد أصلُح للحياة عمومًا بكل ما فيها!

فقال «أبو ناصِر»:

- ما كل هذا التشاؤم؟ إنك ما زلتَ صغيرًا يا عزيزي!

فقال «زين»:

- دعكَ مِن كل هذه المُجاملات ولنتحدَّث بواقعية، أنا لم أعُد «زين» الذي كُنتَ تعرفه قبل ذلك، بل أنا حطام لذلك الشخص وربما أسوأ، لقد أصبحتُ مُحَطَّمًا ماليًّا ونَفسيًّا ولم أعُد صالِحًا لأي شيء، فقد خسرتُ كل أموالي، ولا توجد الآن وظائِف عاجلة قد تُناسبني وتحتويني لأتكسَّب منها قوتَ يومي سوى مهنة التدريس «اللعينة» التي أمقتها، وفوق ذلك كله لم أعُد شابًّا بكامِل صحتي كما كنت سابِقًا، والأهم مِن كل هذا وذاك هو فُقدان الرغبة في أي شيء، إنني مُنهَكٌ للغاية يا عزيزي، لا أعني الإجهاد البَدَني، بل إنني أشعُر بأن روحي مُتهتِّكة بداخِلي وكأنها قد تحوَّلتْ إلى أشلاء!

:«فقال «أبو ناصِر

- لا تُشعرني وكأنكَ شخص يعيش مشهد احتضاره! لا يوجد داعٍ لكل ذلك البؤس..

:فأرجع «زين» ظهره إلى الوراء وقال

- الاحتضار الذي أعنيه هو احتضار آخر يختلف عن ذاك الذي يُصاحب الموت الفعلي، فالحياة لا تعني أن تتحرَّك وتأكل وتشرب فقط، إنما الحياة تعني وجود الأمَل، وأن تكون صاحب رسالة أو هدف تسعى لتحقيقه، الحياة يا عزيزي تعني أن يوجد في حياتك ما يجعلك تستمتع بأيَّام العُمر وتملؤها بالإنجازات والإخفاقات معًا، لا تتعجَّب، فتلك الإخفاقات هي الدافع الأكبر لكي تنجح في المرَّات التالية، وحينها يكون للحياة معنى وقيمة، أما إذا غابَ كل ذلك، حينها ستكون في حالة احتضارٍ دائِم، وتكون قد صرت ميِّتًا على قيدِ الحياة تنتظر الموت الحقيقي قبل أن تموت بالفِعل.

:«فقال له «أبو ناصر

- لا يوجد عُمرٌ مُحَدَّد للاستمتاع بأي شيء، يُمكنكَ أن تستحضرَ السعادة في أي اتجاه وفي أي وقت سواءً كُنتَ صغيرًا أم كبيرًا.

:فابتسم «زين» وقال

- هذا ما يدَّعيه الروائيون والكُتَّاب، وهذا ما يقوله دجَّالو علم النفس، لكن الحقيقة والواقع هما عكس كل ذلك، فقد يطرُق الحُبُّ باب القلب لشخص ما في السبعين مِن العُمر، ولكن هل يستجيب باقي الجسد لذلك الحُبِّ؟ هل يستطيع ذلك الشخص أن ينطلق ويسافر ويلهو تمامًا مِثلما كان شابًّا صغيرًا؟ هل سيُنجِب أطفالًا؟ هل يستطيع أن يقوم بتربية هؤلاء الأطفال لسنواتٍ طويلة إلى أن يراهم شبابًا؟

:«فقال «أبو ناصر

- ولمَ لا؟ فالأعمار بيد الله، والصحة والمرض لا توجد قواعد تحكمهما!

:«فقال «زين

- أنتَ تتحدَّث عن حالاتٍ نادرة، وهم يُمثِلون قِلَّة مِن الناس، بينما الغالبية العُظمى مِن البَشَر تجري عليهم سُنن الحياة الطبيعيَّة والمنطقيَّة فيما يتعلَّق بالصحة واللياقة والقوَّة وغيرها.

صمتَ «أبو ناصر» طويلًا، وقد بدا عليه الإرهاق مِن ذلك الحديث، ثم ابتسم ابتسامة عريضة وقال:

- دعكَ مِن ذلك كله، فلنَعُد الآن إلى الموضوع الأصلي والأهم.

فقال «زين» مُندهشًا:

- وما هو؟

فقال «أبو ناصر»:

- موضوع «زينات».. هل نسيتَ بهذه السُّرعة؟ لقد قلتُ لكَ إنها أصبحتْ مُتاحة للزواج الآن.

فصاح «زين» وهو يضحك:

- ماذا دهاك يا رجل؟

حينها ابتسم «أبو ناصر» بشدة، وغاب عنه إلى الداخل ثم عاد إليه، وناوله ورقة كبيرة قديمة، وقال له وهو يُشير بأصابعه على السطور المكتوبة:

- هذا هو عنوان «زينات» بالقاهرة، وهذا هو رقم هاتف منزلها، إنني أُهاتفها في كل عام مرة على الأقل بناء على طلبها؛ ذلك لأنها طلبتْ مني قبل رحيلها أن أقوم بطمأنتها على سلامة منازلهم التي يمتلكها والدها، فهو يمتلك منزلًا صغيرًا بمدينة رفح، وآخر أكبر مِنه بمدينة نخل. لقد كانت الاتصالات مقطوعة بيننا وبين القاهرة في السنوات الأولى مِن الاحتلال «الإسرائيلي»، لكنها عادت بعد ذلك شيئًا فشيئًا بعد عبور خط بارليف بأعوام. هيَّا اذهب إليها ولا تُضيِّع هذه الفُرصة، فالفتاة لم تتزوَّج مُجددًا بعد منذ مَقتل زوجها السابق، هيَّا أسرع.

* * *

في عصر لم تعُد تحدُث فيه المُعجزات، تغيَّرتْ حياة «زين» الكئيبة فجأة إلى جنَّة، وتحوَّل الحلم المُستحيل إلى حقيقة، ولم يكُن يتصوَّر «زين» -في أحسن حالاته- أن الحياة يُمكنها أن تبتسم له بهذا الشكل أبدًا! كان زواجه بـ«زينات» أمرًا ساحرًا قلبَ حياته رأسًا على عقب؛ ليس لأنه حقَّق حلمًا قديمًا كان يؤرِّق حياته فحسب؛ بل لأن حلاوة الزواج أنسته كل الأيَّام الحزينة التي مرَّت به. لقد نسي خسارته المالية في مشروع المحطَّة التي تهدَّمتْ في سيناء، ونسى أنه لا يُحب مهنة التدريس، وأصبح يرى القاهرة بعيون مُختلفة بعد أن كان يكره زحامها وأخلاقيات ساكنيها العصبية، كل ذلك لأن فيها زينات، وكل ذلك لأن دخول «زينات» في حياته جعله يشعُر وكأنه يسمو فوق سحاب ناعم كالحرير. دائمًا تطغى النهايات السعيدة وتسود مشاعرها فوق كل الآلام السابقة مهما كانت شدة وطأتها ومهما طالت أيامها الحزينة.

تزوَّج «زين» مَن حلمه القديم «زينات» في نهاية العام ١٩٨٢م الذي رُفع فيه العلم المصري على سيناء بعد الانسحاب الكامل لـ«إسرائيل» منها، لكنه لم يُصبه الحنين للعودة إلى سيناء على الإطلاق، واكتشف حينها أن وطنه هو المكان الذي تكون فيه حبيبته، وأن المكان في حدِّ ذاته لا يهم، المهم أن تكون هي معه.

* * *

سمعت «زينات» ذات صباح صوت شِجارٍ عنيف أيقظها مِن نومها، لكنها سُرعان ما تَبيَّنتْ أن ذلك الصوت المُرتفِع لَم يَكُن سوى صوت زوجها «زين» وهو يتحدَّث عبر الهاتِف مع أحدهم، لكنه لحُسن الحَظِّ كان قد أنهى المُكالمة للتو.

فسألته «زينات»:

- ماذا بكَ؟ لماذا تتشاجر هكذا؟

فقال «زين»:

- عُذرًا، إنه أخي الأصغر، إنه يكاد يُصيبني بالجنون!

فقالت «زينات»:

- ولماذا ذلك؟ ماذا فعل لَكَ؟

فقال «زين»:

- إننا نتشاجر بسبب أمِّي، فهي في حاجة إلى إجراء عمليَّة جراحِيَّة، لكنها في نفس الوقت قد تكون في مُنتهى الخطورة على حياتِها؛ بسبب مُعاناتها مِن مُضاعفاتٍ أُخرى بسبب مَرَض السُّكَّري وقُصور في الكلى والكبد، وأخي هذا يقول إنه لا داعي لإجراء تلك العمليَّة؛ توفيرًا للمَصروفات؛ ذلك لأنها في كلتا الحالتين سوف تموت!

فقالت «زينات»:

- لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله، ومِن أين أتاهُ ذلك اليَقين بأنها ستموت؟ إن الأعمار بيد الله وحده!

فقال «زين»:

- هذا ما قُلته له بالضبط، فأنا ما زلت أتمَسَّك بالأمَل إلى آخر لحظة، وأرى أنه لا بُد مِن أن نقوم بالمُحاولة، لكن أخي اللعين ومعه بقيَّة إخوتي يقولون إن إنفاق الأموال على تلك العمليَّة هو أمر لا

فائِدة مِنه، وإنها تُعَدُّ خسارةً لا داعي لها، وإنه مِن الأولى أن نترك تلك الأموال لميراثنا.

فصَاحَتْ «زينات» وقالت:

- ماذا؟ أيفكِّرون في الميراث بينما لا تزال والدتكم على قَيْدِ الحياة؟ إن الموت لا علاقة له بالمَرَض ولا العُمر، ولا أحد يعلم مَن الذي سيموت قبل مَن، فما أدراهُم أن والدتكم سوف تموت قبلهم؟ فرُبما ماتوا هم قبلها، وحينها ستكون هي وريثتهم وَلَيْسَ العكس!

فقال «زين»:

- إنكِ تُعبِّرين تمامًا عمَّا أردتُ أن أقوله لإخوتي.

فقالت «زينات»:

- وكيف سيكون الحال إن كان أخوكَ هو الذي بحاجةٍ عاجِلةٍ لإجراء تلكَ العَمليَّة الجِراحيَّة؟ هل سيتقبَّل حينها نفس الأمر في حال أن اتفقتُم على عدم إجراء تلكَ العَمليَّة توفيرًا للنَفَقات؟

فقال «زين»:

- بالطبع لا!

فقالت «زينات»:

- حاوِل أن تتحدَّث مع باقي إخوتك، فرُبما استطعتَ أن تُقنِعَ الباقين بوجهة نظرك، فيقومون حينها بالتأثير على هذا الأخ وإقناعه.

فقال «زين»:

- بِكُل أسف إن أخي الأوسَط قام بقطع علاقته بأخي الأصغر مُنذُ عدَّة سنوات.

فقال «زينات»:

- يا للهول! ولماذا حدثَ ذلك؟

فقال «زين»:

- حدثَ ذلك بسبب خلاف حاد نَشَبَ بين زوجتيهما، فقد كانت الأولى تقوم باستفزاز الثانية؛ بسبب أنها أنجَبَتْ ثلاثة ذكور، بينما رُزِقَتْ الثانية بثلاث إناث.

«فقالت «زينات:

- يا له مِن جَهْل وتَخَلُّف، إن إنجاب الذكور والإناث بيد الله عَزَّ وجَلَّ فقط، ولا دَخْلَ للإنسان فيه على الإطلاق، وَلا يُعَدُّ إنجاب الزوجة الأولى للذكور إنجازًا شَخصيًّا يُحسَب لها، وكذلك ليس إنجاب الزوجة الثانية للإناث فَشَلًا أو تقصيرًا مِن جانبها، فالله سُبحانه هو الذي يهب الذكور أو الإناث أو يُصيب الآخرين بالعُقم.

«فقال «زين:

- ونِعمَ بالله، أتدرين، لقد وَصَلَ الخِلاف بينهما إلى درجة أن كلا الطرفين أبلغاني بوَصيَّة مُماثِلة في حالة وفاتهما؟ فكلاهما لا يُرِيدان أن نقوم بدَفنِهما معًا في نفس المَقبَرَة، بَل يتوَجَّب عليَّ أن أدفِن أحدهما في مَقابِر عائِلة والدي، والآخر في مَقابِر عائِلة والدتي!

«فقالت «زينات:

- عُذرًا يا عزيزي إن هذا هو الجنون بعينه! فلا أحد يعلم أين سيموت، فرُبما مات أحدهما في بلدٍ بعيد، ورُبما مات أحدهما في الجو أو البحر، ثم ما الذي يُشعِر المَيِّت بمكان دَفنِه؟ الموتى لا يشعرون بِشَيْءٍ يا عزيزي!

«فقال «زين:

- صَدَقتِ.

فقالت «زينات» وهي تهمُّ بدخول المطبخ:

- ادعُ لهم بالهداية، طاب صباحك.

«فقال لها «زين:

- كيف أدعو لهم بينما هم يترقَّبون الحصول على أموالي أنا أيضًا بعد وفاتي؟

انزعجتْ «زينات»، وتراجعت مِن باب المطبخ، وقالت:

- ماذا؟ لا أفهم ما تقول.

فقال لها وهو يتحسَّس كلماته لكيلا يؤذيها:

لقد نما إلى علمي أنهم ينتظرون وفاتي؛ لكي يتقاسموا فيما بينهم مُعظم ما أمتلكه، وذلك لأنه لا - يوجد وريث لديَّ، إنهم سُعداء بسبب عدم قُدرتنا على الإنجاب.

فقالت «زينات» في حُزن:

إنها إرادة الله يا زين، لقد أكَّد لنا الأطبَّاء أنه لا يُوجد عيب يمنع كلينا مِن الإنجاب، ولا توجد - مُشكلة طبيَّة لديكَ أو لديَّ.

فقال «زين»:

أنا لا ألومكِ في أي شيء يتعلَّق بذلك الأمر يا «زينات»، لكنني حزين أن يكون ذلك الأمر سببًا - كاشِفًا لتلك المشاعر الحقيرة التي يُكنها لي إخوتي للأسف.

ربتتْ «زينات» على رأسه وقالت:

هوِّن عليكَ، لكني أرجوكَ أن توافق على ما قلته له مرارًا قبل ذلك، فلنذهب لتجربة إجراء عمليَّة - أطفال الأنابيب التي يتحدثون عنها كثيرًا مؤخرًا، فرُبما كان ذلك هو الحل الذي يمنحه لنا العلم الحديث.

هزَّ «زين» كتفيه مُستسلمًا وقال:

على الرغم مِن عدم اقتناعي بتلك الطريقة، لكنني سأحاول أن أسأل شيخ المسجد ليُفتيني في - صحة ذلك الأمر مِن الناحية الدينية أولًا، وحينها يكون لكل حادث حديث.

* * *

رُزِقَ «زين» بولده وهو في الستين من عُمره بعد سنوات طويلة مِن العمليَّات والمُحاولات لإجراء التلَقيح الخارجي عن طريق الأنابيب، كانت النتائج في كل مرة مُحبطة للغاية، لكن «زين» لم يكن ييأس أبدًا، فقد كانت فكرة انتظار إخوته لموته ومِن ثَمَّ الاستيلاء على ثروته تؤرقه ليلَ نهار، وهو ما جعله يُحاول ويُحاول إلى أن نجحتْ العمليَّة يومًا، وأصبح له وريث أخيرًا.

لكن تلك السعادة لم تدُم سوى سنوات قليلة إلى أن كبر الابن وصار مُراهقًا. فدون سبب واضح، ودون وجود إسراف في التدليل أو أخطاء في التربية السليمة لذلك الابن، كان الابن صعب المراس وسيئ الطباع، ويتمتع بالنذالة والخِسَّة وعدم احترم الكبار، وعلى رأسهم والداه: «زين» و«زينات»!

وبعد أن كان ليوم ولادته فرحة طاغية، صار ذلك الابن يُمثِّل لوالديه كابوسًا كارثيًّا لدرجة أن «زين» صار يتمنى لو أنه لم يُولد على الإطلاق، وصار مهمومًا به وبأحواله ليل نهار، بينما هو

الآن الشيخ الطاعن في السِّن الذي لا يستطيع إحكام السيطرة على ذلك الابن الجامح.

كانت «زينات» -وهي الأصغر كثيرًا في العُمر مِن زوجها «زين»- تُقاوم تصرَّفات ابنها، وتحاول تقويمه بالشِّدة حينًا وباللين حينًا، وكانت هي التي تقف له بالمرصاد وتقوم بمُراقبة جميع تصرفاته.

إلى أن جاء ذلك اليوم الذي تشاجرتْ فيه «زينات» مع ابنها شجارًا عنيفًا؛ بسبب إدمانه للمُخدِّرات، وتطاول عليها أثناء الشجار بالسباب، فصفعته على وجهه على الفور، فما كان منه إلَّا أنه استلَّ سكينًا وطعنها في قلبها، وتركها على الأرض جُثَّة هامدة، وهبط مِن المنزل قبل أن يعود «زين» مِن المسجد، لكن «زين» لمحه على البُعد وهو يخرج مِن بوابة المنزل، ويجري بعيدًا، وكأنه يهرب مِن شيء ما.

(١٣)

قبل الإفراج

«الآخرون هُم الجحيم، الآخرون لا يعيشون حياتك، ولا أحيانًا يساعدونك على عيشها، هم فقط يحكون عنها نقدًا أو شماتة أو ضربًا للمَثَل!»

جان بول سارتر(19)

الأحد، الحادي والعشرون من يوليو عام ٢٠١٩

«اليوم الخامس عشر بعد إلقاء القبض على «مدحت الشاعر.

كان «مدحت» يشعُر حينها وكأنه قد أطبقتْ السماء على الأرض، وشعر وكأنه واقِعٌ بينهما، ويتم اعتصار قلبه عصرًا، لكنه كان يُقاوم الانسحاق. لم يكُن هُناك سوى حل وحيد هو أن يُحاول الهرب بعيدًا، ومعه قلبه إلى خارج حدود المَجرَّة الكونية أو ربما أبعد مِن ذلك. شَكَرَ الله أنه قد حان موعد الانصراف مِن العمل، فهرول خارجًا وقَفَزَ داخل سيَّارته الفارهة، وانطلقَ بسُرعة شديدة، وكأنه يُحاول الهرب مِن الدنيا وما فيها.

قال لنفسه:

- لا أدري لماذا تجتمع المشاكل كلها في نفس التوقيت فوق رأسي دفعة واحدة، لا يُوجد مُتَّسَع ولو بحجم ثُقب إبرة لكي أتنفَّس أو أُمرِّرَ بصدري بعضًا مِن نسائم الارتياح النفسي، صرتُ لا أقوى حتى على الشهيق والزفير ملء رئتي، وباتَ صدري ضيقًا مِن كثرة الهموم التي تملؤه كخزانٍ للغاز المضغوط الذي يكتظ بما يحمله بداخله، ويكاد ينفجر كقُنبلة نووية في وجه الدنيا وما فيها.

لم ينتبه إلَّا وطنين عدادات السُّرعة بالسيَّارة قد علا صوتها، وأصبحتْ تُزعجه بشدة كحشرة بعوض طائرة تحوم حول أذنه أثناء نوم عميق بعد يوم مُرهِق. نَظَرَ إلى عدَّاد السُّرعة فوجد أنه قد تجاوزتْ سُرعته المائة وأربعين كيلومترًا في الساعة! هو يعلم أن السُّرعة القُصوى المسموح بها هي مائة كيلومتر في الساعة فقط، كما أنه يعلم أن الطريق مُراقب بالكاميرات التي تلتقط أرقام السيارات التي تُخالف ذلك الحد الأقصى المسموح به مِن السُّرعة، ومع ذلك أصرَّ على تجاهُل ما يفعل وقال:

- فلتذهب قواعد المرور والكاميرات إلى الجحيم، لا يهمني قيمة فواتير المُخالفات التي قد يتم قيدها عليَّ، فأنا أُريد الانطلاق.

كان لا يدري إلى أين المَهْرَبْ في هذه الدنيا؟ فهو إذا هربَ مِن مشاكل العمل سيجد مشاكل أخرى غيرها تنتظره في المنزل، فهل يكون الحل البديل هو البقاء في الخارج بعد انتهاء ساعات العمل؟ رُبما يجعله ذلك يتمتَّع بهُدنة ولو لسويعاتٍ قليلة حتى مَطلع اليوم التالي.

كان لا يزال ذلك الطنين يزعجه، نظر إلى عدادات السُّرعة فوجدها تُشير إلى مائة وثمانين كيلومترًا في الساعة! شَعَرَ حينها وكأن السيَّارة ترتفع عن الأرض، ومع ذلك لم يهتم، فهو يُريد التحليق بعيدًا عن هذه الدنيا.

رُبما تكون الأوقات الوحيدة التي يمكنه فيها الهرب مِن تلك الهموم التي تُطارده هي أوقات النوم، ولكن كيف ينام بعُمق وراحة وهو عندما يخلدُ إلى النوم يكون قد انتهى لتوِّه مِن عراك منزلي سخيف، كما أنه يعلم أنه سيجد عراكًا آخر حينما يذهب إلى مكان عمله بعد استيقاظه، أصبح لا يتمنى النوم ولا يُريد الاستيقاظ.

تُشير العدادات إلى مائتي كيلومتر في الساعة! هل يبدو ذلك شديد الخطورة؟ رُبَّما! شَعَرَ حينها بأن السيَّارة هي التي تُسيطر عليه وليس العكس، نَظَرَ إلى عدادات السُّرعة فوجد أن أقصى إمكانيات للسيَّارة هي أن تصل سُرعتها إلى مائتين وعشرين كيلومترًا في الساعة، تساءل حينها:

- لماذا لا تُوجد سُرعات بعدها أكثر مِن ذلك؟

جال بخاطره أنه إذا صادفته أي مُفاجأة على الطريق الآن فلن يستطيع حينها الإفلات مِن الموت المُحقق، وهو على تلك السُرعة العالية، ولن يُوجد مجال أو وقت حينها لتفادي أيَّة أخطار قد تظهر أمامه على الطريق. رُبما لذلك السبب لم يتم تصميم السيارة لكي تنطلق على سُرعات أكثر مِن ذلك، فما بعد ذلك قد يعني الموت.

الموت؟ يبدو ذلك حلًّا مُبتكرًا لمثل مَن هُم في حالته، فقد يرتاح حينها مِمَّا يؤرقه عبر جميع ساعات اليوم والليل وأثناء النوم، يا لها مِن سُرعة مُمتعة، مائتان وعشرون كيلومترًا في الساعة! يشعُر وكأنه يقود طائرة صغيرة حرفيًّا، وربما يلي ذلك التحليق نوع آخر مِن الصعود نحو السماء، ومِن المُحتمل أنه قد يواجه أمرًا ما على الطريق الآن، وينتهي كل الأمر.

سَمِعَ بجواره صوت الهاتف المحمول وهو يُعلن عن اتصال ما يأتيه مِن بعيد، لَمَحَ على شاشته اسم ابنته الصغيرة، فالتقطَ الهاتف، وأجابها على الفور. لم تقُل الصغيرة شيئًا ذا أهمية تُذكر، فقد كانت فقط تُريد أن تستمع إلى صوته، يا لدلال الأطفال وطرافتهم! أنهى معها المُكالمة على وعدٍ مِنه بأنه يكاد يقترب مِن المنزل، ثم أعاد هاتفه إلى جواره بينما لَمَحَتْ عيناه أن عدادات السُّرعة تُشير إلى ثمانين كيلومترًا في الساعة فقط! يا لها مِن صُدفة غريبة! هل كانت الابنة تشعُر بالخطر الذي كان عليه منذ لحظات؟

حينها استيقظ «مدحت» فجأة ليجد أنه كان يحلم! نعم كان يحلم. لم يجد نفسه داخل السيَّارة، ولا في الطريق نحو منزله الفخم، بل كان لا يزال قابعًا في تلك الزنزانة الحقيرة المُظلمة مُستلقيًا على الأرض، ولا يوجد أي جديد سوى اختفاء المسنِّ «زين» مِن الزنزانة! إلى أين ذهبوا به يا تُرى؟ ولماذا لم يشعُر بهم عندما اقتادوه مِن المكان؟ ما هذا اليوم الغريب؟ سأل نفسه في دهشة.

مرَّتْ ساعتان أو رُبما ثلاث ساعات إلى أن عاد أحدهم ليقوم بفتح باب الزنزانة، أطلَّ مِنه جُندي جديد لم يكُن «مدحت» قد رآه مِن قبل، وأخذ يتأمَّل في وجه «مدحت» الذي بادله نفس النظرات مُنتظرًا مِنه أن يقول له شيئًا، لكن الرجل لم ينطق بكلمة، ثم صفع الباب ورَحَل!

عاد نفس العسكري بعد قليل، وفتح الباب وسأله:

- هل أنتَ «مدحت أحمد الشاعر»؟

فرفَعَ «مدحت» رأسه نحوه وهزَّها بالإيجاب، فسأله العسكري مُجددًا:

- هل تعرف أحدًا يُدعى «سعيد»؟

فقال «مدحت»:

- «سعيد المُقدِّم»؟ أجل، إنه صديقي.

صمتَ العسكري للحظات، ثم أغلق الباب، ورحل مُجددًا! اندهش «مدحت» بشدة مِن تلك التصرُّفات غير المفهومة لذلك العسكري. ما الذي يجري هنا في هذا اليوم؟

ولكن بعد دقائق قليلة، عاد نفس العسكري مِن جديد ليقوم بفتح الباب، وأخذ يدفع بعُنف بيده اليُسرى ثلاثة رجال إلى الداخل، بينما كان يحمل بيده الأخرى لفافة كبيرة مِن الطعام ألقاها بصفاقة نحو «مدحت» دون أن يتفوَّه بكلمة واحدة، ثم استدار وأغلق الباب ورحل!

أخذ الجميع يتبادلون النظرات الاستفهامية للحظات، ثم جلس القادمون الجُدُد على الأرض، بينما ألقى أحدهم تحيَّةً فاترةً على «مدحت»، فقام بالرَدِّ على تحيَّته بتحفُّظٍ واضح. بدأ «مدحت» يتصفَّح في وجوههم -خِلسة- الواحد تلو الآخر، فمِن المؤكَّد أن السبب وراء اقتياد هؤلاء الرجال إلى هذه الزنزانة على وجه التحديد هو أنهم ليسوا مِن مُعتادي الإجرام، ولكنه تسَاءَل:

- ماذا تكون تلك الجريمة التي اشتركوا جميعًا في ارتكابها يا تُرى؟ لا بُد أنها جريمة كبيرة لكي تحتاج إلى كل هذا العدد مِن الرجال لارتكابها.

ساد الصمت المُطبَق فيما بينهم جميعًا، وكأنه أمرٌ مُتعمَّد قد اتفقوا عليه سابقًا، فقد كان «مدحت» يتوجَّس خيفَةً مِن كثرتهم بالنسبة له، ولذلك فضَّل أن ينتظر إلى يبدأ أحدهم في جذب أطراف

الحديث، ورُبما تبدأ بعدها الحوارات والحكايات، لكن لم يفعل أيُّ شخص مِنهم ذلك على الإطلاق. كان باديًا على وجوههم جميعًا أنهم لا يُصدِّقون أنه قد تم اقتيادهم إلى هذا المكان، فقد كانت تعلو وجوههم الدهشة لا الحُزن، فتوقَّع «مدحت» حينها أن هؤلاء الرجال يتعجَّبون مِن اكتشاف أمرهم، ولا بد أن تخطيطهم لجريمتهم كان مُتقنًا لدرجة كبيرة يصعُب اكتشافها.

مرَّ وقت طويل وهم جميعًا على تلك الحال، لكن صمتهم ذاك لم يكن الأمر الوحيد الذي جعل «مدحت» يتعجَّب مِنهم فحسب، بل كان واضحًا أيضًا أنهم يتحاشون النظر في وجوه بعضهم بعضًا، وكانوا يتعمَّدون ألَّا تلتقي أعينهم، وكأنهم في حالة شديدة مِن إلقاء اللوم المُتبادل فيما بينهم، لا بُد وأن هناك خطأ ما أدَّى إلى افتضاح جريمتهم أو فشلها أثناء ارتكابها.

ظلَّ «مدحت» صامتًا وهو يُراقبهم في حذر، إلى أن بدأ أحدهم في تغيير وضعية جلوسه، واستلقى بكامل جسده على الأرض، ثم توسَّد كفيه خلف رأسه وأطبق جفونه لينام، ولم تمر دقائق معدودة إلَّا وصدر مِنه صوت شخير خفيف! كيف غطَّ الرجل في نومه بعُمق بهذه السُرعة؟ سأل «مدحت» نفسه مُتعجِّبًا!

وبعد ذلك بدقائق، قام الرجلان الآخران بتقليد ما فعله زميلهما الأوَّل، وأصبح الثلاثة يشغلون معظم مساحة الزنزانة في وضع عمودي على مكان جلوس «مدحت» الذي ظلَّ يراقبهم في سكون، إلى أن امتلأت جنبات الزنزانة بصوت شخيرهم جميعًا.

شعر «مدحت» بالجوع، فقام بفتح لفافة الطعام التي كان قد أتى له بها ذلك الجُندي غريب الأطوار، وقام بتناول وجبته التي لا يدري أتكون وجبة الغداء أم العشاء، ثم قام بتجميع بقايا الطعام ونهض مِن مكانه، وتحرَّكَ بحرص لكيلا تطأ قدماه أحد أجساد النائمين الثلاثة، وقام بتعليق حقيبة الطعام البلاستيكية على أحد المسامير المُثبتة على الحائط، ثم عاد أدراجه نحو مكانه الأصلي بنفس الحرص.

الاثنين، الثاني والعشرون من يوليو عام ٢٠١٩

«اليوم السادس عشر بعد إلقاء القبض على «مدحت الشاعر.

كان «مدحت» يُدرك ويعي تمامًا أنها كانت مُجرَّد لحظات قليلة، رُبما كانت ثانيتين أو ثلاث أو أربعة ثوان، ورغم ذلك، فقد حدث فيها كل ما يُمكن أن يُشاهده المرء في ساعات طويلة! يقول العُلماء: إن الأحلام التي نُشاهدها أثناء نومنا لا تستغرق مِن الوقت أكثر مِن خمس عشرة ثانية على أقصى تقدير، لكننا نظُن أنها تستغرق ساعتين أو أكثر كالأفلام السنيمائية، ويرجع السبب في ذلك إلى كثرة وتعاقُب وتداخُل الأحداث التي نُشاهدها ونعيشها أثناء الحلم، وهو ما عايشه «مدحت» بنفسه خلال تلك اللحظات القليلة.

كان يقود سيَّارته آنذاك بسُرعة كبيرة على الطريق الدائري السريع، ثم انحرفتْ نحوه فجأة شاحنة كبيرة تحمل أطنانًا مِن أسياخ حديد التسليح الطويلة، ليرى حينها الموت بعينيه وهو يكاد يقترب مِنه ويُطبق عليه في تلك اللحظات القليلة. أدرك على الفور أن الأمر لن يستغرق أكثر مِن ثانيتين أو ثلاث أو أربع ثوانٍ على أقصى تقدير، وسيكون قد اصطدم بتلك الشاحنة فتسحقه سحقًا. لم يكُن يعرف هل سيشعُر بالألم خلال تلك الثواني البسيطة التي ستسبق موته؟ أم إنه سيموتُ فجأة، ولن يشعُر بشيء؟ كان يتمنى دائمًا أن يُفارق الحياة دون ألم.

رُبما كانتا ثانيتين أو ثلاث أو أربع ثوانٍ، لكنه تذكَّر فيها زوجته «شهيرة»، بل وتخيَّل كيف سيكون حالها عندما تستقبل خبر وفاته! إنه يعلم أنها ستجزع وستنهار، وقد تظل حزينة لشُهور عديدة قادمة، لكنها ستعتاد غيابه بعد ذلك سريعًا. مِن المؤكد أنها ستكون مُمتنةً؛ لأنه لم يكُن مُقصِّرًا في تأمين مُستواها المعيشي المُرتفع سواء كان حيًّا أو ميِّتًا، فبوليصة التأمين على حياته ستوفر لها دخلًا شهريًّا مُرتفعًا لن يجعلها تشعُر بأي تغيير أو نقص مادي. لكنه أخذ يُفكِّر حينها: هل ستفتقده «شهيرة» حقًا؟ أم إنها ستُفكِّر في أن ترتبط برجل آخر مِن بعده؟ يعلم «مدحت» أنها ستكون مَطمعًا للكثيرين، وسيحوم مِن حولها العديد مِن الرجال، ومَن يدري؟ فربما تميل هي إلى أحدهم بعد أن تعتاد نسيانه. استشاط غضبًا حينها مِن تلك الفكرة، لكنه لن يستطيع أن يمنعها مِن فعل ذلك وهو ميِّتٌ بالطبع.

وماذا عن أطفاله إذًا؟ يؤلمه للغاية أن يعيش أبناؤه دون أب وهم صِغارٌ هكذا. كيف سيستقبلون خبر وفاته؟ وكيف سيكونون خلال تلك الأيَّام الأولى التي تكون فيها طُقوس تقديم العزاء، وكذلك زحام زيارات الأصدقاء لمواساتهم؟ وماذا عن تلك الأيام التي ستلي كل ذلك عندما ينفضُّ الناس مِن حولهم؟ هل سيتنفسون الصعداء لأن رقابته الصارمة لهم قد انتهت؟ هل سينعمون بمظاهر اللهو واللعب التي كان يحرص على تقنينها لهم؟ هل ستكون أُمهم مُهتمة بمُستقبلهم العلمي والأدبي مثلما كان يفعل وهو على قيد الحياة؟ أم إنها ستنشغل بأحوالها الخاصة عنهم؟ يكادُ رأسه ينفجر مِن كل تلك الأفكار المؤلمة، وأصبح يشعُر بالاختناق مِن شدة الإحباط، لكن ما الذي يُمكنه عمله وهو ميِّت؟

وماذا أيضًا عن المناصب التي كان يشغلها؟ وماذا عن مكانته المرموقة التي كانت حِكرًا عليه لسنوات طويلة؟ أخذ يتخيَّل جميع هؤلاء الأفَّاقين -الذين كان يُحجِّم مِن أدوارهم حينما كان حيًّا- بينما هم الآن فرحون برحيله؛ لأنه كان دائمًا العقبة التي تُعوق ألاعيبهم وتملقهم للرؤساء والمسئولين. رآهم بعينه وهم يتصارعون مِن بعده على المنصب الذي كان يشغله، ورآهم وهم يقومون بتدبير السرقات والمُخالفات، فشعر بدمائه وهي تحترق بداخل عروقه مِن شدة الغيظ، لكنه لن يستطيع أن يمنعهم مِن فعل كل ذلك -مع الأسف- وهو ميِّت.

لكنه نجح في الانحراف بسيَّارته بأُعجوبة مُتفاديًا الاصطدام بتلك الشاحنة الكبيرة، لقد تخطَّى لحظات الموت المؤكَّد، وعاد إلى الحياة مُجددًا! تنفَّس حينها الصعداء وتحسَّس جبهته؛ ليتأكَّد مِن أن جسده لا يزال سليمًا، وأنه يمتلئ بالحياة لا الموت، يا لها مِن لحظات مُروِّعة.

عاد «مدحت» أخيرًا إلى المنزل، دخل إلى البهو الرئيسي وقدماه لا تستطيعان حمله، فوجد «شهيرة» وهي تقوم بالعناية بأظافرها دون أن تنتبه إلى وجوده! شعر بالحنق نحوها؛ لأنه رآها في خياله -أثناء تلك اللحظات الرهيبة التي كاد يموت فيها- وهي تتزوَّج مِن رجل آخر غيره، وتُغدِق عليه مِن أمواله هو، كما أحسَّ بالغضب مِن أبنائه الذين كانوا سيعيثون فسادًا مِن بعده!

استيقظ «مدحت» على صوت «الصول رمضان»، وهو يهزُّه مِن كتفيه ويقول:

- ماذا بكَ يا سيدي؟ هل هو كابوس أم ماذا؟

فتح «مدحت» عينيه باندهاش، وأخذ يجول ببصره فيما حوله؛ لكي يستوعب المكان والزمان، ثم استعاد إدراكه وقال:

- أجل، لقد كان كابوسًا مُتكررًا لليوم الثاني على التوالي، مع اختلاف بعض التفاصيل.

فقال «الصول رمضان»:

- رُبما أثقلتَ في تناول الطعام قبل نومكَ يا سيدي.

فقال «مدحت»:

- لا أدري، رُبما.

فقال «الصول رمضان»:

- ارتشف بعض الماء، وحاول النهوض، فوكيل النيابة يطلبكَ للتحقيق الآن.

فعل «مدحت» ذلك، وصعد بصُحبة «الصول رمضان»، لكنه انتظر طويلًا إلى أن سمحوا له بالدخول للمثول أمام وكيل النيابة. كان «مدحت» شاردًا ومُتأثرًا بكوابيسه تلك، كما أن الأسئلة التي وجَّهها وكيل النيابة إليه كان مُملة، ولم تتغيَّر عمَّا كانت عليه في التحقيقات السابقة. شعر «مدحت» بأن ذلك الاستجواب هو أمر روتيني ضحل، ولا يوجد فيه أي شيء جديد، وأنه مُجرَّد تكرار لما سبق دون أن يعرف السبب. ثم حدث ما توقعه تمامًا حينما سمع تلك الجُملة البغيضة:

- هذا وقد أمر وكيل النيابة بتمديد فترة الحبس الاحتياطي للمُتهم «مدحت أحمد الشاعر» لمُدة أربعة أيَّام أُخرى على ذِمَّة التحقيقات.

حينها أدرك «مدحت» لماذا تم استدعاؤه إلى ذلك الاستجواب ذي المضمون الفارغ.

خرج «مدحت» بصُحبة «الصول رمضان» ليعود إلى زنزانته، فوجد الرجال الثلاث الجُدُد -الذين انضموا إلى زنزانته أمس– ينتظرون دورهم للدخول إلى غُرفة التحقيقات. عاد «مدحت» إلى زنزانته وحيدًا وهو يحمل الطعام الجديد الذي أتى به «سعيد»، فتناول طعامه وجلس ينتظر عودة هؤلاء الرجال الثلاثة، لكن غيبتهم طالت بشدة ولساعات طويلة حتى المساء! فأدركَ حينها أنه رُبما قد تم ترحيلهم إلى مكان آخر. ثم بدأ يشعُر بانخفاض شديد في ضغط دمه؛ لشدة إحباطه؛ بسبب تمديد حبسه دون طائل، ودون أن يطمئن على «شهيرة»، فاستلقى على الأرض ونام على الفور.

الثلاثاء، الثالث والعشرون من يوليو عام ٢٠١٩

«اليوم السابع عشر بعد إلقاء القبض على «مدحت الشاعر.

استيقظ «مدحت» في صباح اليوم التالي، ليجد أن الرجال الثلاثة قد تم إعادتهم إلى الزنزانة! أخذ ينظر نحوهم باندهاش شديد، بينما تدور في رأسه العديد مِن الأسئلة في نفس التوقيت. كيف لم يشعُر أو يستيقظ مِن نومه عندما عاد هؤلاء إلى الزنزانة؟ ما الذي تغيَّر فيه فجأة مِن شخص كان لا يستطيع النوم إلى شخص آخر ينام وكأنه يرقُد في غيبوبة؟ وأين كان هؤلاء الثلاثة طوال ذلك الوقت؟ ومتى عادوا؟

كان أحدهم لا يزال نائمًا ويُطلق شخيرًا عالي الصوت، بينما أوسطهم يرقد مُتَكئًا على ساعده، وهو ينظر نحو ذلك الرجل النائم، وهو يبتسم؛ بسبب صوت شخيره المُرتفع، أما ثالثهم فقد كان مُستيقظًا وجالسًا مُسندًا ظهره إلى الحائط، لكنه يقوم بإغلاق عينيه طويلًا ثم يقوم بفتحهما، كان وكأنه يُفكِّر في أمر ما. كاد «مدحت» أن يستسلم لفضوله الشديد ويبدأ بسؤالهم عن سبب اختفائهم طيلة يوم أمس، لكنه آثر أن يلتزم الصمت مثلما فعل عند حضورهم قبل ذلك، وفضَّل أن ينتظر إلى أن يبدأ أحدهم بالحديث؛ ليتعرَّف مِن خلال كلامهم على شخصيَّاتهم، عملًا بالحكمة التي تقول: «تحدَّث لكي أراكَ».

فُتِحَ باب الزنزانة فجأة، وأطلَّ مِنه «الصول عيد» الذي صاح بجلافته المعهودة قائلًا:

- «زيارة، مدحت أحمد الشاعر».

كان ذلك يعني أن ينهض «مدحت» بسُرعة ليصطحبه «الصول عيد» إلى الأعلى، حيث يوجد مَن يُريد زيارته، وهو على الأغلب سيكون «سعيد»، وقد كان هو بالفعل. تعانق الصديقان «مدحت» و«سعيد»، بينما صاح «الصول عيد» قائلًا:

- «هذه الزيارة ستكون لمُدَّة رُبع ساعة فقط، عليكما الالتزام بذلك حرفيًّا. ثم صَفَعَ الباب بعُنف ورحل. نظر «سعيد» نحو الباب وهو تبدو عليه الدهشة، ثم نظر في وجه «مدحت»، وانفجر كلاهما في ضحكٍ مُتواصل، ثم قال له «مدحت»:

- لا تتعجَّب، إنه «الصول عيد»، وهو ذو طباع غليظة على الدوام.

فقال له «سعيد»:

- لكنه رُبما قد يكون طيِّب القلب مِن داخل أعماقه.

فقال «مدحت»:

- وأنا أيضًا أعتقد فيه ذلك، ولكنني أُفضِّل التعامُل مع «الصول رمضان» الذي يمتاز عنه باللين وحُسن المُعاملة.

فقال «سعيد»:

- ورُبما كان «عيد» كذلك يومًا، رُبما كان حسن الظن بالآخرين في الماضي، إلى أن تسبَّب له ذلك في حدوث العديد مِن المشاكل، ورُبما عوقِبَ بسبب ذلك.

فقال «مدحت»:

- هذا صحيح، ربما عانى كثيرًا بسبب استجابته إلى أمور تندرج تحت تعريف العَشَم الزائِد.

فقال «سعيد»:

- في واقِع الأمر دائِمًا نجد ذلك العَشَم حتى بين الأصدقاء والأقارِب والإخوة، وكثيرًا ما بحثتُ عن أصل الفِعل «يتعشَّم» في المعاجِم، فوجدتُ أنه خَليطٌ بين الأفعال الثلاثة: يتأمَّل، ويطمَع، ويطمَح، جميعهم معًا في وقتٍ واحد، يا له مِن شُعور مُرَكَّب ومُعَقَّد للغاية!

ابتسم «مدحت» ثم قال:

- المهم، هل تُوجد أيَّة أخبار جديدة؟ لقد تم استدعائي للتحقيق معي يوم أمس، ولم يكُن هناك أي جديد لديهم على الإطلاق، فهل تعلم أنتَ شيئًا مُختلفًا؟

فقال له «سعيد»:

- الجديد أنه لا يوجد جديد، فجميع الاستنتاجات التي سلكها المُحققون ورجال المباحث لم تدلهم على شيء! لم يظهر خاطفو «شهيرة» على الإطلاق، ولم يتصل بنا أحد، ولم يطلب مِنَّا الفدية أي شخص. لقد كان رجال الشُرطة يتوقعون أن يرد إلينا اتصال ما في أي وقت وعلى أي جهاز هاتف، لذلك أمرونا أن نجعل جميع أجهزة هواتفنا حاضرة ومُستعدة لاستقبال الاتصالات طول الوقت، هاتفي، وهاتفك، وهاتف شهيرة، وهواتف الأولاد، والخادمة، ومُساعدتها، وكذلك هواتف

منزلكَ ومنزلي ومكتبكَ بالجريدة ومكتبي بوزارة الثقافة، لم يستبعدوا أي احتمال. ثم نصحونا بتصفُّح البريد الإلكتروني لنا جميعًا أنا والأولاد، بالإضافة إلى بريدكَ الإلكتروني الموجود على هاتفك أنتَ، وكذلكَ البريد الإلكتروني لـ«شهيرة» الموجود على هاتفها، بخلاف انتظار أي بريد ورقي أيضًا قد يصل إلى منزلكَ أو منزلي أو مكتبكَ أو مكتبي.

فقال «مدحت»:

- يا لله، لقد مرَّ أكثر مِن أسبوعين! كيف يختفي الخاطفون كل ذلك دون أن يُظهروا نواياهم وطلباتهم؟

فقال «سعيد»:

- ولذلك السبب تم توجيه دفَّة البحث نحو اتجاه آخر، وهو ألَّا تكون «شهيرة» قد اختُطِفَتْ.

فقال «مدحت»:

- ماذا؟

فقال «سعيد»:

- لقد قاموا بتوزيع نشرة رسميَّة بأوصاف «شهيرة» وصورتها، وبحثوا عنها في المُستشفيات الحكومية والخاصة والملاجئ وأقسام الشُرطة، وحتى الآن لم يصلنا أي رد مِن أي جهة قد تكون «شهيرة» موجودة فيها.

فقال «مدحت»:

- يا للغرابة! أين تكون قد اختفتْ إذًا؟

فقال «سعيد»:

- هذا هو الوضع حتى الآن، ويبقى الاحتمال الأوَّل -وهو أنكَ قد قُمتَ باختطافها- هو ما يحاولون إثباته بالضغط عليكَ حينًا، وبالبحث عن آثارها في جميع الأماكن والمسارات التي اعتدتما أن تسلكاها حينًا أُخرى.

فقال «مدحت»:

- ولن يجدوا شيئًا، إن البحث في ذلك الاتجاه هو مَضْيَعَةٌ للوقت والجهد، والأهم مِن ذلك أن يوحدوا جهودهم في اتجاه أكثر فائدة؛ لكي يجدوا «شهيرة» في أسرع وقت.

:«فقال «سعيد

- هذا هو كل شيء لديهم للأسف.

فأطلق «مدحت» زفرةً طويلة وقال:

- نسأل الله العافية والفرج.

:«فقال «سعيد

- آمين.

ثم قال «مدحت» وكأنه قد تذكَّر شيئًا:

- بالنسبة للطعام الذي تأتيني به في كل يوم، إنكَ تُرهق نفسكَ ماديًّا كثيرًا يا عزيزي، إنكَ تُحضر لي في كل يوم ألوانًا مُختلفة مِن اللحوم أو الدجاج أو الأسماك، وهذا كثير، يُمكنكَ أن تُحضر الوجبات الشعبية كالكُشري والفول وما شابه.

فضحكَ «سعيد» بشدة وقال:

- أولًا لا تقلق، فمجرَّد خروجكَ مِن هنا سأقوم بتقديم الفواتير المالية لكل ما جئتكَ به؛ لتقوم بسداد ثمنها إليَّ (وضحك مُجددًا) أما بالنسبة لأنواع الطعام، فالكُشري يا عزيزي لن يُمكِّنكَ مِن الصمود أمام الجوع طوال اليوم، أنا أعلم مِنكَ بأنواع الطعام التي تُشبعكَ وتُقيم صُلبكَ.

ابتسم «مدحت» بامتنان شديد، وربتَ على كتف «سعيد» الذي ربتَ هو أيضًا بيده على يد «مدحت»، لكنهما أصابهما الفزع فجأة حينما فُتِحَ باب الغُرفة بعُنف شديد وسط صياح حاد مِن «الصول عيد» الذي قال:

- لقد انتهى وقت الزيارة.

ضحك كلا الصديقين مُجددًا، وأشار كلاهما نحو الآخر مُودِّعًا، وأسلم «مدحت» ذراعه ليد «الصول عيد» الغليظة، وهو يجرُّه نحو مكان مَحبسه.

دخل «مدحت» الزنزانة، فوجد أن الرجال الثلاثة ما زالوا في أماكنهم وبنفس الأوضاع التي تركهم عليها، بخلاف أن الشخص النائم كان قد استيقظ مِن نومه، لكن الجديد هو أنهم كانوا يتناولون طعامًا ما، ولكنْ كلٌّ مِنهم بمُفرده، ويبدو أن ذلك الطعام قد جاءهم مِن مكان واحد، فأوراق تغليف الطعام مكتوب عليها: «مطعم الحسَن والحُسين للفول والفلافِل».

التفتَ أحدهم نحو «مدحت» وقال:

- تفضَّل معنا، لقد فاتكَ أن تُخبر «الصول» الذي يشتري الطعام بطلباتكَ، ولا أعتقد أنه سيذهب لشراء الطعام مُجددًا في هذا اليوم.

فقال «مدحت»:

- أي صول؟ وأي طعام؟ أنا لا أفهمكَ!

فقال الرجل:

- إن الطعام الذي يقومون بإعداده هنا ليس صالحًا للاستخدام الآدمي، لذلك فإنه مِن المُمكن أن يشتري لك الصول طعامًا مِن الخارج، ولكن في وقتٍ مُوَحَّد للجميع.

فقال «مدحت»:

- لم أكن أعلم بذلك على الإطلاق، فهناك صديق ما يأتيني بالطعام في كل يوم.

فقال الرجل الثاني:

- حسنًا، إذًا فهذا الأمر لا ينطبق عليكَ ولن تحتاجه؛ فشراء الطعام مِن الخارج مسموح به فقط في حال ألَّا يكون هناك طعام يأتيكَ مِن أهلكَ وذويكَ، ذلك أفضل كثيرًا لكَ.

أومأ «مدحت» برأسه مُتفهمًا، ثم جلس في مكانه وهو في غاية الامتنان والتقدير لما يُحضره «سعيد» مِن أجله يوميًّا مِن طعام شهي.

قال الرجل الأول للرجل الثاني:

- ناولني تلكَ القارورة يا.... ما اسمكَ يا عزيزي؟

فابتسم الرجل وقال له:

- خليل، اسمي خليل.

فصاح «مدحت» قائلًا باندهاش شديد:

- ألا تعرفون بعضكم؟ لقد ظننتُ أنكم أصدقاء أو شُركاء..

«فقال «خليل:

- إنها المرَّة الأولى التي نلتقي فيها، لماذا كنتَ تظُن أننا أصدقاء؟

تلعثم «مدحت» وقال:

- رُبما لأنكم جئتم معًا في نفس التوقيت، رُبما أخطأتُ التقدير، (ثم أشاح بيده وهو يخجل مِن نفسه) وقال:

- لا يهم الآن، انسَ ذلك الأمر.

فقال الأول:

- «أنا «خليل.

وقال الثاني:

- «وأنا «سامي.

وقال الثالث:

- «وأنا «حسن.

«فقال «مدحت:

- «وأنا «مدحت»، «مدحت الشاعر.

الأربعاء، الرابع والعشرون من يوليو عام ٢٠١٩

«اليوم الثامن عشر بعد إلقاء القبض على «مدحت الشاعر.

استيقظ الجميع في وقت واحد تقريبًا، ثم ألقوا التحية إلى بعضهم، لكنهم ظلوا على صمتهم المُعتاد لا يتكلمون. أخرج كل مِنهم بقايا طعامه ليتناولوا إفطارهم، ثم أسند كلٌ مِنهم ظهره إلى الحائط، واستمروا على حالة الصمت نفسها! كان «مدحت» يعتقد أن طرافة الموقف الذي حدث قبل النوم أمس –حينما اكتشف أنهم لا يعرفون بعضهم كما كان يظُن- قد تُذيب الجليد فيما بينهم، ويجعلهم ينطلقون في الحديث معه، لكن يبدو أن ذلك الاكتشاف هو سر صمتهم أيضًا، لا يدري.

«شعر «مدحت» بالمَلل، فأمسكَ بأوراقه وقلمه، وأخذ يدوِّن شيئًا ما، فسأله «خليل:

- ماذا تكتب يا عزيزي؟

فقال «مدحت»:

- إنني أقوم بتدوين تاريخ اليوم، فأنا محبوس هنا منذ زمن طويل، وأودُّ أن أُحافظ على تدوين عدد الأيَّام التي أقضيها هنا لكي أكون على دراية بالدنيا مِن حولي إذا خرجت مِن هنا يومًا.

فقال «سامي»:

- هذا السجن مؤقت يا عزيزي، ستخرج مِن هنا عاجلًا أم آجلًا، سواء كنتَ مُتهمًا أم بريئًا.

أومأ «مدحت» برأسه موافقًا، ثم استدركَ وقال:

- أتدرون يا أعزائي، لقد كنتُ أعتقد في الأيَّام السابقة أن ثلاثتكم تنتمون إلى عصابة واحدة، وأن السبب فيما وراء صمتكم المُستمر هو غضبكم الدفين تجاه بعضكم؛ بسبب فشل خطتكم سواء أثناء ارتكاب الجريمة، أو بعد اكتشاف أنكم الفاعلون الأصليون بعد هروبكم.

ضحك الجميع بشدة، وقال «حسن»:

- لم أكُن أتخيَّل أنني سأجد ما يُضحكني في هذا المكان إلى هذا الحد.

فقال «خليل»:

- وأنا أيضًا، أتعلمون، لا يوجد على سطح هذه الأرض كلها أُناس يبثون روح الفُكاهة -حتى وهم في وسط المأساة- سوى المصريين.

فقال «مدحت»:

- هذا صحيح إلى درجة كبيرة.

فقال «خليل»:

- لقد عملت لسنوات في بلد خليجي، ولا أذكُر أنني وجدتُ ما يُضحكني مِن أعماق قلبي إلى أن عدتُ إلى هنا.

فقال له «مدحت»:

- وماذا كنت تعمل هناك يا «خليل»؟

:«فقال «خليل

- كنتُ أعمل سائقًا لشاحنة إنقاذ السيَّارات المُتعطلة.

:«فقال «مدحت

- ولماذا لم تضحك وأنتَ هناك؟ ألم تكن سعيدًا في عملكَ أم إن هناك سببًا آخر؟

:«فقال «خليل

- كانت الحياة كلها كئيبة، حتى في أيَّام الأعياد التي مِن المُفترض أن تكون أيَّام فرحة وسعادة.

:قطَّب «مدحت» جبينه وقال

- يا الله! وكيف كان ذلك؟

:أطلَقَ «خليل» زَفرةً طويلةً وقال

- إنني على عكس أغلب الناس هناك، كنتُ أُعاني في الأعياد ولا أفرح فيها كباقي البَشر، كنتُ أقضي جميع الأعياد هناك، ولا أستطيع السفر إلى مصر؛ لسببين مهمين، أولهما هو ضيق ذات اليَد، فأسعار رحلات الطيران تكون ثلاثة أمثال قيمتها خلال الأوقات الاعتيادية على أقل تقدير، وثانيهما أن الشركة التي كنتُ أعمل بها كانت تُولي أهميَّةً خاصة لوجود أحدنا على الأقل للطوارئ خلال أيَّام العيد.

:صمتَ الجميع حيث لم يجدوا ما يقولونه، فاستكمَلَ «خليل» حديثه قائِلًا

- أتدرون ماذا يَحْدُث هناك في كل عيد؟ إن كل ما يَحْدُث في العيد لا بُد أن يؤلمكَ وأن يُذكِّركَ في كل لحظة بمدى ضيق حالك وشِدَّة وحدتك! إن مُعظم أهل المدينة سواء كانوا مِن المواطنين أو الوافدين يُسافرون خلال أيَّام العيد، مِنْهُم مَن يُسافر للسياحة، ومِنْهُم مَن يُسافر لزيارة الأهل، ولا يبقي في المدينة سوى أمثالي، مِمَّن تَمنعهم الظروف مِن السفر، وغالبًا ما تكون تلك الظروف ماديَّة في المَقام الأوَّل، حينها تشعُر بذلك الحُزن الخفي والدفين في نفوس الجميع، على الرغم مِن أنها أيَّام عيد!

إنكَ عندما يأتي العيد وتكون مُضطرًا لأن تقضيه هناك، لا شيء يُمكنه أن يُهَوِّن عليكَ ذلك الشعور بالضيق سوى أن هناك آخرين مِثلكَ يُشاركونكَ نفس الإحساس، وحتى إن كُنتَ لا تعرفهم، فوجودهم في العيد دون أن يتمكنوا مِن السفر هو أمرٌ كافٍ لكي تعرف أنهم يعانون نفس الحُزن الذي تغرق فيه.

ظلَ الجميع على حالهم مِن الصمت، فاستكمل «خليل» حديثه وكأنه ينتهز الفَرصة لِكي يُنَفَس عمَّا يضيقُ بصدره وقال:

- وَلَيْسَ الحُزن هو كل شيء، بل يوجد أمرٌ آخر، ألا وهو سوء الحَظِّ بخلاف الحُزن! أعلم أنني أتكسَّب قوتَ يومي؛ بسبب الأعطال التي تُصيب سيَّارات الآخرين، تمامًا مِثلما يكسب الطبيب أمواله عن طريق المَرَضِ الذي يُصيب الناس، لكنني كنتُ أكره نفسي حينما يطلبني أحدهم لكي أقوم بنقل سيَّارته المُتعطِّلة مِن أحد الطُرقات. فبخلاف أن ذلك الشخص يُعاني مِن الحُزن بسبب عدم مَقدرته على السفر خلال أيَّام العيد، فإنه يُصاب بسوء الحَظِّ فوق ذلك كله، فتتعطَّل سيَّارته، وتتقيَّد حركته، وسينتظر لما بعد العيد؛ لأن جميع مراكِز الصيانة تُغلِق أبوابها خلال أيَّام العيد، بالإضافة إلى التكلفة الباهِظة التي سيتكلفها عند إصلاح السيَّارة، إنه خرابٌ مُضاعَف وخسائِر مُتصاعدة، وحُزنٌ فوق حُزن.

ظلَّ الجميع يُنصتون إليه باهتمام ودون تعقيب، فاستكمل «خليل» حديثه قائلًا:

- كنتُ أشعُر بالقهر حينًا، والسلبيَّة حينًا آخر، لكنني في كل الأحوال كنتُ أشعُر بأنني مُسَيَّر وقليل الحيلة، ولا يُمكنني توجيه الأمور، وأنني أيضًا مَغلوبٌ على أمري في كل شيء. رُبما كان القرار الوحيد الذي شعرتُ فيه بالإيجابيَّة والتحكُّم هو أنني عُدتُ إلى مصر، وكان ذلك هو الحدث الأبرز الذي غيَّر مِن نمط حياتي كلها. التحقتُ بعدها بأحد المصانع القريبة مِن منزلي لأعمل في وظيفة عامِل تشغيل لإحدى الماكينات، وشعرتُ أخيرًا بأنني يُمكنني تغيير الأمور. ولأن الكمال لله وحده، كان لا بُد مِن وجود أمر ما يُعكِّر صفو حياتي الجديدة في ذلك المصنع، كان ذلك الأمر هو الجبروت الذي ألقاه أنا وزُملائي مِن مُشرف الإنتاج أو رئيس العُمَّال كما كانوا ينعتونه.

يعتقد مُشرف الإنتاج الذي يُراقبنا أثناء عملنا بالمصنع أنه يستطيع أن يفعل بنا ما يشاء، ونعلم جميعًا -نحن العُمَّال- أن للبطالة شبحًا يُهدد الجميع، ففُرص العمل ليست مُتوفرة بكثرة في هذه الأيام، والجميع بالمصنع يخافون غضب ذلك المُشرف وبطشه، بل ويتحملون إهاناته التي يوزعها بحق أو دون حق! إنه رجل غليظ القلب يتحكم في جيش مِن العمال بالرغم مِن عددنا الكبير. كثيرًا ما فكَّرتُ في أن نقوم عليه، فنضربه ضربة رجل واحد، وحينها ستنكسر شوكته ويتوقَّف بطشه غير المُبرر هذا، لكنه الخوف الذي يتملك كل واحد فينا، ويجعلنا قليلي العدد أمام عينيه، وهو يعلم ذلك جيدًا.

لكنني أنا دون جميع زملائي العاملين كنتُ أُدرك جيدًا أنه يُخفي وراء سطوته تلك خوفًا كبيرًا، فهو ضعيف وهَشٌ مِن داخله، ويرتدي هذا القناع الفظ ليُداري ضعفه، لذلك قمتُ بالثورة عليه، وصحتُ في وجهه وتطاولتُ عليه، فحدث ما توقعته، لقد خاف مني وارتدع عن إهاناته المُتكررة لي! لقد انتصرتُ عليه.. نعم انتصرت.

بدا الاهتمام الشديد على وجوه الجميع، فاستكمل «خليل» حكايته قائلًا:

خرجتُ بعدها مِن المصنع رغم أنها لا تزال الساعة التاسعة صباحًا، قررتُ أن أتوجه لإحدى - الدوائر الحكومية لأستخرج بطاقة شخصية جديدة، كان الجميع يقفون هناك في طابور طويل وهم يتضرَّعون إلى ذلك الموظف لكي يقوم بالتوقيع لهم على ورقة ما أو يختم لهم أُخرى، بينما هو يخاطب الجميع باستعلاء واضح وعجرفة غير مُبررة! كنتُ أرى في عينيه سعادة لا تُوصف وهو يقوم بإذلال الواقفين أمامه، فرفعتُ صوتي مُحدِّثًا إياه بحدِّةٍ مُتناهية، وقلتُ له إنه لا يساوي شيئًا، وإنه مُقتنع بذلك أيضًا في قرارة نفسه، قلتُ له إنه فقط وجد فرصة لكي يشعُر -ولو للحظات- بأنه ذو أهمية، وفاجأته بأنني أفهمه مِن داخله، فهو مريض نفسيًّا يتسوَّل اللحظة التي تُشعره بأنه ذو أهمية بينما هو موظف حكومي مغمور ومطحون. انتصرتُ عليه، نعم انتصرتُ عليه، وأنهَي توقيع أورقي وأوراق جميع الواقفين معي في لحظات قليلة.

كان النهار لا يزال في مُنتصفه عندما أنهيتُ مهمتي تلك، فقررتُ التوجه نحو بيتي، رغم أني كنتُ أشتَعِل نشاطًا، ولكني توقفتُ أمام أحد المحالِّ لأشتري حذاءً، أشرتُ للبائع ليأتيني بذاك الحذاء البُنِّي اللون، وجدته مُناسبًا تمامًا، فطلبتُ مِن البائع أن يضع حذائي القديم في حقيبة؛ لأنني سأخرج مُرتديًا هذا الحذاء الجديد. خطوتُ خطوتين خارج المحل، فشعرتُ بالهواء يتسرَّب إلى قدمي بعد أن انقسم الحذاء الجديد لنصفين! عُدتُ إلى المحل الذي أشار صاحبه وهو يُدخِّن الأرجيلة إلى لافتة ما على الحائط كُتِبَ عليها: «البضاعة المُباعة لا تُرَّد ولا تُستبدَل»! عرضتُ عليه ما حدث للحذاء، وطلبتُ مِنه بأدب أن يُعيد إليَّ مالي، لكنه أشاح بوجهه عني ليُتابع شاشة جهاز التلفاز! حينها خلعتُ الحذاء وعُدتُ لارتداء حذائي القديم، أما الجديد.. فقد هويتُ به على رأس صاحب المحل الذي ألجمَته الصدمة، وخلَّصه صبيانه مِن بين يديَّ بصُعوبة بعد أن صرختُ بكل ما في صدري، أخبرته أنه لِصّ، وأنه لا حقَّ له في تعليق هذه اللافتة، وأنني سأقوم بتبليغ الشُرطة. خرجتُ من المحل بعدها بحذاء آخر سليم كهدية، واستردتُ مالي.. لقد انتصرت.

ابتسم الجميع نحو «خليل»؛ بسبب جاذبية حكاياته المُفرطة، فقال:

وبعد ذلك، أثناء صعودي سلم بيتي، قابلني صاحب البيت مُبتسمًا ابتسامة صفراء، ودافعًا يده - نحوي بورقة بها قِيمة استهلاكي من المياه خلال الشهر الماضي، وجدتُ المبلغ مائة جنيه، دسست يدي في جيبي؛ لأخرج له النقود، لكني انتبهت، لا أحد يستخدم مياهًا بمائة جنيه شهريًّا، قلتُ له إنني أحيا بمُفردي وإن استهلاكي قليل، وإن عليه أن يضع ذلك في حسابه، وهو يقوم بتقسيم قيمة الاستهلاك الشهري على السُّكان المُشتركين في نفس العداد، لكنه صرخ في وجهي، مُحذرًا بأن عليَّ الدفع أو أنه سيطردني مِن الشقة، وسيقتحمها في غيابي، وحينها -كما يقول القانون- سيبقى الحال على ما هو عليه! كانت نظراته كنظرات حيوان مُفترس، وصوته كالأزيز في أُذني، فصرختُ في وجهه، فتراجع وهو يراني بهذه الصورة لأول مرة، علا صوتي، فتجمَّع السُّكان جميعًا؛ لينظروا إليَّ غير مُصدقين ما يرونه، ظللتُ أصرخ في وجه الرجل، وأخبره كم هو مُستبد لمُجرد ملكيته لهذه الجدران، ويظننا عبيده، ويستغلنا ويعاملنا كالخدم، يسرقنا وهو يظن نفسه في مأمَن.. حينها بدأ السكان يؤمِّنون على قولي، وثاروا عليه ولم ينتبهوا إليَّ وأنا أتوارى جانبًا..

كنتُ أهذي..

أهذي..

لقد انتصرتُ عليهم جميعًا، انتصرتُ على كل المرضى نفسيًّا الذين يُخرجون أمراضهم الكامنة في صورة القهر والاستبداد والاستعباد، انتصرتُ.. نعم انتصرتُ، ثم نقلوني إلى مُستشفى الأمراض العقلية.

«عَلَت الدهشة وجوه الجميع، فقال «مدحت:

- ولماذا نقلوكَ إلى مُستشفى الأمراض العقلية؟

فقال «خليل»:

- يقولون إنني أصبتُ مالك المنزل بعاهة مُستديمة، بل عاهتين! لكنني لا أذكر ذلك على الإطلاق، كما أنني كنتُ ما زلت على حالتي تلك مِن الثورة والهذيان، فقد كان ذلك اليوم يومًا ثقيلًا مُمتلئًا بالتحديَّات والصراعات مع الجميع منذ الصباح وحتى المساء.

فقال «مدحت» مُشفقًا:

- لقد كنتَ كإناء الضغط الذي انفجر مِن فرط الضغوط التي لم تجد لها مُتنفسًا، وربما كانت تلك الضغوط مُختزنة منذ أن كنتَ تعمل بالخارج.

«فقال «خليل:

- رُبما، لكن الأطباء في المُستشفى أقروا بأنني أتمتع بسلامة العقل، وأنني لستُ مريضًا نفسيًّا، وهو ما سيجعلهم يُحاكمونني بتلك التُهَم التي لم أشعُر بارتكابها، أنا بالفعل لا أذكر أنني اعتديتُ بالضرب على ذلك الرجل بتلك الوحشية التي وصفوها لي!

قطع حديثهم صوت صرير باب الزنزانة، فوجدوا «الصول رمضان» يفتح الباب ويقول:

- «حسن» و«سامي» و«خليل»، هيا انهضوا، يوجد استجواب جديد لكم أمام وكلاء النيابة، هيا».

ومثلما حدث قبل ذلك، طال غياب ثلاثتهم حتى المساء! لماذا يحدث ذلك معهم يا تُرى؟ سأل «مدحت» نفسه.

الخميس، الخامس والعشرون من يوليو عام ٢٠١٩

«اليوم التاسع عشر بعد إلقاء القبض على «مدحت الشاعر».

استيقظ «مدحت»، فوجد أن رفاقه الثلاثة قد عادوا إلى الزنزانة دون أن يشعُر بهم! أخذ ينظر إليهم بدهشة كبيرة، ثم التفتَ نحو «خليل»، وقال له وهو يفرك عينيه بيديه:

- إلى أين تذهبون وتغيبون كل ذلك الوقت؟ إنها المرَّة الثانية وليست الأولى، ولقد انتظرتكم طويلًا حتى الساعات المُتأخرة مِن الليل.

فقال «خليل» وهو يتثاءب:

- لقد عُدنا مُبكرًا مُقارنةً بالآخرين، فقد جئنا تِباعًا الواحد تلو الآخر بعد مُنتصف الليل بقليل، وكان لا يزال هناك العديد مِن المسجونين الذين يمتد استجوابهم حتى الساعة الثانية صباحًا.

فقال «مدحت» في دهشة:

- وأين تكونون طوال تلك الساعات الطويلة؟

فتدخَّل «حسن» وقال:

- إننا نصطفُّ في طابور طويل في الممر الضيِّق المؤدي إلى غُرفة التحقيقات، قد يصل عددنا إلى عشرين فردًا، ويتم استجوابنا بالترتيب، وهو ما يستغرق ساعات طويلة.

فقال «مدحت»:

- ولماذا يفعلون ذلك؟ لماذا هذا التكدير؟

فقال «خليل»:

- لا أدرى سوى أن وكيل النيابة ذاك يعمل في الفترة المسائية فقط، كما أنه يكره أن ينتظر كثيرًا بين الاستجوابات المُتتالية إلى أن يأتوا إليه بالمسجون التالي، لذلك فهم يجعلوننا نقف في طابور طويل في ممر ضيِّق موصد الأبواب مِن كلا طرفيه، ولا يُمكن الفرار مِنه، وهو ما يوفر الوقت والمجهود لجنود الشُرطة الذين كانوا يضطرون إلى أن يصعدوا ويهبطوا من الأعلى إلى غُرف الحجز بالأسفل عشرات المرَّات.

هزَّ «مدحت» رأسه مُتفهمًا، ثم قال وهو ينظر نحو «حسن»:

- وما هي التُهمة المُوَّجهة إليكَ يا «حسن»؟

فقال «حسن» وهو يتنهَّد:

- إنها قصة طويلة ومؤسفة، فأنا هنا بسبب زوجتي، هي مَن قامت بالإبلاغ عني.

فقال «مدحت»:

- وماذا فعلْتَ لكي تجعلها تقوم بذلك؟

فقال «حسن»:

- كان لي زميل عزيز في العمل يُدعى «سمير»، وكان يُعَدُّ مِن أقرب الزُملاء إلى قلبي على الإطلاق. ما زلت أذكُر ذلك اليوم عندما حادثته عبر الهاتف؛ لأتأكَّد مِن أنه سيكون بصُحبتي؛ لحضور ذلكَ الاحتفال الذي تُقيمه الشركة سنويًّا. كُنَّا قد التحقنا للعمل بتلكَ الشركة -أنا وصديقي «سمير»- منذ عامين ونصف تقريبًا، واكتشفنا حينها أننا كُنَّا ندرس في نفس الجامعة! لا أدري لماذا لم نتعرَّف على بعضنا قبلَ ذلكَ، برغم أننا كُنا نذهب يوميًّا إلى نفس الجامعة، وندرس نفس التخصُّص، بل وتخرجنا سويًّا في العام نفسه!

أكَّد لي صديقي «سمير» أنه يرغب في حضور ذلكَ الاحتفال معي بالفعل، لكنَّه كان لا يمتلك سيَّارة مثلي، فطلبَ مِنِّي أن أقوم بالمرور عليه لاصطحابه. سألته حينها عن عنوان منزله، فتلعثمَ قليلًا قبل أن يصفني إياه.

وصلتُ إلى مكان منزله، وحادثتُه تليفونيًّا مُجددًا؛ لأُخبره بأنَّني أنتظره بالأسفل، وبعد خمس دقائق ظهر صديقي «سمير»، وحيَّاني بيده، ثُمَّ صعد إلى سيَّارتي، وجلس بجواري. دبَّتْ فجأةً في أرجاء السيارة رائحة عِطر أُنثوي ساحر ومُثير، فاتسعتْ حدقتا عينيَّ فجأةً ثُمَّ التفَتُّ نحو صديقي، فإذ بي أشمُّ رائحة ذلك العطر بقوة أكبر مِن ناحيته هو. سألته في فُضول:

- هل تسكُن هنا منذ زمن بعيد؟

فقال لي:

- كلَّا، أنا لا أسكُن هنا، إنه منزل أحد الأصدقاء، وأنا أزوره هنا كثيرًا.

كانت رائحة العِطر تقتحم أنفي وتُخدره، فأدركتُ بذكائي أن «سمير» كان منذ لحظات بين أحضان امرأة، وأن جسده كان مُلاصقًا لجسدها، وأنها كانت تحتويه بذراعيها العاريتين بينما هو عارٍ أيضًا بالتأكيد. لقد تلامس جسداهما إلى الدرجة التي جعلت كل عِطرها ينتقل مِن جسدها إلى جسده دون أن يشعُر، تمنيتُ حينها أن أكون مثله، وأن أهنأ ذات يوم بمثل تلك الأحضان التي تنقل العِطر إلى جسدي.

عندما سألوني يومًا: لماذا تزوجت «مُنى» على وجه التحديد؟ وكيف تعرَّفت عليها؟ كنتُ أخجل أن أقول للناس إنها لفتتْ أنفي قبل نظري، وإن ما أعجبني فيها هو ذلك العِطر الذي شممتُه ذات يوم مع «سمير». لقد تمنيتُ أن تحتضنني صاحبة نفس العِطر، وكان عِطرها هو ما شجعني على أن أطلبها للزواج، لكن «مُنى» لم تكُن تحتويني بين أحضانها أبدًا كما تمنيت، بكل أسف.

فقال «مدحت»:

- يا لها مِن قصة مُشوِّقة، وماذا حدث بعد ذلك؟

فقال «حسن»:

كانت تلك هي بداية حكايتي التي جاءتْ بِي إلى هنا، وما حدث بعد ذلك كان مُخجلًا للغاية. لقد عشت مُغيبًا ومشغولًا في اللهث خلف ملذّاتي وشهواتي، ولم أنتبه إلى خطورة وحقارة ما أفعله إلا عندما وصلت إلى هذه النهاية التي أعيشها الآن، فأنا يا عزيزي مُتهم بأنني السبب في نقل مرض الإيدز إلى زوجتي «مُنى» وطفلنا الوليد، وانضمَّ إليها العديد مِن محظياتي، وكذلك بنك الدم الذي تبرعت فيه بالدم يومًا لأحد الأصدقاء. حدث كل ذلك لأنني لم أجد الأحضان التي تُصاحب العِطر الذي كان يسحرني، ويا له مِن سبب واهٍ لا يُبرر الخيانة والعبث والمصير المُؤلم والمُخزي التي صرت إليه.

صمت الجميع خجلًا وحُزنًا بسبب ما سمعوه، ولم يشأ أحدهم أن يسأل «حسن» عن أيَّة تفاصيل على الإطلاق؛ احترامًا لخصوصيته هو وأُسرته. لكن في المساء، تصادف أن ذهب «خليل» و«سامي» لاستجواب جديد، بينما بقي «حسن» دون أن يتم استدعاؤه، فحكى لـ«مدحت» تفاصيل ما حدث.

الجمعة السادس والعشرون من يوليو عام ٢٠١٩

«اليوم العشرون بعد إلقاء القبض على «مدحت الشاعر.

كان ذلك اليوم يحمل خليطًا مِن الأخبار المُفرحة والمُحزنة في نفس الوقت، فقد تم استدعاء «خليل» و«حسن» في الصباح الباكر؛ ليتم ترحيلهما إلى السجن الكبير؛ تمهيدًا لمُحاكمتهما بعد ذلك، وهو ما أحزن «مدحت» و«سامي» كثيرًا، فقد اعتادوا حياة الجماعة وضجيجها وصخبها. كان «مدحت» لا يفهم كثيرًا ما هي التُهمة والعقوبة التي تنتظر «حسن» على وجه التحديد، حتى بعد أن استمع إلى حكايته الطويلة على انفراد، ولكن «مدحت» لم يُلقِ بالًا للتوصيف القانوني لقضية «حسن» بقدر ما اهتمَّ بالمأساة الحياتية التي حكاها له. أما «خليل» فتُهمته وجريمته واضحة بكل أسف، على الرغم مِن أنه ارتكبها وهو تحت تأثير الهلاوس والهذيان العقلي.

أما الخبر المُفرح والمُفاجئ، فقد كان استدعاء «مدحت» للاستجواب الأخير. كان استجوابًا صوريًا هزليًا، وانتهى بجُملة:

- هذا وقد أمر وكيل النيابة بعدم تمديد فترة الحبس الاحتياطي للمُتهم «مدحت أحمد الشاعر»، على أن يتم الإفراج عنه في اليوم التالي، ما لَم يكن مطلوبًا على ذِمَّة قضايا أُخرى.

عاد «مدحت» إلى الزنزانة ليجد «الصول رمضان»، وهو يصطحب «سامي»؛ لكي يتم استجوابه مِن جديد، وهو ما يعني أنه سيقف في ذلك الطابور الطويل لساعات طويلة، وقد يلتقيه ليلًا وقد لا يلتقيه، فرُبما يكون «مدحت» نائمًا حينها، وهو ما حدث بالفعل.

السبت السابع والعشرون من يوليو عام ٢٠١٩

«اليوم الحادي والعشرون بعد إلقاء القبض على «مدحت الشاعر».

استيقظ «مدحت» وهو في مُنتهى النشاط والفرحة، وأخذ يرمق باب الزنزانة، وينتظر بفارغ الصبر تلك اللحظة التي سيخرج فيها. لكنه لم يكن يعلم أن إجراءات الإفراج عنه ستكون طويلة للغاية، للدرجة التي قد ستجعله يقضي يومه كله في الزنزانة.

«استيقظ «سامي» مُتأخرًا يومها، فسأله «مدحت»:

- يبدو أنكَ تأخرتَ كثيرًا مساء أمس.

«فقال «سامي»:

- أجل، فقد كنت قبل الأخير في طابور الاستجواب اللعين، وأذكُر أنني سمعت بعد استجوابي «الصول عيد» وهو يقول لأحدهم إن الساعة الآن الثانية والنصف صباحًا!

«فقال «مدحت»:

- يا للهول! وذلك يعني أن السجين الأخير قد عاد إلى زنزانته في الساعة الثالثة صباحًا!

«فقال «سامي»:

- هذا إن لم يستغرق استجوابه أكثر مِن ذلك.

«فقال «مدحت»:

أعان الله الجميع، ولكن لماذا يتم استجوابكَ بهذا الشكل يوميًّا يا عزيزي؟ هل جريمتكَ مُعقدَّة - للغاية إلى هذا الحد؟

:«فقال «سامي

على العكس، لقد ورطتُّ نفسي في جريمة غريبة بمُنتهى السذاجة والسَّخَف، وقد تم اقتيادي - بواسطة رجال الشُرطة، وسط جمع كبير مِن الناس لا أعرف مِنهم أحدًا! كان بإمكاني ألَّا أكون «موجودًا آنذاك في ذلك المكان لولا انشغالي الشديد بما فعله «العمُّ منصور.

:«فقال «مدحت

ومَن يكون «العم منصور»؟ -

:«قال «سامي

عم منصور» هو السائق الخاص بالعائلة منذ سنوات طويلة، وهو رجل يتمتَّع ببنية جسدية قوية» - للغاية بالرغم مِن نحافته! كنت أشعُر دومًا بأنه لا تبدو عليه علامات تقدُّم العُمر، برغم أنه في الأصل -عندما أتى إلى منزلنا ليعمل لدينا- كان كبيرًا في العُمر، ولكن دون أن يبدو ذلك على ملامحه. لذلك السبب لم أستطع أن أناديه باسمه مُباشرةً دون أسبقه بكلمة «العم»، فهو يكبرني بعشرين عامًا على الأقل. مرَّتْ السنوات ولم تتغيَّر هيئته منذ ذلك الحين، بينما أنا الذي أزداد عُمرًا !وأخالني أقتربُ مِن عُمره

كان العم «منصور» لا يُفضِّل أن نقوم بسماع أيَّة برامج إذاعية داخل السيَّارة سوى ما تُقدمه إذاعة القُرآن الكريم فقط! قد يكون لديه موروث ثقافي قديم يجعله يعتقد أن الأغاني والموسيقى ليستْ بالشيء الحَسَن، ورُبما يعتبرها مِن المُحرَّمات، ورُبما يعُدَّها مِن المساخر، المهم أنه كان يتجنبها بشدة، لكنَّني على العكس مِن ذلك كنت أُحب أن أستمع إلى الأغاني لأُنفِّسَ عن بعض هُمومي ومتاعبي، بالرغم مِن أني كنت أستحيي أن أبدو أمامه في صورة الرجل المُحِب للهزل أو المرح.

:ابتسم «سامي» وهو يقول

كنت ألجأ معه إلى حيلة طريفة، فعندما أصعد معه إلى السيَّارة وأجلس بجواره، كنت أُشاركه - الإنصات إلى تلاوة القرآن الكريم التي يستمع إليها، ثم أنتظر قليلًا وأقول: «صدق الله العظيم»، وأشرع على الفور في تحويل مُفتاح تغيير القنوات الإذاعية نحو إذاعة «الشرق الأوسط»؛ لأستمع إلى نشرة الأخبار التي كان يتم بثها كل نصف ساعة. في واقع الأمر، كنت لا أُحب سماع نشرات الأخبار على الإطلاق، لكنَّني أتحمَّل سماعها مُرغمًا وأنا أتصنَّع الجدية والصرامة حتى تنتهي، فيعقبها إذاعة بعض الأغاني، وهو ما كان هدفي منذ البداية. كنت ألتفت بعد ذلك برأسي بعيدًا عن «عم منصور» كي لا أرى ردَّ فعله، ولكي أُظهر له بعضًا مِن الشعور بعدم الاكتراث.

أما أولادي فقد كانوا لا يستحيون مِن «العم منصور»، وكانوا لا يهتمون بانطباعات الآخرين عنهم. فبمُجرد صعودهم إلى السيَّارة، يُبادر أحدهم على الفور بوضع أسطوانة مُدمجة للأغاني أو شريط كاسيت دون أن يستأذن «العم منصور» في ذلك، ودون أن يقول «صدق الله العظيم» مثلما كنت أفعل أنا. كانوا يضعون «العم منصور» أمام الأمر الواقع، لكنه لم يكن ينهرهم أو يُوبِّخهم على ذلك أبدًا، بل إنه يبدأ في قيادة السيَّارة مُبتسمًا، بينما الأولاد في الخلف يبدأون في الغناء والتصفيق، ويتمايلون مع أنغام الأغاني.

حبيبي قرب.. بُص وبُص بُص..

زعلان إزعل.. إزعل نُص نُص..

ألتفتُ أنا نحو «العم منصور» فأجده في مُنتهى السعادة؛ بسبب حالة المرح والسعادة التي يكون عليها الأولاد، وبسبب طريقة تفاعلهم مع الأغاني. كنتُ أراه يبتسم ويضحك مِن شدة اندماجهم مع الموسيقى، فظننتُ أنه قد يكون عاشقًا للأغاني مثلي، لكنَّه لا يُصرِّح بذلك، ورُبما يُحبها لكنَّه يخشى أن يقوم بتشغيلها بنفسه؛ خوفًا مِن موروثه الديني أو الأخلاقي الذي يُسيطر عليه منذ زمن.

لا أدري لماذا كنت أفكِّر كثيرًا في أحوال «العم منصور»، ربما لأنه رجل مسنٌّ ومُلتزم، ويستمع فقط إلى تلاوة القرآن الكريم، وربما لأن حياته تمتاز بالبساطة وراحة البال. لا بُد أن يتمتع بنفسيَّة سويَّة أكثر مِنِّي أنا، ولا بد أنه لا يُعاني مِن هموم كبيرة تُؤرقه مِثلي، فقد كنت أحملُ بداخلي همومًا كثيرة هنا وهناك، ويزداد حجمها كلما اتسعتْ دائرة أعمالي.

في يوم ما قال لي أحد الأصدقاء -وهو رجل أعمال أيضًا- إن أفضل شيء قد يُساعدني على نسيان همومي هو تدخين الحشيش! قال لي إنه عُشب أو نبات وغير مؤذٍ، ولا يُسبب الإدمان كتعاطي الكوكايين أو الهيروين، لذلك لن يُضيرني أن أقوم بتجربته يومًا؛ للتنفيس عمَّا يُطبق على روحي وصدري مِن هموم.

أخذت أفكِّر حينها، كيف يُمكنني أن أشتري ذلك الحشيش؟ لا أُريد أن أُرسل أحد العاملين لديَّ ليشتريه لي، وإلَّا اهتزَّتْ صورتي أمام الناس، فالمُهم هو الحفاظ على المظهر العام، تلك هي القاعدة الرئيسية لرجال الأعمال. تمنيتُ لو كان بإمكاني أن أُرسل «عم منصور» ليشتريَ لي الحشيش، فهو الوحيد الذي يُمكنني أن أئتمنهُ على أسراري، لكني طردت تلك الفكرة مِن رأسي سريعًا وأنا أضحك، فـ«العم منصور» لا يقوم بتشغيل الأغاني، فكيف يُمكن أن أُرسله لشراء الحشيش!

وَصَفَ لي صديقي مكانًا غريبًا يُمكنني أن أشتري مِنه الحشيش، فقد كان لا يوجد مَفر مِن أن أذهب أنا بنفسي لشرائه، وذلك لكيلا يعلم بأمري أحد. اقتربت مِن ذلك المكان المَشبوه، وتركتُ سيَّارتي بعيدًا، ثم ترجَّلتُ نحو الداخل وسط طريق ضيِّق للغاية. وصلتُ إلى مَتْجَرٍ مُتواضع يبيع بعض الخردوات، وهو في واقع الأمر تمويه ذكي لتختبئ وراءه تجارة الحشيش. كان صديقي قد لَقَّنني

كلمة سرية لا بُد أن ألقيها على البائع حتى يطمئنَّ إليَّ ويبيعني الحشيش، يا لها مِن مُغامرة ساخرة لا تليق برجل أعمال مثلي. لمحتُ أحدهم وهو يقف أمام باب ذلك المَتْجَر، فانتظرتُ للحظات ريثما يرحل، وعندما اشترى ذلك الرجل شيئًا مُريبًا في لفافة صغيرة جدًّا، رحل مُسرعًا في اتجاهي، ومرَّ مِن أمامي مُباشرةً دون أن يلتفتَ إلى أحد، فقد كان الرجل مُرتبكًا وقلقًا للغاية. تابعتُه بنظري «ريثما ابتعد عنِّي قليلًا، لكني تعرَّفتُ عليه، فقد كان الرجل هو «العم منصور!

ألجمتني الصدمة، وخارتْ قواي، فجلستُ على الأرض بجوار المتجر، فجاءني البائع وسألني عمَّا أُريد، فقلت له وأنا لا ألتفتُ إليه:

- لا شيء.

حينها أخرج سكينًا كبيرًا، ووضعه على رقبتي، وهددني به لكي أرحل مِن المكان، حينها أفقتُ مِن شرودي، وألقيتُ عليه كلمة السر التي لَقَّنني إياها صديقي، وهو ما أنقذني مِن براثن ذلك الوحش البشري بأعجوبة! هدأ الرجل وسألني مُجددًا عمَّا أُريد، فطلبت مِنه الحشيش، الكثير مِن الحشيش، الكثير جدًا مِن الحشيش، فجاءني به بالفعل، ودفعت له الثمن نقدًا، ثم عُدت إلى سيَّارتي وصعدتُ إليها، وبدأتُ في تدخين الحشيش بكثافة حتى غبت عن الوعي. لم يوقظني في الفجر سوى أفراد الشُّرطة الذين اقتحموا المكان، وقاموا بإلقاء القبض على جميع مَن فيه، بما فيهم أنا الذي كنتُ مُتلبسًا بحيازة كمية كبيرة مِن الحشيش، وهي الكمية التي لم تجعلهم يقتنعون أنها للتعاطي وليست للاتجار.

(١٤)

مُنى

البقاء مع شخص تُحبه وأنت تعلم أنك ستُفارقه، كاللعب تحت المطر، مُمتع.. لكنك تعلم أنك ستمرض لاحقًا».

غسَّان كنفاني(20)

ما أجمل إحساس الأُمومة بعد الإنجاب، هذا ما قُلته لِنفسي بعد أن أرضعتُ صغيرتي التي هدأتْ ونامتْ، ثم أودعتها في مهدها الصغير. إن إحساس الأُمومة هو إحساسٌ غريزي لدى كل النساء بلا استثناء، لكنه يختلف تمامًا بعد الإنجاب عمَّا كان قبل الإنجاب. فهو قَبلَه يكون مُجرَّد أحاسيس غامضة لا نعرف كنهها، أما الآن فالأمر يختلف بعد أن عُرِف.

قمتُ بتخفيض درجة إضاءة الغُرفة قليلًا؛ لكيلا تستيقظ صغيرتي، ثم أخذتُ أتأمَّل في وجهها الساحر. إنها كالملاك النائم، لها بشرة حريرية ناعمة، أما شفتاها فهما صغيرتان للغاية. أخذت أقترب مِن وجهها أكثر، فاكتشفتُ أن شفتيها تُماثل شفتيَّ تمامًا! لقد كنتُ دائمًا –بل وحتى الآن- أعشقُ النظر في المرآة لرؤية شفتيَّ.

كانت شفتاي تُماثلان تمامًا شفتي أمِّي، وقد يبدو غريبًا أنني أهتم بأمر تشابه الشفاه فيما بيننا بصفة خاصة، لكنها كانت تُمثل بالنسبة لي شيئًا مُختلفًا عن كونها أحد أعضاء الجسم. أذكُر أنني يومًا -وأنا صغيرة- ذهبتُ إلى غُرفة أُمي وأبي؛ لأسأل أُمي عن شيءٍ ما لم أكُن أفهمه في واجبي المَدرسي، وكانت عادتي أنني أتحرك بهدوء، ودون ضوضاء عندما أمشي، وكان باب غُرفتهما مفتوحًا. دخلتُ إلى الغُرفة، فوجدتُ أُمي واقفةً في مُنتصف الغُرفة وهي مُمسِكة بوجه أبي بين يديها! كانت تُقبِّله في شفتيه، وكان هو مُغمَض العينين مُستمتعًا للغاية بمذاق شفتي أُمي. احمرَّ وجهي خجلًا مما رأيت ولم أدرِ ماذا أفعل؟ وفتح أبي عينيه بالصُّدفة فرآني، فابتعد عن أمي على الفور. احمرَّ وجه أبي وأُمي بالإضافة إلى وجهي أنا أيضًا، فما كان مِني إلا أنني -بكل هدوء وبراءة- سألتهما سؤالًا ساذجًا لا أذكُره، فأجابتني أُمي إجابة لا أذكُرها أيضًا، فشكرتها، وهرولتُ مُسرعةً نحو غُرفتي. كانت تلك هي المرَّة الأُولى التي أتعرَّف فيها على فائدة الشفاه، وسهرتُ ليلتي وأنا أتخيَّل ذلك المَشهد الذي رأيته فيما بينهما، ولم تغب صورة شفتي أُمي عن ناظري أبدًا، فقد صارت مطبوعةً بداخلي ولا أنساها.

أصبح حلمي هو أن يأتي ذلكَ اليوم الذي أغرق فيه في قُبلة كتلك التي شاهدتها وأنا صغيرة. كنت أحرص كل يوم على أن أُراقب شكل شفتيَّ في المرآة، وكنت أُريد أن أتأكد دومًا مِن مُطابقتها لشكل شفتي أمِّي، فقد كانت شفتاها هي مرجعي الذي أستند إليه، وجواز سفري إلى حلمي الذي أتمناه.

أما اليوم، فها هي صغيرتي أمامي في مهدها، وشفتاها الصغيرة جدًّا تُشبهان شفتيَّ تمامًا، وتُشبه شفتي أُمي أيضًا، لكنني لم أحقق حلمي بعدُ. أنظر إلى الحائط لتقع عيناي على صورة زوجي الحاضر الغائب دائمًا، فهو في سهرة مع أصدقائه الآن كعادته، ثم أنظر إلى صغيرتي مرَّة أخرى، فأجدني فجأة قد زهدت في أمر تطابق شفتي ابنتي مع شفتي، أجل، لا توجد فائدة تُرجى مِن ذلك، !مثلما لم يُجدِ أن تتطابق شفتاي مع شفتي أُمي

في مثل هذا اليوم من العام الماضي، قمتُ مِن فراشي مُسرعة نحو الباب؛ لألحق به قبل أن يخرج إلى عمله، أحببت أن أسأله إذا كان يُحب أن أطهو له لحمًا مشويًّا، لكنه أجابني مُسرعًا بالرفض، فهو يُفضِّل أن يأكل دجاجًا في المساء عند عودته مِن عمله. أغلق الباب ورحل دون أن يترك لي فُرصة لمُناقشته، فقد كنتُ أشتهي أن أتناول اللحم المشوي في ذلك اليوم.

انتبهتُ إلى برودةٍ ما تسري في قدمي، فاكتشفتُ أنني أسير حافية القدمين على الأرضية السيراميكية الباردة! تذكرتُ أنني كنت أفضِّل أن تكون أرضيات شقتنا الجديدة هذه مِن الخشب الدافئ، لكنه أصرَّ على تكون الأرضيات مِن السيراميك. توجهتُ إلى فراشي مُسرعة، واستلقيتُ على ظهري، ثم أشحت بوجهي جانبًا، وأخذتُ أتأمَّل في ساعة الحائط التي أظنها لا تتحرَّك أبدًا إلا !عندما يكون هو معي هنا

لماذا تزوَّجتُ؟ أظنني تزوَّجته لأهرب من تبعيتي لأهلي في منزل والدي. فقد كنتُ أكره كل طقوسهم وعاداتهم بلا استثناء، وكنتُ أعشق أن تكون لي اختياراتي المُستقلة في كل شيء. لقد كنتُ أخضع دائمًا لما يفرضونه عليَّ مِن طعام ومَلبس ومُقابلات وزيارات، لذلك فرحتُ كثيرًا عندما تقدَّم زوجي «حسن» لخطبتي، بل إنني تعجلت لإتمام زفافي مِنه، فقد كان زواجي بمثابة الهروب الكبير مِن قيود الأسرة.

دققتُ النظر في ساعة الحائط مُجددًا؛ لأتأكَّد أنها لا تتحرَّك بالفعل كما يُخيَّل إليَّ، أشعُر وكأن الزمن يتوقف ريثما يعود هو مِن الخارج، فتتحرك حينها الساعة بنشاط واضح مِن جديد، فكل شيء هنا مُرتبط بوجوده وآرائه وأوامره! هل تراه يبثُّ الحياة بي وبالأشياء؟ بالطبع لا، إن وجوده يُقصيني عن الحياة وما فيها، لا لشيء غير كوني أُصبح نكرة.

أعود بذاكرتي إلى الماضي، فأتذكَّر أن ساعة الحائط في منزل أبي كانت تتحرَّك، فبرغم ضيقي هناك مِن كل شيء إلا أن الساعة كانت فعلًا تتحرَّك! أنا لا أملك في حياتي هنا أيَّ قرار. قد أتمنى أن أخرج للتنزه فلا يُحقق لي تلك الأُمنية إلا عندما يروق له الأمر، وقد أُحب أن أُسافر لمكان بعيد لأريح أعصابي، فلا يوافق إلا عندما يختار هو الوقت الذي يُناسبه! سئمتُ مِن حياتي معه كتابعة، نعم، أنا تابعة له في كل شيء، كل شيء، لذلك حسمت أمري ورفضتُ أن أستكمل حياتي معه هكذا، وهددته بالرحيل إلى منزل والدي. كم كنت مُحبطة عندما لم يهتز مِن طلبي هذا على الإطلاق! بل وافق على رحيلي ومنحني مُهلة للاسترخاء هناك لإعادة التفكير وكأنني طفلة معتوهة أهذي! حتى في تلك الأوقات الحاسمة يُعاملني كشيء، أي شيء.

مرَّ شهر كامل وأنا أعيش بمنزل والدي بعيدًا عن سطوة «حسن»، أخذت أسترجع ما أنجزته خلال ذلك الشهر، فوجدت أنني لم أقم بالخروج للتنزه في أي وقت كما كنت أتمنى، ولم أسافر إلى أي مكان مُنذ ذلك الوقت، ولكنني أنظر إلى ساعة الحائط، فأجدها كما هي لا تتحرَّك!

حينها قررت العودة إلى منزل الزوجية طواعية، وأنا أشعُر بأنني حطام امرأة.

هل يُجدي الآن أن أتذكَّر أنني تزوَّجته بعد قصة حُب مُلتهبة نشأت في لحظة قصيرة؛ بسبب العِطر الذي كنتُ أتعطَر به؟ هل يُغيِّر ذلك مِن الأمر شيئًا بعد أن اكتشفتُ مع مرور الزمن أنه لا يُحبني لشخصي بالفعل؟ أجل إنه لا يُحبني بحق، فالحب له أحوال أُخرى غير التي نحن عليها الآن.

* * *

أرختْ «مُنى» سماعة الهاتف بهدوءٍ، ثُمَّ التفتتْ إلى ابنتها التي جاءت لتسألها ببراءة:

- مع مَن كُنتِ تتحدثين يا أُمِّي؟

ابتسمتْ «مُنى» بحنان وربتتْ على كتف ابنتها برفق، وقالتْ وهي تتنهَّد:

- لقد كان أبوكِ يا حبيبتي.

لم تُلقِ تلك الكلمة أي تأثير على الابنة الصغيرة، كانتْ كمن لم تستمع إلى إجابة أُمِّها على سؤالها على الإطلاق، فهي لا تعبأ بسماع أي خبرٍ عن أبيها الغائب عن المنزل دائمًا، حتى في تلك الأيام القليلة التي يعود فيها مُبكِّرا مِن عمله، وصارت الصغيرة لا تهتم بوجوده أو عدم وجوده.

تتحرَّك مُنى ببُطءٍ شديد داخل المنزل، فلا شيء يدعو إلى العَجَلة، ولا يهم إذا قامتْ بإعداد طعام الغذاء الآن أو بعد ساعات، ولا يهم إذا همَّتْ بترتيب المنزل أم لا، فهُم لا يزورهم أحد، وتعيش وكأنه لا يوجد رجلٌ ما في المنزل تهتمَّ به أو بشئونه.

تنبهَّتْ إلى وخزة قوية داخل بطنها، إنه الصغير الجديد داخل رحمها، ويبدو أنه قد سأم حالة السكون تلك التي تُحيط بكل أرجاء المنزل، فأراد أن يقوم بوكز رحم أُمه مِن الداخل لكي تتنبه وتتحرَّك. وضعتْ «مُنى» يدها على مكان ركلة الصغير على بطنها، وقالت لنفسها:

- انقضت الشهور الست الأولى، وبقي على وصول الطفل الجديد ثلاثة شهور فقط. شهور ست مضتْ مُنذ أن أتى زوجها «حسن» ذات يوم ليودع نُطَفة بداخلها، ثم يعود إلى غيابه عنها. تذكَّرت ذلك اليوم وأخذت تتساءل، هل كانت تستمتع بلقائها معه حينها؟ لقد انتظرته زمنًا طويلًا وهي تحلم بمجيئه يومًا ليُشبعها ويعوضها عمَّا كانت تفتقده، لكنَّها لم تستمتع معه! تأمَّلتْ بطنها مُجددًا ثُمَّ تساءلتْ:

- وهل كان يستمتع هو أيضًا؟

تعتقد «مُنى» أنه لم يكُن يستمتع مثلها، ولم تكُن تلك اللحظات كما تمنَّتها أبدًا.

شعرت بركلة جديدة مِن صغيرها في بطنها، جعلها ذلك تُفكِّر في أمر زوجها مرَّة أُخرى، وأخذت تسأل نفسها مِن جديد:

- وهل تغيَّر زوجي معي في الفراش عن ذي قبل؟

عادت بذهنها إلى الماضي البعيد حين كانت ليلة زفافهما، كان قد دخل هو إلى الحمَّام بينما كانت هي تقوم بفتح حقيبته؛ لتستخرج له شيئًا ليرتديه، وبمُجرَّد أن فتحتْ الحقيبة، وجدتْ زُجاجة خمر كبيرة تعلو ملابسه! لم تكن تعلم أنه يحتسي الخُمور، لكنَّه ألمح قبل الزواج إلى أنه قد مرَّ بتجربة جنسية سابقة مع امرأة أجنبية. رُبما كان ذلك هو ما جعلها تستجيب لطلبه في تلك الليلة عندما دعاها لتحتسي معه الخمر، فقد قال لها: إنها ليلة خاصة، ولن يتكرَّر ذلك أبدًا. كانت «مُنى» تخشى أن تطالها المُقارنة بينها وبين تلك المرأة الأجنبية التي ضاجعها قبل الزواج، وكانت تُريد أن تكون أكثر إثارة مِنها، ظنَّتْ «مُنى» أن احتساء بعض الخمر سيجعل منها امرأة مُختلفة وأقل تحفُّظًا، فقد كانت تخشى أن ترى في عيني زوجها نظرة عدم الرضا مِن فرط المقارنة.

قالت لنفسها:

- لا بُد وأنه قد عاد إلى تلك المرأة الأجنبية مِن جديد.

كثيرًا ما أرادت أن تُصارحه وتسأله عن تلك المرأة الأجنبية، وكثيرًا ما ظنَّتْ أنه يكتفي بتلك الأجنبية، ولا يحتاج إليها لإشباع رغباته، وربما كان ذلك هو السبب في عدم اشتهائه لها.

ثلاثة شهور أُخرى تمر وهي تشعُر بنفس الرتابة والملل، إلى أن قرَّر الأطباء أن ولادة الجنين ستكون ولادة قيصرية، وتم تحديد اليوم الذي سيتم فيه إجراء تلك العملية. أفاقت يومها مِن تأثير التخدير لترى صغيرها الجديد بجوارها، ووجدت أنه يُشبه أباه كثيرًا بشكل لافت للنظر؛ ذلك الأب الذي يغيب عنهم دائمًا، حتى في لحظات ولادة ابنه!

تحامَلتْ «مُنى» على نفسها بعد ساعات، وتناولت سمَّاعة الهاتف لتتصل بزوجها «حسن» الذي لم يأتِ للاطمئنان عليها حتى الآن، جاءها صوته عبر الهاتف، فقالت له في هدوء ودون مُقدمات:

- حسن»، لقد تأكدتُ أخيرًا مِن أنك تعيش معها الآن، بل وقبل ذلك أيضًا، مَن هي؟ استمع إليَّ،» اذهب واستمتع بتلك المرأة الأجنبية كيفما تشاء، ولكن لتكُن مُستعدًا في نفس الوقت لكي تُتابع علاج طفلك الجديد مِن مرض الإيدز الذي وُلِد مُصابًا به بسببك!

(١٥)

عودة

أبلِغ عزيزًا في ثنايا القلبِ مَنزلهُ

أني وإن كنتُ لا ألقاهُ ألقاهُ

وإن طرفي موصولٌ برؤيتهِ

وإن تباعد عن سُكنايَ سُكناهُ

يا ليته يعلم أني لستُ أذكرهُ

وكيف أذكرهُ إذ لستُ أنساهُ

يا مَن توَهَّم أني لستُ أذكرهُ

والله يعلم أني لستُ أنساهُ

إن غاب عنى فإن الروح مسكنهُ

«مَن يسكن الروح كيف القلب ينساهُ؟

المُتَنَبِّي(21)

كان «مدحت» يتبادل أطراف الحديث مع «سامي» حول قصة «حسن» وزوجته «مُنى» التي عانت الكثير والكثير مِن الشكوك والخيانات المُتكررة التي لازمتْ حياتها مع زوجها، وكان يبدو عليهما التأثُر والحزن الشديد، وهما يتذكران رجفة قلب «حسن» وهو يحكي لهما عمَّا احتوته مُذكرات زوجته التي قرأها في آخر أيامهما معًا، وكذلك المآسي التي ساقها القدر إليهما تباعًا قبل أن يتم ترحيله بعيدًا عنهما، وكيف أنهما لم يستطيعا أن يعثرا على كلمة واحدة مِن شأنها أن تُخفف آلام ذلك المسكين «حسن» الغارق في شعوره بالندم والذنب حيال ما فعل. وظلَّا على حالهما هكذا يتمنيان لو أن الحياة كانت أبسط مما هي عليه الآن بالنسبة لهما ولزميلهما المسكين، حتى قطع حبل أفكارهما نداء «الصول رمضان» بصوته الجهور، والذي بدا مُختلفًا هذه المرة قائلًا:

- مدحت الشاعر»! وما أن أجابه «مدحت» في حماسة وفضول لما يرغب في قوله حتى فاجأه «!«الصول» بكلمة لم يكن يتوقعها في ذلك التوقيت تحديدًا: كلمة «إفراج

وما أن وقعتْ الكلمة على مَسمَع «مدحت» حتى انتفضَ مِن مَجلسه يتلقى التهنئة البادية على وجه رفيقه «سامي» في مَحبسه، والذي كان بمثابة العُزلة الإجبارية التي آذته ونفعته في آن واحد، لكنه نهض في استجابة سريعة وهو يسأل «الصول رمضان»:

- هل عثرتم على زوجتي؟ هل وجدتم «شهيرة»؟ وكيف حالها إذًا؟

فكبح «الصول» جماح تساؤلاته سريعًا، آمرًا إياه بالانتظار حتى يفهم كل شيء مِن وكيل النيابة بنفسه، وأن كل ما يعرفه فقط أن الأخبار جيدة، وأن الأمور صارت مُطمئنة، فانتظر «مدحت» لاهثًا حتى وصل إلى مكتب وكيل النيابة بالفعل، لكنه لم يحتج لإعادة الأسئلة نفسها؛ إذ أراحه الضابط «حسام»، والذي كان موجودًا بجوار وكيل النيابة بقوله:

- جاءنا هاتف مِن صديقتكَ المدعوة «سيرين» تُفيد بأن زوجتكَ في منزلكما الآن، وقد أرسلتُ في طلبها للحضور إلى هنا بعدما تأكدتُ مِن حقيقة ما تقول.

- حقًّا؟ هل ظهرتْ «شهيرة» بالفعل؟ هل هي بخير؟

- أجل.

- حمدًا لله، حمدًا لله على عودتها، وهل يعني ذلك أنني بريء تمامًا مِن التُّهمة المَنسوبة إليَّ؟

- نعم، لكننا نحتاج لسماع تفسير لما حدث أولًا قبل إخلاء سبيلكَ بشكل رسمي بعد أن انتفتْ تُهمة القتل أو الخطف.

ظَلَّ «مدحت» في انتظار لقاء زوجته الذي تأخر لتلك الأسابيع المريرة، والتي لم يعتدْها أبدًا في علاقتهما الفريدة مِن نوعها، وظَلَّ يُفكر في كل سؤال يرغب في سؤالها إياه، وفي أطفاله الذين ينتظرون رؤيته، وفي تلك المدعوة «سيرين»، والتي صارت تتحكم في مصيره كما تريد! مرَّ الوقت كأنه دهر حتى انفتح باب المكتب أخيرًا، ودلفتْ «شهيرة» في هدوء مُصطنَع أمام الضابط الذي ظل يُراقبها بعينه مُتفحصًا مُنذ لحظة الوصول، فنهض «مدحت» يتفحص كل جزء في جسدها بشغف، وكأنه يطمئن على أنه لم يُصِبها أي مكروه، وراح يُخاطبها بنبرة حانية وتلقائية:

- «شهيرة».. حبيبتي! حمدًا لله على سلامتكِ، لقد أصابني الجنون في غيابكِ، هل تصدقين أنهم ظنوا أنني قد آذيتكِ! أين كنتِ ولمَ لم تقومي بزيارتي طوال هذه المدة؟

استمعتْ «شهيرة» إلى كل تساؤلاته، وقرأتْ بقيتها في عينيه الثائرتين، حتى استوقفته بقولها:

- أنا بخير، سأقُصُّ عليك كل شيء في منزلنا، وستعلم لماذا لم أكن إلى جانبكَ، ولماذا لم أسعَ لتبرئتكَ، فأنا لم أكن على علم بأي شيء مِن الأساس لولا «سيرين».

جاء وقع اسم «سيرين» المُتكرر غريبًا على أذن «مدحت»، وأراد أن يستفيض في سؤال زوجته عمَّا تقصد، لكن نظرات عينيها وإشاراتها كانت تأمره بالسكوت والصبر لحين البقاء وحدهما، وكأن هنالك سرًّا ما لا تزال تُخفيه، سِرٌ يجمع بينها وبين «سيرين» التي صار يمقتها بعد تلك الشهادة التي أدلتْ بها في القضية في بداية الأمر ضده!

صمتَ «مدحت»؛ إيذانًا لما تقضي به روحها الهادئة حتى بادر الضابط بفتح التحقيق الخاص بالقضية؛ لاستجوابها بصفتها السبب الرئيسي في القبض على «مدحت الشاعر»، وتلخصَتْ إفادة «شهيرة» في أنها فرَّتْ مِن منزل زوجها بعدما شكَّتْ في كونه على علاقة بامرأة أُخرى، وأنه يسير في طريق آخر غير الطريق الذي جمع بينهما في بداية حياتهما الزوجية السعيدة على حد وصفها، وأن عودتها لم تحدث إلا بعدما تأكدتْ مِن براءة ذمته بمُساعدة «سيرين» التي أوضحتْ لها كل شيء مِن البداية، وقصَّتْ عليها طبيعة العلاقة الأدبية التي تجمع بينها وبين «مدحت» لا أكثر ولا أقل.

استمرتْ «شهيرة» في سرد أقوالها بالتحقيق؛ حتى تمكنتْ مِن إقناع الضابط بما أراد تحديدًا، وبما يكفي لإغلاق المحضر والاكتفاء باعترافاتها جُملةً وتفصيلًا، وأن الأمر لم يكن أكثر مِن مُجرَّد خلاف أُسري نتج عنه اتخاذ الزوجة قرارًا بالفرار، وقرارًا آخر بالعودة! حينها أصدر الضابط قراره هو الآخر بالإفراج عن «مدحت» بعدما أثبتتْ «شهيرة» صحة أقواله، وتبيَّن الخطأ الذي تسبَّب في سجنه كل هذا الوقت.

خرج «مدحت» مِن محبسه مُمسكًا بيد زوجته وأمارات الدهشة بادية على وجهه؛ حتى تسلل إليه ضوء الشمس الذي كان لا يزوره في مَحبسه إلا قليلًا، فبادرتْ «شهيرة» بتغطية مرمى بصره بيدها حتى يستطيع النظر أمامه، وما أن فعلتْ ذلك حتى أمسك بكلتا يديها وقبَّلهما في حنان، ثم قال في نبرة مُسترخية:

- هل ما سمعته حقيقي؟ هل كان فراركِ مِنِّي لأجل هذه الشكوك حقًا؟ ومَن أخبركِ أنني على علاقة بإحداهن؟ أخبريني وأريحيني قبل أن أُصاب بالجنون.

- أخبرني أنت أولًا، أين المُفكرة الخاصة بكَ؟ هل ما زالت لديكَ أيَّة أوراق؟

- لا أفهم ماذا تقصدين، ما العلاقة بين سؤالي وجوابكِ؟

- أسألكَ عن الأوراق التي كانت معكَ بداخل مَحبسك.

- وكيف علمتِ بأمر تلك الأوراق؟ نعم ما زالت لديَّ، بل وكتبتُ الكثير والكثير بها، ولكن ماذا تعنين بذلك؟

- حمدًا لله، لم تذهب خطتنا سُدى!

- خطتكم؟ خطتكِ أنتِ ومَن؟ عن أي خطة تتحدثين؟!

- صبرًا يا حبيبي، ستعرف كل شيء عمَّا قريب.

- لم تعُد لديَّ طاقة للصبر يا «شهيرة»، أفصحي عن تلك الألغاز الآن وعلى الفور.

استطاعتْ «شهيرة» بصعوبة أن تُقنع زوجها بالصبر حتى يبلغا المنزل؛ لكي تستطيع أن تشرح له ما الذي حدث خلال تلك الفترة، وما أن وصلا إلى المنزل بالفعل حتى وجدا «سيرين» تنتظرهما في غُرفة الاستقبال، وهي تلعب وتعبث مع الأولاد، وكأنها ليست المرة الأولى التي تراهم فيها، وهو الأمر الذي أثار حنق «مدحت» فور دخوله، فصاح فيها:

- ما هذا؟ هل تظنين أنكِ في منزلكِ؟ ما الذي جاء بكِ إلى هنا؟ وكيف تملكين الجرأة على مُقابلتي مِن الأساس بعدما تلطَّخَتْ سُمعتي بسببكِ؟ لقد قادتني شهادتكِ ضدي إلى السجن؛ حتى تعرفتُ على أُناس لم يكُن في مُخيلتي أن ألتقيهم طالما حييت!

حاولتْ «شهيرة» امتصاص غضبه العارم بالمكوث إلى جانبه، والإشارة لـ«سيرين» كي تجلس بدورها، ومِن ثمَّ شرعتْ في الحديث الذي كان له عظيم الأثر على قسمات وجهه بتغيرها من حال إلى حال:

- اهدأ واسمعني يا «مدحت»، لقد كانت تعلم «سيرين» بمسألة اختفائي، بل إنها كانت المُخطط الرئيسي للأمر برمته، وهي التي أبلغت الشرطة مُستغلة مُغادرتكَ للشاليه في تلك الليلة؛ لكي تغدو قضيَّة اختطافكَ لي بلا ثغرات، وهي مَن أثار الفكرة وأنا مَن ساعدتُ على تنفيذها.

فبادرهما بالسؤال مُستنكرًا:

- لا أُصدِّق ما أسمع! وما الغرض مِن كل ذلك؟!

فأجابته «سيرين»:

- انظر لما تحمله في يدكَ، وستجد الإجابة واضحة.

نظر «مدحت» نظرة سريعة على ما يحمله، فوقعتْ عيناه على المُفكرة الصغيرة وقصاصات الورق التي تخرج مِنها في عشوائية، لكنه استبعد الإجابة التي جاءت في مُخيلته، وانتظر أن يسمعها واضحة مِن فم إحداهما، فبادرتْ «شهيرة» تقطع حبل أفكاره قائلة:

- فعلنا ذلك بغرض نجاحكَ يا «مدحت»، بغرض كتابة الرواية وما سيليها مِن راحة كنت تصبو إليها لليالٍ طويلة، هل تذكر حينما كنتَ تقول لي إنكَ لن تقوى على الكتابة أبدًا إن لم تحيَ صراعها؟ هل تذكر حينما قلت لي ذات مرة إنك تتمنى لو نزل عليك الإلهام ولو

بكارثة درامية حتى يحين موعد الانتهاء من كتابتها؟ لقد قلتَ لي حينها إن الأمور لا تسير بهذا الشكل، حسنًا، لقد افتعلناها مِن أجلكَ، فعلنا ذلك مِن أجل تحقيق ما طلبت مُعاونة «سيرين» لكَ طوال هذا الوقت ولم تنجحا.

بدا على وجه زوجها علامات المُفاجأة مِن أنها تعلم تفاصيل عمله مع «سيرين» والتي لحقته بدورها قائلة:

- نعم، لقد كنتُ أتحدَّث مع زوجتكَ، وأخبرتها بكل شيء دار بيننا، وعن عملي الذي حتَّم عليَّ مُساعدتكَ بأي طريقة مُمكنة، لكنني عندما أدركت قدر الحب الذي تكنُّه لـ«شهيرة»، أردت استغلاله، وها نحن قد استغللناه أحسن استغلال.

عقَّب «مدحت» بكلمات مُتوقعة مِن طرفه:

- استغللتِه؟! وأين كانت «شهيرة» طوال هذه المدة؟

- كان تعيش في شقتي، والكل يعلم أنها بخيرٍ، وأن جُلَّ ما أردناه هو حياكة ذلك الصراع الذي يحثُّكَ على الإنتاج الأدبي، ومما لا شكَّ فيه أنه قد حدث ذلك.

قالتها «سيرين» بثقتها المعهودة قبل أن يرفض «مدحت» استكمال الحديث معها؛ لكبريائه الذي آلمه على المدة التي قضاها حبيس زنزانته وأفكاره وشكوكه التي لم تنقطع به أبدًا في ذلك المكان، ولم تقُده أبدًا إلى مُخططها القاسي رغم نجاح أغراضه، فبادر بالمُغادرة إلى الطابق العلوي مُتعمدًا الصمت، مُتجاهلًا وجودها، وراح يحتضن أولاده، ويسأل عن حالهم، ويستمع إلى شكاواهم، وكمّ الوحشة التي يكنها كل فرد للآخر.

وما أن انتهتْ «شهيرة» مِن توجيه الشكر لـ«سيرين» التي غادرت بدورها، حتى صعدتْ خلفه كي تُصلح ما أفسدته تلك المُحادثة اللعينة التي كانت تخشاها طوال الوقت، وما أن دلفتْ مِن باب الغُرفة استعدادًا لتلقِّي اللوم الشديد والعتاب المُنتظر على فعلتها حتى فوجئت بعكس ما توقعته تمامًا، حيث استقبلها «مدحت» بحنين جارف جعله يجذبها إلى كنفه سريعًا، وراح يزفها بكلمات الشوق التي يعرفها جميعًا:

- هل تظنين أني حزين لرؤيتكِ؟ لقد انتظرتُ تلك اللحظة بلهفة لا يُمكنني وصفها لكِ مهما حاولت، لقد آذاني غيابكِ يا «شهيرة»، لكنني لن أكرهكِ أبدًا وأنتِ تعلمين ذلك، آذاني غيابكِ لكنكِ ستبقين الشخص الوحيد الذي أرغب في أن أقصَّ عليه كل شيء، وأصف له كل لحظة وكل كلمة وكل ليلة لم تغفل فيها عيني مِن القلق والارتياب.

حينها قاطعته «شهيرة» وهي تُطبق ذراعيها الحانيتين على جسده:

- كلي آذان صاغية.. والشخص الذي ستقصُّ عليه كل ما كتبتَ يا عزيزي.

(١٦)

لأنها تستحق

آهٍ على قلبٍ هَواهُ مُحَكَّمُ

فاضَ الجَوَى مِنهُ فظُلمًا يكتمُ

وَيْحي أنا بُحتُ لها بَسِرِّهِ

أشكو لها قلبًا بنارها مُغرَمٌ

ولَمَحتُ مِن عينيْها ناري وحَرْقَتي

قالت على قلبي هواها مُحرَّمُ

كانت حياتي فلمَّا بانتْ بِنأْيِها

!صار الرَدَى آهٍ عليَّ أرحمُ

عنترة بن شدَّاد(22)

«بعد مرور ٦ أشهر من إخلاء سبيل «مدحت الشاعر

حفل توقيع آخر رواية

- أنتِ السبب في النجاح الذي أعيشه حاليًا.

- لا تنسَ أن عقلكَ هو مَن استطاع الاستفادة مِن كل لحظة عاشها داخل السجن..

- نعم، لكن لولا تخطيطك.

كان «مدحت» وزوجته شهيرة يتبادلان أطراف الحديث قبل الإعلان عن بدء فعاليات حفل التوقيع الذي أقامته له دار النشر في المقر الخاص بها، فيما كانت «سيرين» تجلس بين الحضور إلى جانب صديقه «سعيد المقدم» في مُحاولة للتواري عن الأنظار؛ حتى لا تُثير غضب «مدحت» في يوم مهم كهذا، لكن مُحاولتها سُرعان ما باءتْ بالفشل إذ ناداه «سعيد» بحماسة بالغة فور أن وقع نظره عليه في نهاية القاعة، وما أن فعل ذلك حتى بادله «مدحت» التحيَّة، واقترب مُمسكًا بيد زوجته وعلى وجهه نظرة امتعاض مِن رؤيته لـ«سيرين» التي لم يتمكن مِن الحديث معها بشكل

طبيعي مُنذ خروجه مِن السجن، وعلمه بالخطة التي حاكتها مِن أجله ومِن أجل زوجته التي أراد أن يقص عليها نجاحه، وأنه على الرغم مِن النتيجة التي حققتها إلا أنه لم يكن يراها كالطريقة المُثلى، وكان الخوف يُراوده بأثر رجعي طوال الوقت!

وما أن اقترب منه حتى ألقى التحية على صديقه، ومِن ثمَّ كررها على «سيرين»، ولكن بنبرة مُغايرة، مما أجبرها على الحديث مُدافعة عن نفسها:

- أنا لا أعلم لماذا لا تنظر حولك، وترى ما الذي وصلتَ إليه؟ إن الغرض الذي جئتني لأجله ها هو يتحقق، وها أنت تحتفل بإصدار الطبعة العاشرة مِن روايتكَ الجديدة، وفي وقت قياسي لم تكن لتحلم به أبدًا، هل تذكر كم كنت فاقدًا للأمل قبل ذلك؟

- وهل تظنين أن ما عانيته كان بالأمر البسيط؟ هل تظنين أن الاختلاط بالمجرمين كان أمرًا سهلًا؟ هل تُدركين مدى قسوة وقذارة الزنازين هناك؟ هل تظنين أن الاستماع لقصص المُتهمين في قضايا القتل والجُنَح باختلاف أنواعها، وكذلك مَن أُلقي القبض عليه في حيازة المُخدرات والحشيش كان أمرًا يسيرًا؟ ناهيكِ عن ذلك كله، هل تظنين أن ابتعادي عن زوجتي وجهلي بمكان وجودها ومصيرها كان عاديًّا! أنا أحبها ولا أقوى على الاستغناء عنها، وكدت أموت بسبب قلقي وجزعي عليها، لكنك أقنعتِها بفكرة غريبة كانت سببًا في عذابي ونجاحي في آن واحد.

- حسنًا، لا يُمكنني إنكار ما تقول، لكنكَ لم تكن لتصل لما أنتَ فيه اليوم لولا ما فعلناه، صدقني، لا يوجد أسهل مِن اختلاق الصراعات كي نحياها، كي نصل إلى الراحة المرجوة في نهاية المطاف، ووجّهت نظرها إلى صديقه «سعيد المقدم» كي يؤكد على ما تقول وسألته:

- أليس ما فعلناه صحيحًا يا أُستاذ سعيد؟ قل له إن الأوراق والقلم الذين جلبتهم إليه في زيارة السجن كانوا أغلى شيء يُمكننا تقديمه إليه آنذاك!

لم تستكمل «سيرين» حديثها، ولم تسنح الفرصة لـ«سعيد» أن يجيب دهشة صديقه الذي علم لتوه أنه كان طرفًا ثالثًا في الخطة، إذ تبادر إليهم صوت أحد مسئولي دار النشر وهو يدعو الحضور للترحيب والتصفيق بضيفهم الغالي «مدحت الشاعر»، ومُباركته على النجاح الكبير الذي حققه في الفترة الأخيرة، ومِن ثمَّ التوجه إليه بالأسئلة التي يرغبون بها حتى تكتمل الليلة كما خُطط لها، وبالفعل جلس «مدحت» وإلى جانبه زوجته «شهيرة» وأمامهما بين الحضور «سيرين» وإلى جانبها «سعيد» والكثير مِن المُعجبين والمُقدرين لأدبه وفنه في كل عمل، وبعض مِن الصحفيين الذين كانوا على علم بمسار التحقيقات، وما انتهتْ إليه بأن فرار زوجته «شهيرة» كان مقصودًا بعد الشكوك التي قادتها لذلك كما أفادت أمام وكيل النيابة، وبدأ «مدحت» يُجيب عن الأسئلة كافة بكل أنواعها حتى اختتم الحفل بسؤال أخير رقص قلب «شهيرة» لإجابته بعدما قال له أحد الصحفيين وهو يُشير إليها:

- وكيف سامحتَها؟

فجاء ردُّه وهو ينظر إلى عينيها بعشق:

- لأنها تستحق!

* * *

استيقظ «مدحت» في الساعة الثانية صباحًا، نظر إلى «شهيرة» وهي كالملاك النائم بجواره، فابتسم في حنان، ثم نهض مِن فراشه وتوجَّه نحو حُجرة مكتبه، ثم أخرج تلك الأوراق التي كان يخطُّ فيها أفكاره عندما كان في السجن، تلك الأوراق التي أهداها له «سعيد» عندما كان يُحضر له الطعام.

«ماذا أقول لكِ يا شهيرة؟ كتبَ مدحت.

لقد أخطأتُ، وها أنا أكتبُ إليكِ الاعتذار، وأنا أعلمُ أنه لن يكفيكِ ألف اعتذارٍ واعتذار.

ليسَ ذلك بسبب جَسَامَة الخطأ الذي ارتكبته في حقِّكِ، فجميع البَشَر يُخطئون، ولكن لأن مَكانتكِ أعلى مِن كُل شيء، ولا يليقُ بكِ أبدًا أن يمَسَّكِ أي مَكروه حتى وإن كان بمُجرَّد النَظَرات لا بالكلام أو الأفعال! فالنَسيم لا نتحدَّث معه إلا بلُغة النسيم، وأنتِ يا «شهيرة» أكثرُ رِقَّةً مِن أرقِّ نسيم على وجه الأرض.

سامحيني يا «شهيرة»، فأنا بصدقٍ لَم يَكُن لديَّ أي نوايا سيئة مِن أي نوع، وكيف يَحْدُث ذلك وأنتِ عِشقي الذي أتنفَّسه، وحُب عُمري الذي أحيا مِن أجله؟ ربما أكون قد أخطأتُ في تقدير الأمور، لكنني لا أُخطئ في حقيقة حُبي لكِ أبدًا.

وأنتِ يا «شهيرة» تعلمينَ كُل شيء، وتذكُرينَ كُل شيء، فحياتي قبلكِ كانت شيئًا آخر، وحياتي بعدكِ صارت حُلمًا آخر، وكنتِ أنتِ الفاصِل فيما بينهما، صرتِ أنتِ الدليلَ والتغيير وبداية التأريخ.

لم أكُن أبدًا ممَّن يؤمنون بالحُب مُنذُ النظرة الأولى، وكُنتُ على يقين بأن الحُب لا بُد أن يأخذ وقتًا طويلًا حتى ينضج، لكنني عندما أحببتكِ أنتِ، أدركتُ حينها أن يومًا واحدًا نعيشُه مع مَن ترتاح له الروح قد يُغني عن سنواتٍ طويلة مِن التجارُب والمُحاولات مع الشخص الخطأ!

كُنتُ قبلكِ لا أؤمِن بالحُب أبدًا، وكُنتُ أُكرِّر أن الاستسلام للحُب هو خَطَأٌ كبير، أتدرين ماذا حدثَ بعد أن عرفتكِ؟ أدركتُ أن عدم الاستسلام للحُب هو الخَطَأ الأكبر!

ما زلت أذكُر ذلك اليوم الذي حضرتُ فيه حفل زفاف أحد الأصدقاء، كانت السعادة تبدو في عينيه بينما كنت أسخرُ أنا مِن كُل ذلك! حدَّثتُ نفسي:

ما جدوى كَل ذلك الهراء؟ وما الذي يجعل الرجل يُكَبِّل نفسه بكَل تلكَ القيود وهو يبدو سعيدًا؟ - ربما سمعتني السماء وأراد اللهُ أن يُجيبني عن تساؤلاتي تلك، فهداني إلى أن أتعرَّف عليكِ، حينها فقط وجدتُ في عينيكِ جميع الإجابات وكُل التفسيرات!

أتذكرينَ يا «شهيرة» كيف كُنتُ أُقاوم الاعتراف بالحُب؟ لقد حاولت إنكار ما أشعُر به، لكنني لَم أصمُد أمام سِحْر عينيكِ طويلًا!

ما زلتُ أحفظُ كُل كلمةٍ قُلتِها لي حينما فَشلتُ تمامًا في إنكار أنني أُحبك، قُلتِ لي يومها:

- كُنتَ تُحاول جاهدًا أن تُخفي ما بقلبكَ، لكن عينيك كانتا تفضحانكَ باستمرار، كانتا تكشفان عن كُل ما بقلبكَ، فقد كانت عينكَ اليُمنى تكاد تنطِقُ بحرفِ الحاء بينما اليُسرى تَشي للناس بحرفِ الباء، وما بين الحرفين لم أستطِع أن أمنعَ عينيّ مِن أن تُجيب عن عينيكَ: وأنا أيضًا أ ح ب ك.

ومُنذُ ذلك الحين لَم يتغيَّر في قلبي أي شيء، ولَم يقلَّ حُبكِ في صدري قيد أُنمُلَة، فأنا لا أُريدكِ أن تكوني في قلبي آخر حكايات العِشق وَحَسْب، بل أُريدكِ عِشقًا تنتهي به كُل الحكايات!

سامحيني يا «شهيرة»، فالحياة ما هي إلَّا مَكانٌ وزَمان، ولا تحلو الأماكِن إلَّا في وجودكِ، ولا تهنأ أوقاتي إلَّا وأنتِ معي، وإن كانت لي أُمنيَّة أخيرة فهي ألَّا يتحوَّل كُل ذلك إلى ذكريات.

حبيبكِ

مدحت

ثم طوى تلك الرسالة وقرر أن يودعها بداخِل نفس المَظروف الذي يحتوي على وصيَّته التي كان قد أعدَّها لـ«شهيرة»، فاكتشف أن المَظروف قد تم فتحه! فابتسم مُجددًا وهو يقول لنفسه:

- لن يُغضبني ذلك أيضًا يا «شهيرة».

(١٧)

بعد شهر ونصف مِن حفل التوقيع

مرت الأيام هادئة في منزل «مدحت» و»شهيرة»، هدوءًا لم ينعما به مُنذ فترة طويلة، وذلك بعدما أخذ يقُص عليها كل ما مرَّ به خلال فترة مَحبسه، كان يتذكر أمرًا جديدًا في كل مرة، وكانت هي أيضًا تقُصُّ عليه كل ما شعرتْ به في غيابه، وما أرادته وما حدث حقًّا، وما لم تكن تتخيَّل أن يحدث، وظَلَّا يُقيمان المُقارنات ويمنحان بعضهما وعودًا بالبقاء شريكين إلى الأبد. كما قصَّتْ عليه مُساعدات صديقه «سعيد المقدم» والتي لم تتوقف أبدًا، وكيف أن الجميع كان يعمل لمصلحته ولما وصل إليه، وأن الكارثة التي تمنَّتها على سبيل المزاح ذات يوم كان لها سبب في تلك النقلة الأدبية التي شهدتها مسيرته، وأخذت تُبرر له بأنها لم تكن تستطيع المكوث هكذا مكتوفة الأيدي دون حراك طالما أن الحل مِن المُمكن تنفيذه!

مرَّت الساعات والأيام دون انقطاع الحديث الذي صار موضوع حياتهما في تلك الفترة، وانقطعا عن العالم كله، حتى فاتهما ذات يوم اتصال «سعيد» الذي كان يحيا جانبه مِن الحياة بطريقته الخاصة هذه المرة، والذي أراد أن يقول لهما إنه في طريقه إليهما وفي نيته أن يُخبرهما بالإعجاب الذي نما لديه تجاه «سيرين»، لعلهما يساعدانه في إتمام الخطوات التي تقوده إلى قلبها يومًا بعد يوم، وفي اللحظة ذاتها التي أمسك هاتفه كي يعاود الاتصال مُجددًا، فوجئ بصورة «سيرين» على أحد مواقع التواصل الاجتماعي وفوقها خبر الإبلاغ عن اختفائها وتغيُّبها مُنذ يومين، وأن الشرطة لم تعثر في سيارتها أثناء التحقيق سوى على بقايا سيجارة حشيش من نوع خاص يبدو أنها تابعة لأحد المتورطين في أي كان ما حدث لها!

وما أن انتهى من قراءة الخبر حتى تذكر أنها لم تُحادثه مُنذ يومين بالفعل، ولم تأتِه سيرتها حتى على سبيل الصدفة! فقد كان يظن أنها مُنشغلة بعمل جديد أو ما شابه ذلك، ولم يأتِ في مخيلته أبدًا أنها قد أصيبت بأذى! فما يعهده مِنها هو أنها قوية لا يُمكن لغريب اقتحام دائرتها بسهولة، ولا تحتاج لأحد أن يخشى عليها ويحميها! ومِن هنا أدركَ أن الاحتمال الوحيد لما حدث هو أن مَن آذاها هو شخص قريب منها دون أدنى شك!

فأغلق الهاتف، وانتفض مُتجهًا إلى منزل صديقه «مدحت» الذي انتهى هو الآخر من قراءة نفس الخبر لتوه، بينما ترتسم على وجهه ابتسامة صغيرة.

تمت

مارك توين (١٨٣٥م – ١٩١٠م) صحفي وروائي أمريكي يُعَد مِن أشهر الكُتَّاب الساخرين في تاريخ أمريكا، وله العديد مِن الحكم والأقوال المأثورة، بخلاف حبه للعلم والاختراعات؛ حيث تم تسجيل ثلاث براءات اختراع باسمه، وكان صديقًا لعالم الكهرباء الأشهر نيقولا تيسلا.

مُصطفى صادق الرافعي (١٨٨٠م - ١٩٣٧م) شاعر وأديب مصري يُلَقَب بمُعجزة الأدب العربي، حصل فقط على الشهادة الابتدائية (مثلما كان الأديب عباس محمود العقاد)، وكانت إصابته بمرض التيفود وهو صغير قد سببت له عاهة مُستديمة في أذنيه أدَّتْ إلى فقدانه السمع نهائيًّا (مثلما كان عميد الأدب العربي طه حسين قد أُصيب بالعمى).

نزار قبَّاني (١٩٢٣م - ١٩٩٨م) شاعر سوري مُعاصر، تخرج في كلية الحقوق بدمشق، وعمل سفيرًا لسوريا في العديد مِن دول العالم، يعتبره النُقاد رئيسًا لجمهورية الشعر، وأكثرهم إحساسًا بالمرأة، وخصوصًا أنه عانى فقد أُخته، وكذلك فقد زوجته وحبيبته العراقية «بلقيس» التي توفيتْ مِن جراء تفجير سفارة بلادها في بيروت.

جبران خليل جبران (١٨٨٣م - ١٩٣١م) شاعر وأديب لبناني مِن شُعراء المهجر، عاش وتوفي في الولايات المُتحدة الأمريكية، وكان مِن مؤسسي الرابطة القلمية لتجديد الأدب العربي، ومات وعمره ٤٨ عامًا. كما اشتُهِر أيضًا برسائله الغرامية المُتبادلة مع الأديبة الفلسطينية المُقيمة بالقاهرة (مَي زيادة) والتي تبادلاها على مدار عشرين عامًا دون أن يلتقيا أبدًا.

جلال الدين الرومي (مولانا): هو أديب وشاعر وفيلسوف وفقيه إسلامي على المذهب الحنفي السُنِّي (١٢٠٧م - ١٢٧٣م) وهو من مواليد أفغانستان، لكنه عاش أغلب سنوات عمره بمدينة قونية عاصمة السلاجقة الأتراك (تقع في تركيا حاليًا)، وتتلمذ على يد شمس الدين التبريزي الذي شاركه كتابة «قواعد العشق الأربعون».

Pagliacci هي كلمة إيطالية تعني المُهرج، وهي ترمُز أيضًا لعرض أوبرالي شهير مِن تأليف «روجييرو ليونكافالو» عام ١٨٩٢م، وتحكي هذه الأوبرا عن مهرج يُدعى «كانينو» يُدير فرقة من الكوميديين، وكان مُغرمًا جدًّا بزوجته «نيدا» التي حذرها بأنه لن يقبل لعب دور المَخدوع إلا فوق خشبة المسرح فقط، لكن كانينو (الذي كان واثقًا مِن أن زوجته تخونه) يُقدِم في أُمسية ما على قتل «نيدا» وعشيقها قبل أن يختتم العرض قائلًا: إن الكوميديا قد انتهت الآن.

التَخْتْ: أصلها كلمة فارسية تعني المَصطَبة العالية، كان يجلس عليها عازفو الفرقة الموسيقية والمُطربون، ويتكوَّن مِن آلات موسيقية أساسية وهي العود والقانون والناي والكَمَان والطبول والدُّف. انتشر التَخْت الشرقي في القرن الأخير مِن حياة الدولة العُثمانية بتركيا الحالية ومنه إلى باقي البلاد العربية.

الاتحاد السوفيتي (١٩٢٢م - ١٩٩١م) كان اتحادًا يضم أكبر دولة في العالم (حيث كانت تُمثِّل سُدس مساحة الكرة الأرضية)، وقد قامت تلك الدولة باتحاد ١٥ دولة بقيادة روسيا، وكانت نِدًّا للولايات المُتحدة الأمريكية عبر عقود سُميَّتْ بالحرب الباردة، إلى أن تفككتْ على يد آخر رؤسائها وهو ميخائيل جورباتشوف.

محمود درويش (١٩٤١م – ٢٠٠٨م): شاعر فلسطيني مِن مواليد فلسطين قبل الاحتلال الإسرائيلي، ويُعد مِن أبرز المجددين في الشعر العربي، كما كان عضوًا بمنظمة التحرير الفلسطينية. كان آخر ديوان شعر له قد نُشر بعد وفاته، وكان بعنوان «لا أُريد لهذه القصيدة أن تنتهي»، وكأنما كان الشاعر يرثي نفسه قبل وفاته.

محمود درويش (١٩٤١م – ٢٠٠٨م) شاعر فلسطيني مِن مواليد فلسطين قبل الاحتلال الإسرائيلي، ويُعد مِن أبرز المجددين في الشعر العربي، كما كان عضوًا بمُنظمة التحرير الفلسطينية. كان آخر ديوان شعر له قد نُشر بعد وفاته، وكان بعنوان «لا أُريد لهذه القصيدة أن تنتهي»، وكأنما كان الشاعر يرثي نفسه قبل وفاته.

مُصطَفى محمود القعقور (١٩٢٣م - ١٩٩٦م): شَاعِر لبناني لَم يُكمِل تعليمه، وقام بتثقيف نفسه بنفسه، وعَمِلَ مُراقِبًا للشِعر الغنائي في الإذاعات اللبنانية لثلاثة عقود، وصدر له العديد مِن الدواوين الشِعرية. تُعَدُّ قصيدة «الليل يا ليلى» مِن أَجْمَل ما لَحَّنَ وغَنَّى الفنان «وديع الصافي».

وليام شِكسبير (١٥٦٤م - ١٦١٦م) هو الأديب الأشهر لإنجلترا، والذي اشتُهِرَ بكتاباته المَسرحيَّة المَلحَميَّة الشهيرة مِثْل: هاملِت، عُطيل، الملك لير، ماكبيث، وتاجِر البُندقيَّة وغيرها، وتُعَد أعماله مِن الكلاسيكيَّات الرئيسيَّة التي يتم تدريسها لطُلَّاب الأدب الإنجليزي، وكذلك يتم إعادة تمثيلها حول العالم.

الإنتربول: مُنظمة الشُّرطة الجنائية الدولية، تم إنشاؤها عام ١٩٢٣م وينتمي إليها ١٩٤ دولة، وتعنى تلك المُنظمة بالتعاون بين أجهزة الشُّرطة المُختلفة للدول الأعضاء؛ وذلك لتبادُل المعلومات الجنائية وتعقُّب المجرمين بين الدول وتسليمهم، ومُكافحة الجرائم الدولية.

عبد الرحمن الأبنودي (١٩٣٨م – ٢٠١٥م): هو شاعر مصري مِن شعراء العامية المصرية مِن مواليد محافظة قنا بأقصى جنوب الصعيد، اشتهر بنظم الشعر الغنائي وكذلك الفلسفي العميق، وقام بتأليف العديد مِن الأغاني المميزة لكبار المطربين، وتعد تلك الأغاني مِن أيقونات وأساسيات الطرب المصري والعربي.

الحبس الاحتياطي هو إجراء مِن إجراءات التحقيق، غايته ضمان سلامة التحقيق الابتدائي مِن خلال وضع المتهم تحت تصرُّف المُحقق وتيسير استجوابه أو مُواجهته كلما استدعى التحقيق ذلك، والحيلولة دون تمكينه مِن الهرَب أو العَبَث بأدلة الدعوى، أو التأثير على الشهود، أو تهديد المجني عليه. وللمحبوسين احتياطيًّا الحق في أن يزورهم ذووهم مرة واحدة كل أسبوع في أي يوم مِن أيَّام الأسبوع عدا الجُمَع والعُطلات الرسمية.

مُرسي جميل عزيز (١٩٢١م - ١٩٨٠م) شاعر غنائي وقاص وسيناريست مصري، يُلَقَّب بشاعر الألف أُغنية، وتغنَّى بكلماته عمالقة الطرب أمثال أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب وفريد الأطرش وعبد الحليم حافظ وغيرهم، وترك أشعارًا عديدة ظهرتْ بعد وفاته كان أشهرها أغنية «مِن غير

ليه» التي كان يُلحنها عبد الوهاب لعبد الحليم لكن الأخيرين توفيا قبل خروج الأغنية إلى الوجود، والتي غنَّاها محمد عبد الوهاب بنفسه.

مدينة نخل بوسط سيناء، تقع على بُعد ١٥٦ كيلومترًا جنوب مدينة العريش، كما تبعُد ١٢٧ كيلومترًا شرقي مدينة السويس، وهي أهم محطة على طريق الحج المصري القديم عند افتتاحه في أواخر الدولة الأيوبية، وقد كان ازدهار «نخل» باعتبارها المحطة الرئيسية في تمويل وتزويد قافلة الحج بالمؤَن وتوفير سبل الراحة والأمن.

جمال عبد الناصِر: هو ثاني رئيس لمصر بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢م، والتي أطاحتْ بالنظام المَلَكي، وأقامتْ النظام الجمهوري لحُكم مصر. كان عبد الناصِر أحد الضُبَّاط الأحرار الذين قاموا بتلكَ الثورة، وحكمَ مصر مُنذ العام ١٩٥٦م وحتى وفاته عام ١٩٧٠م عن عُمر يُناهز ٥٢ عامًا.

جان بول سارتر (١٩٠٥م - ١٩٨٠م): فيلسوف وروائي فرنسي مِن رواد الفلسفة الوجودية المُلحدة، وكان ناشطًا سياسيًّا مُقاومًا لألمانيا في الحرب العالمية الثانية، كان رفيقًا دائمًا للفيلسوفة الفرنسية الوجودية «سيمون دي بوفوار»، والتي دُفِنَتْ بجواره في نفس القبر بعد وفاته بستة أعوام. فاز سارتر بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٦٤م، لكنه رفض استلامها؛ بحجة أنه يجب ألا يَحْدُث هذا التكريم الرفيع أثناء حياة الشخص.

غسَّان كنفاني» (١٩٣٦م - ١٩٧٢م): هو أديب وصحفي فلسطيني متعدد المواهب، وهو مِن» أشهر مَن حملوا لواء الدفاع عن القضية الفلسطينية. كانت مقالاته وأعماله الأدبية الغزيرة سببًا لاغتياله في لبنان على يَد الموساد الإسرائيلي عندما كان عُمره ٣٦ عامًا فقط، ولكنه تركَ لنا حصيلة ضخمة من الأعمال الأدبية المتنوعة، حيث قامت الأديبة السورية «غادة السَمَّان» بنشر كتاب يحتوي على الرسائل الغرامية التي تلقتها مِن «غسَّان كنفاني» في فترة الستينيات، وهي نصوص أدبية رومانسية إبداعية تتحدث عن الحب المستحيل وخصوصًا بسبب اختلاف ديانتيهما.

أبو الطيِّب المُتَنَبِّي (٩١٥م - ٩٦٥م): مِن أعظم الشعراء العرب على الإطلاق، وهو مِن مواليد الكوفة بالعراق، استقرَّ به الحال في بلاط «سيف الدولة الحمداني» والي حَلَب وراعي الأدب في ذلك العصر، ومَدَح في شِعره غزواته وأمجاده، وعندما اختلف معه رحلَ إلى مصر ليمدَح كافور الإخشيدي، ثم عاد إلى الكوفة ليُقتلَ هناك بسبب قصيدة هجاء، وكان عُمره خمسين عامًا.

عنترة بن شدَّاد (٥٢٥م - ٦٢٥م): من قبيلة بني عبس، وهو أحد أشهر شُعراء العرب قبل الإسلام، أحبَّ ابنة عمِّه «عبلة»، والتي كانت مُلهمته في قصائد الغزل العفيف التي ينشدها، وطلبها للزواج، لكن عمَّه طلب مِنه مهرًا تعجيزيًا وهو ألف ناقة مِن نوق الملك النعمان، وقد لاقي عنترة الأهوال ليحضرها ونجح في ذلك بالفعل. اختلف المؤرخون عمَّا إذا تزوَّج عنترة بعبله بالفعل، أم إن أباها ماطله مُجددًا.